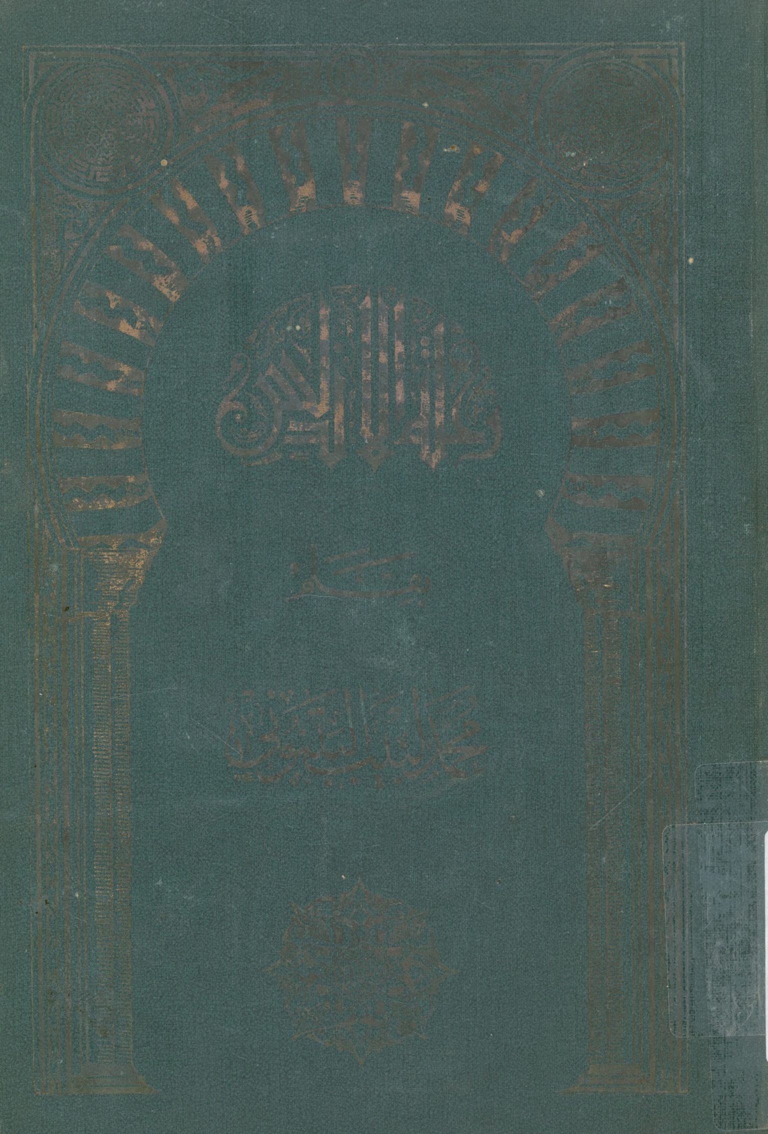

بقلم

ان الله لا يغير مابقوم
حتى يغيروا ما بأنفسهم
قرآن شريف



بقلم

محمد لبيب البتنوني

الطبعة الاولى



الحمد لله على آلائه والصلاة والسلام على رسله وانبيائه!

وبعد فقد طلب منى بعض اخواني أن أجمع رسائلي التي أرسلت بها من أوروبة فى شهر أغسطس الماضي إلى جريدة « الاهرام » الغراء فنشرتها بعنوان « جولة فى اسبانيا » . فابيت طلبهم شاكراً لهم هذه الرعاية وقد زدت على هذه الرسائل ماتكمل به فائدتها . وأضفت إلى كل رسالة كلمة تفسح فى تاريخها مع العظة التي تستخلص منها. مبتعداً عن كل ما يؤثر فى العاطفة الدينية أو القومية بالتطرف إلى حد المبالغة فى مدح أو نقد . ولزيادة الفائدة أضفت اليها رسوماً لبعض صور تلك الآثار الجميلة التى تركها العرب فى الاندلس . وكذلك خريطة لاسبانيا والبورتغال وفرنسا تتضمن مواقع البلاد التي وصل اليها الفتح العربي . ثم ذيلت رسائلي بقاموس موجز لما وردنا من أسماء البلاد لعهد العرب وما يقابلها الآن من الاسماء الفرنسية . والله المسئول أن ينفع بها ؟

محمد لبيب البتنوني





تمهيد

كانت حالة اسبانيا قبل فتح العرب لها اشبه بالبداوة منها بالحضارة ولم يعلم التاريخ لاهلها بمدنية قديمة يذكرون بها بل كانوا طوال عمرهم طعمة للفاتحين من فينقيين ورومان ويونان وقرطاجيين و قوط. وما كانوا يعرفون شيئا من اسباب الحياة الا ما كانوا يستخرجونه من معادن بلادهم فيستبدلون به مادة غذائهم وكسائهم من تجار الامم المحتلة لبلادهم ، حتى اذا دخل فيهم عنصر الدول المتغلبة اخذوا يحملون سلاحهم ويدافعون عن حوزتهم واصبحوا امة اشتهرت بانها حربية وهي وان كانت تعيش بين اركان القرى فقد كان اهلها غارقين في خشونة الهمجية الى اواخر القرن الرابع للميلاد . ولم تقم لاسبانيا قائمة الا في المدة التي حكمها القوط في اوائل القرن الخامس للمسيح . ولما دخلتها النصرانية وكثر ورود القسس اليها دعا الملك ريكارد في اواخر القرن الخامس بطارقة النصرانية الى مؤتمر في طيلطلة وعلى اثره اعتنق المذهب الكاثوليكي . ومن ثم احتفل بكنسية طيلطلة هو وقومه حتى اصبحت غنية بكثير من الاواني الذهبية التي كانت منها تلك المائدة الثمينة البديعة التي اخذها العرب بعد استيلائهم على هذه المدينة وقدمها ابن نصير الى الوليد الاموي مع الغنائم التي وفد بها على دمشق بعد الفتح .

وهنا يقف القلم باهتا حائرا خجلا من ان يرى لبعض مؤرخي العرب في بعض الآثار التي تتصل بالتاريخ القديم لاسبانيا اقوالا لا تنطبق على عقل ولا فكر بل هي

اساطير (١) اعتادها بعضهم عند ما يريد ان يتكلم على شيء تغلغل تاريخه في بطن الماضي البعيد .ولا بد ان يكونوا قد اخذوا هذه الاساطير عن سكان البلاد بعد فتحهم لها . وتاريخ الاسبان انفسهم مشحون بكثير من امثال هذه الخرافات . و لكون

(١) نذكر لك باختصار شيئاً مما جاء في نفح الطيب من غير تعليق عليه :

أولا — ذكر ان المائدة التي وجدها طارق في طليطلة وقدمها ابن نصير الى الوليد الاموي كانت لسيدنا سليمان عليه السلام . وانها وصلت الى طليطلة مع الملك بريان وكان قد اشترك مع بختنصر في حربه لبيت المقدس . ووقعت هذه المائدة في نصيبه من الغنائم بعد اخذهما مدينة القدس ؟

ثانياً — ماذكره من أن سيدنا سليمان وسيدنا عيسى صلوات الله عليهما أتيا الى طليطلة في حياتهما ؟

ثالثاً — ما ذكره سامحه الله من « أن بوغاز الزقاق » كان موضعه برزخ يصل مابين أسبانيا وبلاد المغرب . فلما حضر الاسكندر ذو القرنين الي هذه الجهة ؟ اشتكى له أهل أسبانيا من تعدى أهل المغرب عليهم فامر فازيل هذا اللسان وبذلك اتصلت مياه المحيط بمياه البحر الابيض ففصلت مابين البلدين » . وهذا القول صحيح من جهة وجود اللسان وزواله . ولكن الذي أزاله هو يد الطبيعة عقب اضطراب بركاني عظيم اندكت له ارضه كما اندكت له الارض التى بين الاناضول والاستانة . وبكانها الآن بوغاز البوسفور الذي وصل البحر الاسود بالدردنيل . وكذلك الحال في بوغاز باب المندب الذي فصل بين أسيا وافريقيا . وبوغاز بهرنج الذي فصل بين شمالي أسيا وأمريكا . وذلك كله قبل وجود التاريخ وقد يكون قبل وجود الانسان . وبهذه المناسبة نقول أن الطيار السويسري هوتندر الذي وصل على طيارته الى القاهرة يوم الجمعة ١٤ ديسمبر سنة ١٩٢٦ قال في حديثه لمكاتب الاهرام الغراء انه يريد السفر الى اواسط افريقيا للتحقق من نظرية وجنر الذي يقول بان القارات كلها كانت متصلة بعضها ببعض وانه سيأتى زمن ينفصل فيه جنوب أفريقيا الى نصفين في في المنطقة التى تبتديء من جبل كينيا الذي يبلغ ارتفاعه ٥٨٠٠ متر

رابعاً — ماذكره من ان الصنم الذي كان بقادس كانت له خاصية عجيبة لما كان يحيط به من الطلسمات التى بنى عليها وانه كان يمنع مرور الرياح من البحر المحيط الى البحر الابيض وان مفتاح هذه الطلسمات كان موضوعا في صندوق من الفضة في بيت خاص به في طليطلة لا يفتحه احد . فلما كان زمن لذريق ساقه حب الاطلاع على ما في هذا البيت ففتحه . وفتح الصندوق الذي به فوجد فيه تماثيل على صورة العرب مكتوبا عليها « سيملك هذه البلاد قوم على هذه الصورة » — ثم قال — وبفتح الصندوق بطل عمل الطلسمات ودخل العرب اسبانيا ! ! !

والقول بالسحر والطلسمات قديم في الامم . وقد عقد ابن خلدون في مقدمته بابا خاصا به قال فيه « وكان للسحر في بابل ومصر زمان بعثة موسى عليه السلام اسواق نافقة . ولهذا كانت معجزة موسى من جنس مايدعون ويتناغون فيه . وبقى من آثار ذلك في البرابي بصعيد

العرب امناء على النقل لم يشاءوا ان يحكموا عقولهم فيها ولا في غيرها من هذا القبيل: لذلك ترى تاريخهم انفسهم قبل الاسلام سقيما عليلا فيه كثير من الاساطير التي تنعدم حقيقة التاريخ بين سطورها. وربما ترى هذه الامانة نفسها في أيامنا هذه حتى في الازهر الشريف فانك تجد اهله يحترمون غلطات المؤلفين ومع اعتقادهم أنها أغلاط فانهم لايزالون يتركونها لهم في كتبهم ولا يريدون أن يصلحوها احتفاظا بامانتهم فى النقل.

وعلى كل حال فاني لم اطلع للعرب على تاريخ للاندلس بحيث يقوم بحاجة من يريد الاطلاع على تاريخها فحسب، ذلك لان مؤرخيهم ينتقلون من رواية الى أخرى ومن شيء من التاريخ الى شيء من الادب ومن شعر لناظم الى نثر لكاتب ومن شيء فى الاندلس الى شيء في العراق أو فى مصر يجر اليه سياق الحديث مما يتعب له الذى يريد ان يطلع منه على شيء فى خصوصه. وحسبك ان تلقي نظرة على كتاب نفح الطيب وهو أكبر كتاب في تاريخ الاندلس لتعلم حقيقة ذلك، وخير ما رأيته من روايات التواريخ العامة خاصة بالاندلس هو ما كان لابن خلدون. وفي كتاب «الاستقصا في تاريخ المغرب الاقصى» شذرات مختصرة قيمة ذكرت فيه هنا وهناك على حسب علاقتها بتاريخ المغرب.

مصر شواهد دالة على ذلك؟ الى ان قال — واما التفرقة عندهم بين السحر والطلسمات فهو ان السحر لايحتاج الساحر فيه الى معين. وصاحب الطلسمات يستعين بروحانيات الكواكب؟ واسرار الاعداد. وخواص الموجودات؟ واوضاع الفلك المؤثرة في عالم العناصر كما يقول المنجمون. ويقولون: السحر اتحاد روح بروح. والطلسم اتحاد روح بجسم؟ الى ان قال — واما الشريعة فلم تفرق بين السحر والطلسمات وجعلته كله بابا واحداً محظورا» وذكر ابن خلدون في هذا الباب ان مسلمة ابن احمد المجريطى امام اهل الاندلس في التعاليم والسحريات لخص كتبها وهذبها في كتابه الذي سماه (غاية الحكيم). ولم يكتب احد في هذا العلم بعده».

ومن هذا ترى ان السحر والطلسمات كان لها مجال كبير في الاندلس ولا بد انها انتقلت منها الى بلاد المغرب ولا يزال من أهلها من يشتغل بها الى الآن. وشهرتهم بذلك في مصر شائعة ذائعة. وبمناسبة استشهاد ابن خلدون ببرابي مصر في أمر الطلسمات يذكر القراء ما كتبته جرائد اوروبا وخصوصا الانكليزية منها منذ سنتين حين وفاة اللورد كارنارفون بعد اكتشافه قبر توت عنخ امون على اثر لدغة بعوضة او ذبابة في نفس المقبرة. وكانوا يتساءلون

ومن المطبوعات الجديدة مختصران قيمان الاول عن رحلة بالاندلس للاستاذ محمد كرد علي . والثاني تاريخ للامويين بالاندلس للاستاذ محمد عبد الله عنان .

وفي الجملة فقد كان للاسبان قبل دخول العرب اليها شيء من المدنية القوطية وكانت هذه المدنية شائعة فى اوربا الوسطي على اثر اكتساح القوط للدولة الرومانية في اوائل القرن الخامس للميلاد . وقد اندمج القوط فى البلاد التى فتحوها وفنيت لغتهم فى لغتها واتصلت مدنيتهم بمدنيتها ولم يضع الافرنج لها فنا خاصا بها الا في القرن الثالث عشر للميلاد . واقدم اثر لهذا الفن باوروبا هو كنيسة كولونيا بالمانيا . اما اسبانيا فاضخم واعظم اثر فيها هو دير الاسكوريال الذي بناه فليب الثاني في النصف الثاني للقرن السادس عشر . ووضع الاوربيون بعد ذلك للبناء العربي الاندلسي الجميل فنا خاصا به سموه استيل مورسك (STYLE MAURESQUE) اخذوه على الخصوص من قصور الحمراء . وترى شيئا منه فى بعض وجهات ابنية مصر الجديدة (هليو بوليس) وعلى الخصوص في فندقها الا كبر .

وقد دخل أصل هذا الفن مع العرب الى اسبانيا فانهم لما جازوا اليها نقلوا معهم بعض مدنية الشرق . ولما فرغوا من حركة الفتح فى السنين الاولى من جوازهم الى الاندلس أخذوا فى تخطيط الدور . وتشييد القصور . وحفر الترع . واقامة الجسور . وبناء القناطر . وشق الخلجان . وتهيئة الاراضي للزرع .

عما اذا كان موته انتقاما منه لفتحه تلك المقبرة التى باركها الكهنة أثناء دفن هذا الملك بتعازيمهم التى كانت تدور حول لعنة من يجرؤ على فتحها . وقد قويت عندهم هذه الفكرة بعد موت ذلك العالم الاثرى الفرنسى عقب زيارته لهذه المقبرة في السنة التالية .

اما التمثال الذي كان بقادس فقد اقامه فيها الرومان عند استلائهم على اسبانيا لهرقل او هرقيل وهو احد آلهتهم وهو عندهم آله الزرع وحامى البلاد من عدوها . وحامى المسافرين في البر والبحر . وقد اقاموه في هذه المدينة ليحميها من اعدائها القريبين منها في بلاد المغرب ومن هذا تجسمت تلك الخرافة في اذهان الاسبان وانتقلت منهم الى العرب فذكروها بغير تعليق عليها . وربما توسع بعضهم فيها فزاد عليها وجعلها من عند نفسه وما زال هذا التمثال بقادس حتى اذا ثار على بن عيسي قائد البحر ظن أن تحته مالا فهدمه فلم يجد شيئا .

والعناية بتربية ذوات الضرع . واستوردوا من مصر والشام كثيراً من الاشجار والنباتات مما لم يكن له وجود فى قارة أوروبا . حتى اذا ضربوا بجرانهم . وأناخوا بكلكل سلطانهم . وأخذ معين الثروة يتفجر فى كل ناحية من نواحي البلاد وظهرت معالمها في جميع شؤونهم . اهتموا بنشر العلوم وتشييد هيا كل الفنون. وكانوا يكافئون كل من برز فيها ويجيزون كل من ظهر فى آفاقها ويبالغون في مكافأة المؤلفين . فتغير حال البلاد من بداوة مطلقة الى حضارة متألقة . وتكشفت سماؤها مما كان يتكاثف فيها من سحب الجهالة عن شموس من العرفان تنير أفلاكها . وتملا أجواءها . بمادة العلوم المختلفة من دينية . وطبية . وزراعية . وفلسفية . وطبيعية . وكيميائية . وغير ذلك من أدب جامع . ونظم رائع . مما كان مادة للافرنج بنوا عليه شيئًا كثيراً من مدنيتهم الحالية . وكان ملوك العرب وأمراؤهم في مقدمة الناس اهتماماً بهذه العلوم . وتحصيلا لها . حتى لقد كانوا مع شغلهم بأعباء ملكهم لا يريدون أن يروا أنفسهم أو يراهم الناس أقل ممن اشتغل بتلك العلوم مهنة وصناعة . وكانت مجالسهم أشبه شيء باندية علمية يشاطرون فيها العلماء علمهم فى وقت فراغهم من أعمال الدولة . بل كانوا فى مجالس أنسهم ولهوهم يتنقلون في كثير من الشؤون : فمن هزل الى جد . ومن مجون الى فنون . ومن صحفة شراب . الى صفحة كتاب . وهذا لعمري كان سبباً في شحذ قرائحهم وارهاف بديهتهم . وتهذيب طبيعتهم . حتى أصبحت لا يصدر عنها الا كل ما رق وراق . وبدع وشاق . وكانت قصور قرطبة وسرقسطة وطليطلة واشبيلية وجيان والمرية وبلنسية وغرناطة مطالع سعود . وموارد وفود . ومرابض أسود . ومساكن جنود . ومراكز بنود . ومجامع عظماء . ومنتديات علماء . كما كانت مجالي سرور. ومراتع حبور. وكنس غزلان . وملتقى اخدان . ومزار ندمان. وبالجملة فقد جمع أمراء الاندلس فى شباب دولتهم من الملك بين جلاله وجماله . ومن الوجود بين نسيمه ونعيمه : فأخذوا من حياتهم بالحسنيين لدينهم ودنياهم . مع أخلاق فاضلة . وحكومة عادلة . ونفوس

ماثلة . للعاجلة والآجلة . فشادوا للملك قراره. وللعلم مناره. وللفن داره . وللانس مزاره . وسار الناس على سننهم . والناس على دين ملوكهم .

ومن يطلع على أقوالهم في نثرهم وشعرهم ير أن مجالس القوم بعد فراغهم من أعمالهم كانت مجتمع أحباب. لكل مالذ وطاب. من أكل وشراب. وسماع أغاني. بين مثالث ومثاني . من ذي عذار أو ذات سوار، ولكن في حشمة ووقار . حتى اذا ولي شباب نهضتهم . واسلم الملوك سلاس قيادهم الى مهاد شهوتهم . وتركوا حبل البلاد على غاربها. لم يلبثوا ان ظهرت فيهم معالم الخمول . وأخذت زهرتهم في الذبول . ونجم سعودهم في الافول . فنضب معين ثقافتهم . وانحلت عروة وحدتهم. وتفككت رابطة جماعتهم . وجفت دماء همتهم . وخبت ريح نعمتهم. وماتت قلوبهم والقلوب لاتموت الا اذا غفل الداعي . وهجمت عليهم الذئاب من كل ناحية والذئاب لاتهجم الا اذا نام الراعي . ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم .

الرسالة الاولى

كدت أترك مصر وأنا معتزم أن أمضي ردحة من الزمن في جبال البرينيه ترويحاً للنفس وارتياداً للصحة . فلفت نظري أحد أخواني الى زيارة اسبانيا التي لم أكن أعرفها مع اني جبت تقريباً أكثر أقطار أوروبا شرقا وغربا وشمالا . وكان عدم معرفتي باللغة الاسبانية يمنعني من هذه الزيارة لاسيما أن في هذه البلاد البقية الصالحة من آثار ذلك الملك العربي الفخم. ولهذا يقصدها كل سنة عشرات الآلاف من السياحين من أوروبا وأمريكا والمانيا على الخصوص . وكان أحد اخواني قد سهل عليّ عدم معرفتي لغة القوم بما أخبرني من شيوع اللغة الفرنسية فيهم . وحينئذ قويت عزيمتي وأخذت تذكرة سفر في أول أغسطس (سنة ١٩٢٦) أقطع بها السكة الحديدية الاسبانية من شمالها الى جنوبها ومن غربيها الى شرقيها . مارا باهم البلاد التي كان للعرب اثر فيها .

وأول ما مررنا طبعاً بعد أن تركنا الحدود الفرنسية بمدينة (ايرن) وهي أول حدود اسبانيا الشمالية الغربية . وبعد التفتيش العسكري على تذاكر المرور (لان البلاد تحت الاحكام العرفية) ثم التفتيش الجمركي على أمتعتنا . سار القطار الى سان سباستيان . وهنا تجلت لي حيرتي بعدم معرفة لغة البلاد . لانه رغما من أن هذه المدينة متصلة بالحدود الفرنسية . ورغما من أنها مدينة من أشهر حمامات البحر في اوربا — فأني وجدتني غريباً فيها لعدم معرفتي باللغة الاسبانية . ولما لم أجد لي مخلصاً من هذا المأزق الا التشبه بالانكليز في جمودهم . نذرت لله صوما أن لا أكلم اليوم اسبانيا ، ويومي هذا على النصف من يوم مريم : لان يومها كان شهراً ولاني كنت قدرت لسياحتي في هذه البلاد نصف شهر . هنالك أصبحت عزلتي ضرورية لأني لا أفهم الناس والناس لا يفهمونني حتى أحتفظ بكرامتي بعدم ظهوري بينهم بمظهر الجاهل . وهم لو أنصفوا لوجدونا كلينا هذا الرجل .

وهنا أقول انه من الضروري للعالم وجود لغة أخرى تكون الثانية لكل انسان حتى تكون بها الحلقة التي تربط جميع أفراد العالم بعضهم ببعض . فتسهل عليهم أمورهم وتقوى رابطتهم العلمية والمالية والتجارية والصناعية . ولقد فكر فى ذلك القوم باوروبا واشتغلوا بوضع أصول لغة جديدة سموها (الاسبيرانتو) . ولكنهم لم ينضجوها بعد أو أنهم لم ينجحوا فى وضعها أو فى تعميمها بين الناس. وهم لو نجحوا لاحدثوا بها تقدماً كبيراً وسريعاً في كل مرافق الحياة وفى كل طرف من أطراف العالم . ولاستغنى بها الناس عامة عن تعلم عدة لغات ربما لا تصلح لشيء اذا هي انتقلت من وسطها الذي تعيش فيه . على انه لا حاجة لكل هذه المتاعب في خلق لغة جديدة . وحسب الناس الاتفاق على لغة من اللغات الكثيرة الانتشار في العالم لتكون هي اللغة الثانية لكل أمة .

سان سباستيان

هي أعظم مدن اسبانيا البحرية على الاقيانوس الاطلانطي وعلى خليج جاسكونيا وعدد أهلها خمسون الف نفس وهي مصيف ملوك اسبانيا . وترى قصر الملك في قمة جزيرة صغيرة جميلة في مدخل المرفأ تسمى جزيرة كلارا . وهذه الجزيرة بوضعها الطبيعي تخفف عن المرفأ هجمات أمواج الاقيانوس . ولهذا يكون الاستحمام في مياهها مأمونا وليس فيه شيء من الخطر . وفي هذا المرفأ حمامات عامة فخمة خصوصاً في جهة الجنوب .

ومن الناس من يقيمون لهم على الشاطيء خيمات صغيرة يقضون فيها يومهم بملابسهم البحرية عامة نهارهم .

وهذا المرفأ على شكل هلال يقوم على طرفه الشمالي جبل ارجيله وعلى الطرف الجنوبي جبل ايجالدو . وهما أشبه شيء بالدده بانات ليمنعا نفوذ العواصف الى داخل المرفأ . فالمدينة اذن فى حرز حريز بهما من عواصف الشتاء . ولهذا كانت مدينة شتوية أكثر منها صيفية :

ويحيط بالمرفأ رصيف جميل جداً . وهو ان كان ضيقاً بعض الضيق الا انه غاية من النظافة واللطافة قامت عليه الابنية الجميلة من فنادق وغيرها من مساكن الخاصة . وكنت أرى في طريق الكورنيش برسيليا شيئا من الجمال ولكن هذا الرصيف وكذلك الرصيف الذي يحيط بجبل ارجيله انسيانيه بل انسياني رصيف الاسكندرية الذي على المينا الشرقية والذي كاف المدينة أكثر من نصف مليون من الجنيهات : لانه ينقصه تمام العناية به لتنظيفه على الخصوص مما فيه من الحشرات الانسانية حتى يصبح للخاصة نصيب من التنزه عليه.

وتكثر في المدينة الميادين اللطيفة قامت عليها اشجار جميلة تتخللها رياض الورود والرياحين والزهور المختلفة . مما يجعل كل ميدان جنة زاهرة ودوحة باهرة . ويفصل مباني المدينة نهر أيروما وترى لمياهه عند اتصالها بمياه الاقيانوس شكلا بديعا يكسو صفحة الماء زبداً فضيا دائما . وتسمع للامواج في هدوئها اصواتا كاصوات القبل تهيج الاشجان بهذه الموسيقى الطبيعية . ولعل لهذا الزبد الابيض الذي تراه هنا على طول الشاطيء الاطلنطي معنى في تسميته بالشاطيء الفضي . وعلى حافتي النهر من جهة الجنوب تياترو فيكتوريا ومن جهة الشمال تياترو الكورسال . وقد دخلت هذا الاخير فوجدته افخم شيء في بابه . والمدينة القديمة تقع على يمين المرفأ في سفح جبل ارجوله . وهي بكل اسف قذرة وعامة اهلها من الصيادين : فترى نساءهم ينسجن شباك الصيد منثورات على الارض وبعضهن يعملن في تمليح السردين على رصيف المرفأ الشمالي. وهذا القسم كقسم الانفوشي بالاسكندرية قبل انشاء الرصيف . وهو الوصمة الوحيدة في جبين هذا المرفأ الجميل . وفوق هذا الجبل قلعة قديمة لا يسمح بالصعود اليها وبجوارها مقبرة لبعض الضباط الانكليز الذين ماتوا في احتلالهم لهذه المدينة اثناء الحرب التى قامت بينهم وبين الاسبان في سنة ١٨١٣ .

اما طرف المرفأ الجنوبي فهو غاية في النظافة وحسن النظام وابنيته جميلة . ويصعد الى جبل ايجالدو بالفنيكيلير الكهربائي . ويحيط به في اعلاه بهو كبير واسع

له بلكونات تشرف على المدينة كأنها صفحة جغرافية ، وتشرف من جهة اخرى على الاقيانوس فتراه في عظمته لايحده غير اتصال الماء بالسماء في افق يتخلله شيء من القتام على الدوام حتى في ايام الصفاء . وفي اعلى الجبل لوكندة فيها مالذ وطاب من اكل وشراب ومحاضرة على نغمات الموسيقى خصوصا (بعد العصر) . ومن دون اللوكندة على الجبل مكان فيه طائفة من الزنوج يضربون على الطنبوره ويرقصون ويشربون نوعا من المريسة . وهم انما يمثلون افريقية للناس بهؤلاء المتوحشين الذين لايزالون في الحلقة الاولى من الانسانية ! ! وكان اولى بهم ان يعرضوا في مكانهم بعض اسرى الريف الذين ظهروا للعالم وللتاريخ بكبير شهامتهم .وهم لايزالون يدافعون عن كرامتهم وحوزتهم تلقاء هاتين الدولتين الضخمتين مع قلة عددهم وعددهم .

ولقد صادف اليوم الذي قررت فيه سفرى من هذه المدينة الاعلان عن (١) مصارعة الثيران . وذكروا اسم من يتولى الصراع فى هذه الحفلة وهو الدون

---

(١) هذا النوع من الصراع قديم في بلاد اسبانيا . ولا يدرون هل دخل اليها من طريق الرومان او من طريق القرطاجيين . والبعض يقولون انه ظهر في اسبانيا بعد دخول العرب — فان كان هذا صحيحا — فيكون من طريق البربر الذين اخذوه عن القرطاجيين بحكم التبعية او الجوار . اما العرب فلا نعلم عنهم في تاريخهم انهم اشتغلوا بمثل هذا الصراع . وعلى كل حال فقد كان صراع الثيران الى القرن التاسع من الميلاد يدخل في انواع الفروسية التى كانت تظهر فيها بطولة المصارع باسبانيا . فقد كان ينزل الى الميدان الذي به الثور المتوحش ويهجم عليه ويأخذ بقرنيه ولا يزال به حتى اذاغلبه على امره والقاه الى الارض كان له شرف الانتصار على خصمه . فاذا كانت الغلبة للثور هجم عليه بعض المتفرجين بخناجرهم واثخنوه جراحا يقع منها صريعا . وربما انقذوا الرجل من تحت قرنيه وفيه رمق من الحياة فيقوم وهو يتعثر في خجله . وكثيرا ماكان ينزل المصارع الى هذا الميدان فارسا فيقتتل مع الثور وتكون النتيجة القضاء على احدهما .

ولم يتغير شكل هذا الصراع الى صراع فنى مداره على خفة المصارع ومرونته في حركاته الا في القرن الثاني عشر الميلادي . وبالجملة فصراع الانسان مع الحيوانات المفترسة كان منتشراً في الدولة الرومانية .

وملعب الكوليزيوم لا يزال أثره موجوداً في روما . وكان يسع ثمانية آلاف نفس وقد كان افتتاحه سنة ٨٠ ميلادية مدة الامبراطور تيوليس الذي أمر فادخل في ساحة هذا الملعب خمسة آلاف من الحيوانات المفترسة وأرغم المسيحيين المساكين الذين منوا باضطهاده

(انتونيو كثيرو) اعظم فرسان هـذه الحلبة عندهم . كما ذكروا ان الملك سيحضرها مع العائلة المالـكة . ولما لم يكن سبق لي رؤية هذا الصراع الا فى الصور السيما توغرافية اخرت سفري لمشاهدته فى اكبر ميادينه واعظم مظاهره. وهذا الصراع قديم فى هذه البلاد : يتدرب منهم قوم على مصارعة الثيران التي تربي لهذه الغاية فتجد الثور على منتهى ما يكون من الوحشية . عظيم الهامة قوي العضل . ويبلغ ثمنه عندهم اضعاف ثمن مكافئه من غير ذات الصراع .

وللمصارع شهرة كبيرة في قومه تتناسب مع قوة صراعه وله فيهم احترام

على قتالها . وكان اهل روما يجتمعون في اعيادهم في هذا المـكان لمشاهدة الالعاب المختلفة التى كانت تقام فيه . ومنها مصارعة بعض الرجال للوحوش . ولقد كانوا يلقون ببعض العبيـد الى ميدان هذا الملعب وهم عزل من كل شيء . ثم يرسلون عليهم بعض الاسود من خيسها من باب له على هذا الميدان . فيأخذ المساكين في دفعها عن أنفسهم بحكم طبيعة النضال الحيوي . ولـكنهم لا يلبثون أن يصرعوا وتأخذ السباع في نهش أجسادهم . وهنا لك كنت تسمع رنات السرور والاعجاب من النظارة .

وكثيراً ماكان الملك يامر فيلق ببعض من يغضب عليه من القواد الى هذا الميدان ومعه آلة كفاحة ويرسلون عليه بعض الآساد فيدفع القائد خصمه بشدة .

وقد يتغلب عليه ويصرعه وهنا لك يمحو دم الاسد ما كان له من جريمة فيصفق له الناس من كل جهة هاتفين له بكلمات الاستحسان وعند ذلك يضطر الملك الى العفو عنه ويرجعه الي قيادة جيوشه بعد تهنئته بهذا الظفر العظيم .

ومن هذا وذاك ترى ان شدة فرح الناس بالظفر في هذه الميادين كانت تنسيهم فظاعة تلك الدماء التى تسيل على ارضها من احد الخصمين مما أذا رأوها في غير هذا المكان اخذتهم الشفقة والرحمة واستدعوا جمعية الرفق لاسعاف صاحبها .

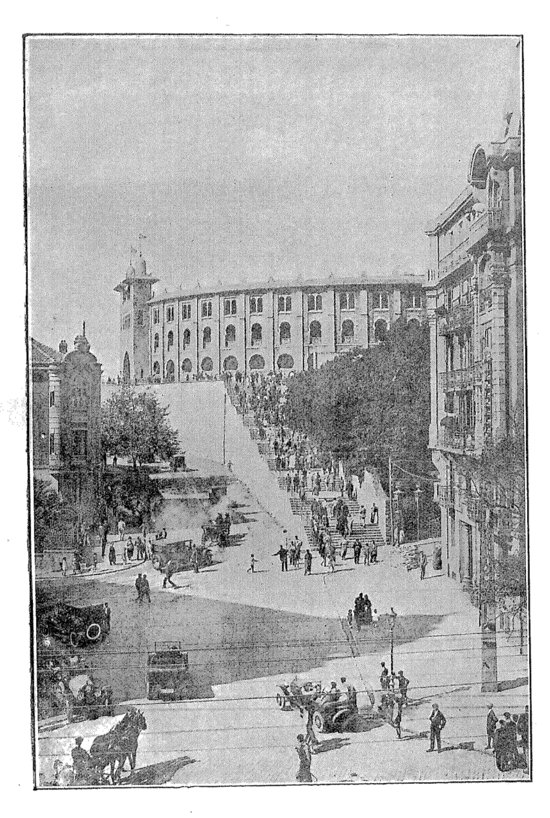
وقد كان يكثر الصراع في الازمنة الغابرة بين حيوان وآخر من نوعه فقد كان بين الثيران كما كان بين الـكبوش والديكة . وكان الصراع في هذين النوعين الي زمن قريب بمصر .

اما الصراع بين انسان وآخر فقد كان من الالعاب الرياضية التى كانت تستعملها اليونان والرومان . وبها كانت تظهر قوة الشخص المادية وهى كل شيء في تلك الازمان . فيكون له بها شرف البطولة التى يحرز بها في قومه المجد الاعلى والشرف الاسمى . وقد يصل بها الى عرش الملك بل الى عرش الالوهية في نظرهم .

اما الآن فاشتغال الناس بهذه الالعاب الرياضية قد اصبح عاما في البلاد المتمدنة ولـكن على قاعدة « العقل السليم في الجسم السليم » وقد اصبح لابطالها المحترفين لالعابها شيء من هذا الشرف يتردد صداه في انحاء المسكونة . وهذا غير مايكسبونه من مادة الرهان على انتصاراتهم مما تـكون لهم به ثروة قد تقدر بالملايين .

كاحترام كبار الرجال وعظمائهم . وكثيرا ماتراه محمولا على الاعناق من الشعب بعد انتصاره على خصومه من هذه الحيوانات الفظيعة . اما اذا صرع الثور خصمه فتلك الطامة الكبرى والحزن العام والكآبة الشاملة ، غير ما يحدثه ذلك من الذعر في نفوس القوم وعلى الخصوص القريبين منه في جلوسهم . وقد يعترى الثور في هذه الحالة شبه جنون فيهجم على الحاجز الخشبي الذي يفصل بين المصارعين والنظارة . فينشأ عن ذلك تدهور في بعض صفوفهم فيسقط بعض الناس على بعض ويحصل منه ضرر كبير يصحبه موت الكثيرين تحت اقدام الفارين من الهلع والخوف . وهنا أرجو أن تسمح لي بان أقص عليك مارأيت :

وصلنا الى هذا المكان فوجدته عبارة عن دائرة أرضية يبلغ قطرها ثلاثين مترا على أقل تقدير وهي مكان الصراع . ويحيط بها سياج خشبي متين على ارتفاع نحو مترين . وفيه باب يدخل منه المصارعون من انسان وحيوان . ومن دونه أبواب غرف الثيران لكل واحد غرفة . ومن وراء هذا السياج قامت أمكنة المتفرجين . وهي تتدرج الى ثلاث درجات بعضها فوق بعض بميل الى الوراء . وفي القسم العالي من جهة الغرب ألواج جلالة الملك والعائلة المالكة وكبار رجال دولته . وهذا غير أعلا التياترو الذي لا مجالس فيه للنظارة بل يبقون فيه على أرجلهم . ويسع هذا المكان عشرين الف نفس على أقل تقدير . ولقد كانت جميع مجالسه مكتظة بالناس من نساء ورجال فلما جاءت الساعة المضروبة ، دخل المصارعون راجلهم وفارسهم وعليهم الحلل المقصبة البراقة ولما وصلوا قبالة لوج الملك سلموا بالسلام اللائق ثم وقفوا في اماكنهم مستقبلين الجهة التي يدخل منها الثور . وهنالك فتح باب غرفة على المسرح فاندفع منها ثور هائل بحالة توقع الرعب في قلب من لم يتعود مثل هذا المنظر . وكأني به وقد وقف برهة والشر يطير من عينيه وهو يجيل نظره فى خصومه يتخير الجهة التى يهجم منها . ثم لايلبث ان يهجم على أحد المصارعين . فان كان من المترجلين قابله بملاءته الحمراء التي لم يكن فى يده غيرها . وفى هذا الوقت تدهش من خفة



بناء لمصارعة الثيران في سان سباستيان

هذا الرجل في زوغانه عن مسقط قرني الثور بحركة خفيفة جدا ينتقل بها من على يمين رأس الثور الى يسارها وهو من قرنيه الثائرين قاب قوسين او ادنى . ولا يزال يطامعه بهذه الحركات المدهشة الدقيقة حتى يعجزه فيتركه الثور الى غيره . فيقابله هذا بنفس حركات الاول محرضاً له على الهجوم على الفارس الذي ترى في يده رمحاً طويلا . فاذا هجم عليه قابله الفارس بالرمح في قفاه بقوة قد تدفع الثور الى الوراء فتقفه عن الهجوم . وهنا تظهر كفاءة الفارس . وقد تصدق هجمة الثور فيدخل راسه تحت بطن الفرس ويرفعه على قرنيه فيخر الفارس وفرسه جميعاً على الارض. وعندها تظهر أحشاء الفرس الذي يفارق الحياة لوقته .هنالك يشغل أحـد المصارعين الثور بملاءته عن الفارس الذي يقصده طائفة من الخدم لاقامته من تحت حصانه . وقد يؤتي اليه بحصان آخر فيكون نصيبه نصيب الاول : وقد رأيت في هذا اليوم ثوراً بقر بطن خمسة من الخيل في نحو عشرين دقيقة . وفي هذه الحالة قد يكون الثور في أشد هيجانه فيقصده فارس الحلبة راجلا وفي يده سهمان . فاذا رآه الثور هجم عليه بشدة فيزوغ الرجل منه واضعاً سهميه بين كتفيه. وهكذا يكرر هذه الفعلة حتى اذا تعب الثور هجم عليه بملاءته الحمراء من تحتها سيفه ولا يزال يغري الثور بنفسه بحركات مختلفة غاية في الدقة والخفة ثم يهجم عليه ويدخل سيفه في وريد العنق . فان صدقت الضربة سقط الثور يتضرج في دمه وهنالك تنتهي الموقعة بين التصفيق الحاد من كل جهة مع عزف الموسيقى تحية للمنتصر . وقد ترى القوم في أثناء هذا الصراع متحمسين للمنتصر من الخصمين ناقمين على المنخذل ، فيصفقون للثور أحياناً ويصفرون لخصمه كلما جبن في كراته أو أتي بحركة غير قانونية . وكثيراً ماتصدر منهم كلمات الازدراء أو عدم الاستحسان موجهة لاحد الخصمين .

والذي يدهشني في تلك الحفلة منظر السيدات وهن باشات مسرورات برؤية الحصان يمشي خطوات وهو يجرجر في أحشاءه : هذا المنظر الذي قد ترتاع له نفس الرائي من غير الاسبانيين لاول وهلة . ولا شك أن هـذه العادة

أثرت فيهن حتى أصبح منظرها لايؤثر عليهن الا بحال متناقضة مع أثرها الطبيعي. ولهذا السبب يحظرون هذا الصراع في فرنسا الا في مدينتين اثنتين الاولى نيم لان أهلها الفوه من زمن الرومان ومسرحه فيها من زمنهم . والثانية بوردو بحكم مجاورتها لاسبانيا وقد يقيمون صورة مصغرة منه في بلاد أخرى مثل فشي وغيرها. وقد كان الصراع في هـذه الحفلة مع ثمانية من الثيران قتلت جميعاً بعد أن قتلت أكثر من خمسة عشر حصاناً :

والذى لاحظته هنا أن الملك حضر من أول الصراع الى آخره من وهى الساعة الخامسة تماماً الى منتصف الساعة الثامنة بعد الظهر .ولا أدري اذا كان هذا ناشئاً عن شوقه لرؤية هذا النزال . أو أنه يحترم ميول شعبه فيظهر لهم بأنه معهم في عواطفهم وشعورهم من البداية الى النهاية . وهى سياسة رشيدة ربما كانت السبب في حفظ عرشه في الازمات الحربية والسياسية التى مرت بالبلاد لعهده : وعلى كل حال فالشعب الاسباني يحب ملكه لانه كان يواسيه كثيراً مدة الحرب فيعود مرضاهم ويعطف على المنكوبين منهم . لذلك كثيراً ما كنت تراه يتنزه وحده على رصيف هذا المرفأ من غير ماحرس أو رقيب اللهم الا قلوب شعبه ومهجهم : وهل للملوك سعادة في الارض غير هذه العاطفة ؟

---

(١) كتبت هذه الرسالة قبل الحركة الثورية التى ظهرت في البلاد ضد السلطات الحاكمة

الرسالة الثانية

ركبت القطار السريع الى مدريد في واد لا نبات فيه ولا زرع بين سلسلتي جبال نوفا مورينا . في واد جميع الاراضي عن يمينه وشماله قفراء حتى كأننا كنا نسير في تلك الصحراء التي وهبها أبو دلامة الشاعر الى المنصور العباسي : (١)

ويتخلل هذه الصحراء بعض أراض كانت منزرعة قمحاً بعد المطر . وقد حصدوه اذ ذاك وهم يشتغلون بدرسه كحاله عندنا : فترى النورج يدور على الرمية الا أن فلكاته أقل ارتفاعاً . وقد ترى بجوار هذا الجرن آخر قد تم درسه فيه المذرى بمذراته كحاله عندنا تماماً . وترى بجواره التبن وقد صفوه على بعضه مثل تصفيفه في الصعيد كأنه مقطوع من جهاته الاربع بمستوى أفقي .

ويتخلل هـذا الوادي بعض أشجار من الجوز والبقس وبعض حقول من العنب والزيتون . وكلما اقتربنا من مدريد قلت فيه المزارع ووحش منظره . وفي هذه الجهة ينزل الثلج مبكراً فيقصدها أهل مدريد للرياضة الشتوية في الالعاب الثلجية (اسكيتنج) . ومتوسط سير القطار السريع في هـذا الوادي ٤٥ كيلو مترا لان المسافة بين سان سباستيان ومدريد ٦٣٠ كيلو قطعها هذا القطار في ١٥ ساعة

مدريد

مدريد (والعرب يسمونها مجريط وبعضهم يسميها مشريط) هي عاصمة اسبانيا الآن وعدد سكانها ٥٥٠ الف نفس . ولقد كانت الى القرن العاشر بعد الميلاد قرية صغيرة بسيطة ، وكانت حصناً يقع حيناً في يد القوط وآخر في يد العرب .

---

(١) ذلك انه دخل عليه يوما مع الشعراء فاعجبته قصيدته فأمر أن يعطي مائة جريب عامرة ومائة جريب غامرة . فقال وما هي الغامرة ياأمير المؤمنين . قال هي التي لا نبات بها ولا زرع . قال اذا كان الأمر كذلك فأني اعطيك ياأمير المؤمنين مائة الف الف جريب غامرة من صحراء كذا وان شئت زدتك منها .

وأول شهرة هذه المدينة التاريخية من سنة ١٣٩٤ م حيث توج فيها الملك هنري الثالث ملك القوط . وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر جعلها فليب الثاني عاصمة ملكه . ومن ثم أخذ عمرانها يتزايد خصوصاً بعد أن هدم سورها القديم . وجو هذه المدينة حار جداً في الصيف بارد جداً في الشتاء وخير الاوقات لزيارتها فصل الخريف . وكانت درجة حرارتها في أواخر أغسطس ٤٥ سنتجراد . وقد كنت أظن قبل زيارتي لها أنها مدينة بسيطة ليس فيها شيء من مظاهر المدنية الحديثة له قيمة . ولكني وجدت أحياءها الحديثة كأحسن مدائن أوربا في مبانيها ومحالها التجارية وفنادقها الكبرى ومتنزهاتها وقهاويها البديعة . وأفخم أبنيتها سراى الملك ويمكن للسائح التفرج عليها بتوصية من السفارة التى ينتسب اليها ولم أستطع زيارتها كما حرمت من مشاهدة كثير من آثار هذه المدينة . وتكثر في شوارعها الترامواىات الكهربائية وقطارات المترو التي تسير تحت الأرض وهى أحسن منها شكلاً في ممالك أخرى . وفي وسط المدينة ميدان يسمى ميدان الشمس تتفرع منه شوارعها الكبيرة . وينتهي شارع القلعة (ALCALA) وهى تسمية عربية بشارع عظيم عمودى عليه اسمه البرادو وهو على نظام شارع شانزليزيه بباريس الا أنه أوسع . ويسير من جانبيه شارعان . أما وسطه فكله رياض وأشجار صفت تحتها كراسي كثيرة لجلوس الناس خصوصاً في المساء . وهذا المكان هو محل رياضة القوم في مدة الصيف فتجده غاصاً بالناس من جميع الطبقات الى فترة من الليل وعلى حافتى هذا الشارع المباني الفخمة .

وهذه المدينة مشهورة بصناعة الصيني والسجاد والدخان . ولقد أعجبني فيها منظر مساحي الأحذية لأنهم غاية في النظافة وكل واحد منهم يحمل صندوقا ومعه (مخدة) يجعلها تحت ركبتيه لمزاولة مهنته التي يؤديها بكل دقة . ولشدة حر مدريد لم اتمكن من زيارة شيء فيها غير متحف الصور : وهو آية في بابه ومع صغره فانه من أحسن المتاحف التى من نوعه . والذي أعجبني فيه سيدات ورجال وشبان وشابات منهمكون في تصوير بعض اللوحات المحفوظة بالمتحف . وكثير منهم يجيد

صناعته ولا عجب فاوروبا بصفة تامة تعني بالفنون الجميلة . وفي مدريد دار للكتب جميلة وفيها كثير من الكتب العربية القيمة وليس فيها شيء من آثار العرب الا ما كان مجموعاً في دور الآثار بها من التحف الثمينة التي من علمهم والنقود التى ضربوها سواء أكانت هذه المتاحف للحكومة أم للاهالي . وخيرما للخا . ة من ذلك متحف السنيور اوسما الذي أقام له داراً خاصة به وقف عليها من ملكه ماتقوم ذاته بنفقتها . وقد يلفت نظرك في هذه المدينة استعمال القلل الفخار ويسمونها كرّازاوهى كلمة عربية (١) . فاذا لاحت منك التفاتة الى ترابيزات قهوة من القهاوي أو مطعم من المطاعم وجدت على كل واحدة قلة . فاذا جلست أتى اليك الخادم بكوبة وانتظر ماتأمر به من مشروب أو مأكول .

وعلى كل حال فجو المدينة غير صحي في الصيف لشدة حرارتها وكثرة ذبابها واتربتها التى تؤثر في الصدر . ولشدة جفاف هوائها الذي يؤثر في المزاج العصبي .

ويسير في وسطها نهرماندانار . وكان أحد سفراء المانيا يصفه من باب الفكاهة بأنه أحسن انهار الدنيا :لان الانسان يقطعه ماشياً أو راكبًا عربة أو دابة . وهو يشير بذلك الى أن هناك نهراً ولا ماء . ومن الطف الاشارات التى من هذا القبيل أن مدريد أكثر عواصم أوربا ارتفاعا لانها بنيت على جبل . وقد خرّج القسس من ذلك أن عرش ملوك اسبانيا بعد عرش الله (اعني في الارتفاع) . وبهذا أثروا في عقيدة الشعب حتى أنه الى الآن يعتقد أن عرش اسبانيا هو خير العروش بعد عرش السماء . وتكثر في هذه المدينة المراوح : فترى فترينات الدكاكين ممتلئة بها على أشكال مختلفة . وقد تراها في أيدي الناس بصفة عامة ويندران لاترى سيدة جالسة أو ماشية أو راكبة الا وفي يدها مروحة تحركها بلطف أخف من النسيم الذي تنشده . وعلى ذكر هذا الجنس اللطيف أقول أنه في هذه البلاد أكثر كالا منه في غيرها من مدن أوروبة . فهن يتجملن غالبًا بالحشمة ويدنين عليهن من فساتينهن الى مادون نصف الساق وكثيراً مايضعن على رءوسهن (خصوصاً في الاندلس) الشقة

---

(١) جاء في القاموس كراز كغراب ورمان القارورة أو كوز ضيق الرأس

وهى أشبه شيء بما يسمونه عندنا (الطرحة) وهى أما أن تكون خفيفة من الدانتلا السوداء أو من قماش من الشاش السميك . وبعضهن يشتملن بملاءة كبيرة قدتصل الى الركبة وهؤلاء في الغالب من الراهبات . ونساءأسبانيا أقل صلة بالرجال الاغراب ومع انهن جميلات الوجه جداً فقد تنقصهن رشاقة الجسم وخفة الحركة وذلك لكثرة ملازمتهن منازلهن . وقد يكون ذلك لشدة حرارة الأقليم . أو أن هـذا النوع من الحجاب موروث عن العرب . ويقال أن أحسن الجمال الاسباني في جهة ولنسية . ثم في غرناطة ثم في برشلونة . ذلك لان جمال طبيعة هذه البلاد أثر في أهلها فاكسبهم من محاسن الخلقة مالم يتيسر لغيرهم وهو تعليل معقول .

وبالجملة فنساء الاسبان في الغالب يكتفين بجمالهن الطبيعي الذي اختص بهذه السمرة التى جملتها يد الطبيعة بما ترى أثره الصناعي في وجوه الغانيات في كل جهة من جهات العالم المتمدن . ولكن هل يبلغ الظالع شأو الضليع ؟ ؟ ومما يعجبني أن نساء الاسبان في الغالب لايستعملن الادهان البيضاء في وجوههن ولا الحمراء في شفاههن . ومن يستعملنها منهن فبخفة لاتظهر معها كلفة الصناعة . وبذلك أصبحن بعيدات عن التسمم الذي يحصل من كثرة استعمال هذه المحسنات الوقتية لانها كلها مركبات زرنيخية تؤثر على مر الايام في بشرة الوجه بالذبول وعضلة الشفة بالتقلص . وعلى كل حال فهذا الجمال الصناعي وأن أكسب المرأة رواء مزيفاً في وقته فانه يتقدم بها الى الشيخوخة قبل أوانها بما لاتنفع معه عناية الطبيب ولا استعمال العقاقير .

الاسكوريال

هو البناء الذي أقامه فليب الثاني ملك اسبانيا في النصف الاخير من القرن السادس عشر على قمة ترتفع عن البحر ألف متر وتبعد عن مدريد بواحد وخمسين كيلو مترا وهو يشمل الكنيسة والقصر والمقبرة الملوكية والدير ومدرسته.

واذا عرفت انه يحتوي على ١٦ حوشا . و١٧١٠ شباك . و١٢٠٠ باب . و٨٦ سلما توصل الى امكنة مختلفة — عرفت مقدار اهمية هذا البناء العظيم الذي بني جميعه من الجرانيت الازرق الذي اتوا به من جبال وادي رامه باسبانيا .

وبناء الكنيسة على النظام القوطي وهي على بساطتها تشعر فيها بعظمة في النفس لايصل اليها ذلك التأنق الذي تراه عادة في الكنائس الكاثوليكية الكبرى . وشكلها من الداخل مربع طول كل ضلع منه خمسون مترا وفي وسطها اربعة اعمدة من البناء المربع عرض كل ضلع من اضلاعها ثمانية امتار وعليها اقواس ترتفع عليها قبة الكنيسة التى قطرها ١٧ مترا وفي دائر الكنيسة ٤٢ مصلى . ويرتفع على سطحها منارتان ارتفاع كل واحدة نحو ثلاثة وسبعين مترا . ويعلو القبة صليب تبعد قمته عن ارضية الكنيسة بخمسة وتسعين مترا — وبجوار الكنيسة حوش مربع يحيط به بهو عظيم رسمت على حوائطه بالزيت صور كثيرة كنسية مكبرة . وفي وسط هذا البهو من كل جهة ابواب الى غرف في بعضها لوحات ثمينة من رسم اشهر المصورين في العصر السادس والسابع عشر . وبعضها يصعد منه الى الدير وهو محل مسكن القسس القائمين بحركة العبادة في الكنيسة . وفيه كتبخانة عظيمة فيها خمسة واربعون الف كتاب منها مجموعة من الكتب الدينية والاغاني الكنسية من القطع الكبير جدا وقد وشيت كتاباتها وجلودها بالذهب . وبعضها مكتوب على رق الغزال ومزين بالرسوم الجميلة والنقوش القيمة ومنها مجموعة ثمينة من المخطوطات العربية لاتقل عن ألفي مجلد .

وفي الدير تبقى جثة الملك خمس سنين قبل دفنها بالبنتيون وهو المقبرة الملوكية المتصلة بالكنيسة : وينزل اليها بسلالم هي وحوائطها من المرمر الوردي الثمين تنتهي الى غرفة مثمنة قطرها عشرة أمتار . وحوائطها وارضها من المرمر . وفي كل ضلع منها دخلة وضع فيها ستة نواويس فيها جثث ملوك اسبانيا بعضها فوق بعض . وفي القاعة دهليز يوصل الى عدة غرف فيها قبور بعض اعضاء العائلة الملوكية .

وبالجملة فهذه المقبرة مع بساطتها وخلوها من الزينة الكاثوليكية تتناسب عظمتها مع عظمة المدفونين فيها .

وهنا مر بخيالي مقبرة جنوه العامة وكنت زرتها من سنتين ، وكيف وصل بالقوم تأنقهم وتطاولهم في فخامة مقابرهم بها الى درجة لا يماثلها شيء آخر من نوعها : فترى القبور بعضها بجوار بعض وكلها اوجلها من المرمر . وقد رسمت او نقشت او مثل عليها صورة الميت ومن حوله الملائكة ترفرف باجنحتها وتمد يدها اليه لتقوده الى جنات النعيم او بعبارة اصح الى الجهة التي ينتظره عمله فيها . وبعض القبور تجدها قد جمعت الى هذا مختصر تاريخ الميت وهي مسرجة على الدوام . وبالجملة فقد وصل فيها الابداع وفخامة المنظر وجمال الصناعة الى حد لم أره في غيرها . ويحيط بهذه المقبرة رياض نضرة فيها كراس خشبية ورخامية يجلس عليها زوار المقبرة . وهنا ذكرت (قطع المره) وما اليه من جبانة المجاورين والعفيفي وغيرها مما ارجو ان يعيره اصحاب الشأن بعض عنايتهم حرمة للاموات ورحمة بالاحياء .

قصر الملك

وهنا ارجو القارىء عفواً اذا رجعت به معي بعد ان شط بي القلم الى قصر الملك . وهو يتصل بالكنيسة اتصالا تاما . فماذا نرى؟ نرى بهوا طويلا عريضا مرتفعا ارتفاعا عظيماً وفيه باب القصر . ويدخل منه الى دور ارضي فيه قاعة نوم الملك وقاعة نوم ابنته . وهما على منتهى البساطة . نترك هذا وما اليه الى الدور الثاني وندخل الى قاعة المائدة ثم الى قاعة السفراء ثم الى المكتب الخصوصي فنجد بها من حسن الرونق وجمال الشكل وبديع الصور التى نسجت على قطع كبيرة من الحرير تتكون منها لوحة على قدر كل حائط من حوائط هذه الغرف . فنرى الحائط كله مشتملا على لوحة واحدة رسمت فيها بالنسيج صورة مكبرة من اصل معروف لاحد المشهورين في فن التصوير . نرى هذه الصورة في بروزها

وظلالها والوانها ودقة صنعها وكمال صوغها وتمام ابداعها تمثل لك واقعة حربية او حادثة تاريخية ويكاد لسان حالها يقول (ليس في الامكان ابدع مما كان) . ولقد اعجبني من ذلك صورة محاصرة بني مرين مع الدون جوبان لمدينة طريف . وقائدها اذذاك غوزمان . فاتي جوبان بأحد ابناء هذا القائد وهدده بقتله إن لم يفتح له ابواب هذه المدينة . فكان جوابه ان رمي له غوزمان بسيفه ليقتله به : وهذه شجاعة وامانة يضرب بهما المثل كما ضرب بشجاعة وامانة السموءل وأمانته من قبل .

وقد فرشت هذه القاعات كلها بالحصير المصنوع حديثا على مثال ما كان عليه في وقته . وهو اشبه شيء بما يعمل الآن في منوف والزقازيق من ذات الخطوط الضيقة المستقيمة . نترك هذا ايضا الى قاعة الصور الحربية . وهي عبارة عن بهو كبير طوله نحو اربعين مترا . وقد رسمت على حوائطه بالزيت واقعات حربية مختلفة لفتت نظري واحدة منها بما اغرورقت له عيناي وجمدله قلبي . تلك هي الواقعة المشئومة التي حصلت بين القوط والعرب (١) في سهول غرناطه . نرى فيها الجيشين يسير كل نحو الآخر بحال منتظمة ثم لا يلبثان أن يلتحم أحدهما بالآخر . ثم لا نعتم أن نرى هزيمة العرب تلك الهزيمة التي كانت نتيجتها أن قذف بهم الى ماوراء البحر الابيض المتوسط تاركين قصورهم وديارهم في الاندلس تنعي من بناها ! ! تاركين وراءهم ملكا مجيداً دام أكثر من ثمانية قرون كانت كلها عظمة وفخامة ! ! . تاركين وراءهم الخراب بعد العمار . والوحشية بعد المدنية . والفقر بعد الرفاهية . والملك لله وحده سبحانه يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء

---

(١) شكل العرب المحاربين في هذه الصورة على انتظام تام في هجومهم ولباسهم وهو اشبه شيء بلباس الاتراك بنطاون واسع وعليه شبه جاكتة عليها حزام وعلى الراس عمامه لفت على قلنسوه مخروطية الشكل . وربما كان هذا اللباس شائعا عندهم بين حربيين وغيرهم . على انهم كان منهم كثيرون يتزيون بلباس الاسبانيين وحتى بعض الخاصة ومنهم محمد بن مردنيش . صاحب شرق الاندلس .

قصر الامراء

هو على بعد ثلاثمائة متر من قصر الملك . وهو بناء صغير في حديقة كبيرة معتني بها كل الاعتناء . دخلت هـذا القصر مع الداخلين وكان الحارس يرشد القوم بلغته الى مافيه من أثر مما لم أفهم من كلامه كثيراً ولا قليلا . ولـكني ماذا رأيت : رأيت صوراً من أبدع مايري الراءون ولوحات صغيرة من رسوم مختلفة وأشكال متغايرة غاية في الجمال تمثل لك وقائع تاريخية شهيرة يعرفها أربابها . وبجوار هذه هنا وهناك قطع أثرية صنعت من نحاس أو فضة أو عاج أو صدف وهى تمثل مناظر بديعة جداً تراها مع صغر حجمها كأنها واسعة شاسعة بما فيها من أشجار وأطيار وحيوان وانسان وكلها من قطعة واحدة . ولا يمكن لأى واصف أن يصفها لانه اذا رآها وقف أمامها في حيرة كبرى في حكمه عليها هل هى من عمل الانسان أو من عمل الشيطان ؟ ومن بين هذه الصور صورة للعذراء وقد اشتملت بملاءة من الدنتلا تتصل حيناً بجسمها وتنفصل عنه أحياناً حسب الوضع الطبيعي للجسم . وكل هذا من قطعة واحدة من العاج صنعت معرسا بقاتهافي القرن الرابع عشر .

والآن نترك الاسكوريال الى روما ونشاهد كنيسة القديس بطرس . ثم الى باريس ونزور كنيسة نوتردام . ثم الى لندره ونزور كنيسة سان بول . ثم نرجع الى ماوراء التاريخ العصري ونزور الاكروبول في أثينا . ثم نعود الى مصر ونذهب الى أبعد من ذلك كله : وبعد مشاهدتنا اهرام الجيزة نزور هيكل الكرنك في الاقصر . ثم نتساءل هل هذا كله من عمل الملوك من بني الانسان؟ في زمن هو أبعد الأزمان عن العلوم والفنون . في وقت ليس فيه شيء من هذه الاختراعات الحديثة التي سهلت الصعاب وفتحت من مختلف العلوم كل باب . وجعلت هذه الطبيعة القوية في يد الانسان يحركها كيف يشاء : الجواب على كل حال ايجابي .

ثم اذا تساءلنا وهل في قدرة الملوك في هذا الوقت اقامة هيكل من هـذه

خصوصا مع هذه الآلات الحديثة التي يعمل الانسان الواحد بها في لحظة ما كان يعمله الف شخص في أيام — الجواب على كل حال سلبي .

واذا نحن بحثنا عن السبب عرفنا أن الأمم كانت مستعبدة لارادة اقيالها في الماضي البعيد ، ومسخرة لرغبات ملوكها ورؤسائها فى الماضي القريب . حتى اذا قامت الثورة الفرنسية بعد منتصف القرن الثامن عشر ، وعلى أثرها انتشرت الحرية بين الامم الاوربية ، ووقف الملوك فى الدائرة التي رسمتها لهم دساتير بلادهم وسارت الأمم في حدودها الشرعية ، أصبح الملك يعمل لبلاده ، والناس يعملون لأنفسهم وحدانًا ولبلادهم مجتمعين . واذا كانت الملوك قد فقدت في هذا الطريق أيدي رعاياها فقد كسبت قلوبهم ، وهذه الحال ولا شك من أجل نعم الله على الراعي والرعية .

للعبرة والتاريخ

مدريد هي عاصمة اسبانيا الآن والوسط الوحيد الذى يعيش في جوه علماء الاسبان وتطلع فى سمائه شموس عرفانهم وعلومهم وفنونهم . وهي مظهر مدنيتهم ومجلى حضارتهم التى لا شك أنها أثر مما تركه العرب فى بلادهم : من علم جم ، وفن راق ، ومدنية صادقة ، وحضارة فائقة . ولقد كانت الفائدة منها تكون أعم ، والنفع بها أتم ، اذا لم يكن في الاسبانيين ذلك التعصب الدينى الشنيع وبخاصة بعد ان وصلتهم بالعرب لحمة النسب وامتزج دم الفاتحين بدم المغلوبين : فقد كانت فتوحاتهم بالاندلس موجبة لوقوع كثير من أسيرات الاسبان في أيديهم مما كان موجبا لزواجهم منهن أو التسري بهن ، حيث كن في حكم الفاتحين كملك اليمين . وهي شرعة من شرائع الحروب البائدة . وفى هذه الحالة كانوا يسمونهن « أمهات أولاد » .

ولقد كثر زواج ولاة الاندلس من العرب وامرائهم من الاسبانيات . وأول من تزوج منهم عبد العزيز بن موسى بن نصير . فقد تزوج بالسيدة ايلونا أرملة لذريق ملك القوط بعد ان مات أثر جروحه في واقعة شريش التي

تغلب عليه فيها طارق بن زياد . وتزوج الأمير محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الاوسط باسبانية اسمها مارية ورزق منها بولده عبد الرحمن الناصر . وتزوج الحكم بن الناصر بالسيدة صبح البشكنسية ، واعقبت له هشاما المؤيد . وتزوج المنصور بن أبي عامر بنت سانكو ملك نافاريا ، وولدت له ابنه عبد الرحمن ، وكانوا يسمونه سانكو الصغير لميله الى ملاذه وجرأته على الدين في سيرته الشخصية . وتزوج المأمون بن الناصر سلطان الموحدين باسبانية اسمها حباب وخلف منها ابنه الرشيد . وتزوج السلطان محمد بن ابى الحسن بن الاحمر بالسيدة ثريا الاسبانية وولدت له ابنه أبا عبد الله . و كانت أم عبد الحق ابن ابي سعيد سلطان بنى مرين اسبانية .

وقد فشا الزواج والتسري بالاسبانيات من القوط وغيرهم بين الامراء والرؤساء من العرب وكان لهذا العنصر الجميل شيء من التأثير فيهم لم تكن تظهر نتائجه الخبيثة إلا عند ضعف الدولة ، كما كان سبباً في استكانة هشام المؤيد الى حاجبه ابن ابى عامر تلك الاستكانة التى ساعدت عليها في أول الأمر امه . فلما اختلفت مع المنصور بعد ان قويت شوكته وظهرت عبقريته وتوطدت دعائم سطوته . وقبض على مقاليد الحكم بيد من حديد . أخذت تضرم فى قلب ولدها النار التي اطفأتها . وتثير في وجوده شيئاً من الحياة التي اماتتها . ولكنه كان في سن الاربعين : بحيث اصبح والجبن ملء جسمانه . لا يهتم بشيء من أعمال الدولة الا ما كان يقوم بملاذه وشهواته ! ! !

وقد قضى فى حياته على الدولة الاموية وبموته عفى أثرها . وامحي وجودها . ولا شك أن هذا اثر تلك التربية الاجنبية (١) التى ظهرت في

---

(١) وقد بدأ ضعف الدولة الاسلامية الشرقية بامهات الخلفاء الاجنبيات وتدخلهن في اعمال الدولة : فكانت ام المستعين العباسي صقلبية ، وام المهتدي رومية ، وام المقتدر تركية ، وكانت كثيرة التدخل في أمور الخلافة مدة ولدها وكانت تجتمع بالوزراء والقواد في مجلسها وتصدر اليهم اوامرها من غير علم من ولدها . ومن هذا الوقت اخذت امور الدولة في الضعف واستبد الاتراك بها .

المؤيد بالقضاء على الاموية : كما ظهرت فى عبد الرحمن بن ابي عامر بالقضاء على الدولة العامرية . وفى الرشيد بن المأمون بضعف الموحدين . وفي عبد الحق بن سعيد المريني ملك المغرب بضياع الملك من بني مرين . وفى ابي عبد الله بن الاحمر بالقضاء على حكم العرب في الاندلس .

ولم يقف الزواج او التسرى بالاسبانيات عند الولاة والامراء فى الاندلس بل تعداهم الى عامة العرب وقد ذكر ابناؤهم منهن بالاضافة الى امهاتهم مما لم يكن فى طبيعة العرب : فقالوا . ابن الرومية . وابن القوطية . وهكذا .

ويظهر ان هذا التلقيح الطبيعي قد اثر فى طبيعة العرب وخصوصا البربر فرقق من اخلاقهم وقلل من حدتهم . وكان فيهم سببا للتسامح الذي احسنوا به عشرتهم مع من بقي فى وسطهم من القوط وغيرهم سواء اسلموا أو بقوا على دياناتهم فتركوا لهم كنائسهم . وبيعهم . وحريتهم فى مزاولة شرائعهم . هذا التسامح الذي اثر بسرعة فى طباعهم بما جعلها مستعدة لهذا الرقى السريع الذي ظهرت به ثقافتهم فى كل مرافق مدنيتهم الجديدة . وانا اذا تركنا جانبا ذلك الاثر السياسي الذي ارضعه الامهات الاسبانيات لابنائهن وخصوصا فى الطبقة العالية مما جرأ كثيرا منهم على التهاون فى القواعد الدينية والعصبية . فانا نراهن من جهة اخرى قد أثرن بلطافة اخلاقهن . وجمال عشرتهن . وليونة ملمسهن في نساء العرب اللواتي ظهر منهن كثيرات فى عالم الادب . وكان ظهورهن فى افق هذه البلاد من الاسباب التى جرت بالرجال الى ميادين العرفان فى كل نوع من انواع العلوم وخصوصا فى الادب الذي كان لهم فيه القدح المعلي . حتى لقد كانت لهم فى عواصم البلاد اندية كثيرة تجمع بين الجنسين لمذاكرة العلم والادب . والنظم من شعر ونثر . وهذا لعمري آية الآيات . ونهاية البراهين على علو القوم في مدنيتهم . ولا نزال نجد البرهان الوحيد على رقى الامم نبوغ الجنس اللطيف فيها : فان النساء خير موصل لحقائق الكون ودقائقه الى

ابنائهم وهم في نعومة اظفارهم . فينشأون بعقول سليمة وافئدة ذكية وبداهة فائقة : وهي الاسس التى ينبني عليها مجد الامم وعظمتها .

ويحسن بناهنا ان نذكر لك بعض من نبغن بالاندلس من الجنس اللطيف فى عالم الادب وتفوقهن فى الشعر والنثر بحيث اصبحن فى مقدمة اهله لطفا وظرفا وبديهة ومتانة حتى تكون عندك فكرة مما كان عليه هذا الجنس اللطيف فيهـا .

فمنهن أم العلاء الحجارية وقد كانت شاعرة أديبة ومن قولها :

كل مايصدر منكم حسن   وبعليا كم تحـلى الزمن
تعطف العين على منظركم   وبذكراكم تلذ الاذن
من يعش دونكم فى عمره   فهو فى نيل الاماني يغبن

ومنهن أمة العزيز ومن قولها :

لحاظـكم تجرحنا في الحشا   ولحظنا يجرحكم فى الخدود
جرح بجرح فاجعلوا ذا بذا   فما الذي أوجب جرح الصدود

ومنهن أم الـكرام بنت المعتصم بن صمادح ملك المرية ويقال أنها كانت تحب فتى من عامة الناس ومن قولها في ذلك :

يا معشر الناس الا فاعجبوا   مما جنته لوعة الحب
لولاه لم ينزل ببدر الدجى   من أفقه العلوي للترب
حسبي بمن أهواه لو أنه   فارقني تابعه قلبي

ومنهن حفصة الركونية وقد كتبت الى عبد المؤمن سلطان الموحدين وكان من عادتهم ان يبدأوا كتابتهم بقولهم « الحمد لله وحده » .

ياسيد الناس يامن   يؤمل النـاس رفده
امنن عليّ بطرس   يكون للدهر عده
تخط يمناك فيـه   الحمـد لله وحـده

ومن قولها في نفسها

عيون مهى الصريم فداء عيني واجياد الظباء فداء جيدي
ازين بالعقود وان نحرى لازين للعقود من العقود
ولا أشكو من الاوصاب ثقلا وتشكو قامتي ثقل النهود

وبلغت هذه الابيات المقتفي أمير المؤمنين فقال اسألوا اهل تصدق صفتها قولها؟ فقالوا مايكون أجمل منها . فقال اسألوا عن عفافها؟ فقالوا هي اعف الناس . فارسل اليها مالا جزيلا لتستعين به على صيانة جمالها ورونق بهجتها.

ومنهن العبادية جارية المعتضد بن عباد وكان المعتضد يحبها وقد سهر ليلة بجوارها وهي نائمة فقال :

تنام ومدنفها يسهر وتصبر عنه ولا يصبر

فاجابته بديهة بقولها :

لئن دام هذا وهذا له سيهلك وجداً ولا يشعر

ومنهن حمدونة ويلقبونها بخنساء المغرب ومن شعرها :

ولما أبي الواشون الا فراقنا ومالهم عندي وعندك من ثار
وشنوا على اسماعنا كل غارة وقل حماتي عند ذاك وأنصاري
غزوتهم من مقلتيك وادمعي ومن نفسي بالسيف والسيل والنار

ومنهن عائشة بنت احمد القرطبية وكانت من عجائب زمانها وكانت تحسن الخط وتكتب المصاحف . ودخلت على المظفر المنصور بن أبي عامر وبين يديه ولده فارتجلت :

أراك الله فيه ماتريد ولا برحت معاليه تزيد
فقد دلت مخايله على ما نؤمله وطالعه السعيد
تشوقت الجياد له وهز الـ حسام هوى واشرقت البنود
وكيف يخيب شبل قد نمته الى العليا ضراغمة أسود

فسوف تراه بدرا في سماء　　من العليا كواكبه الجنود
فأنتم آل عامر خير آل　　زكا الأبناء منكم والجدود
وليدكم لدى راى كشيخ　　وشيخكم لدى حرب وليد

ومنهن مريم بنت يعقوب الانصاري ومن شعرها وقد كبرت :

وما يرتجى من بنت سبعين حجة　　وسبع كنسج العنكبوت المهلهل
تدب دبيب الطفل تسعى الى العصا　　وتمشي بها مشي الأسير المكبل

ومنهن نزهون الغرناطية وكانت تقرأ على أبي بكر المخزومي الأعمى فدخل عليهما أبو بكر الكندي فقال يخاطب المخزومي مستجيزا :

لو كنت تبصر من تجالسه —

فافحم وأطال الفكر وما وجد شيئاً يجيز به . فقالت نزهون :

لغدوت أخرس من خلاخله

البدر يطلع من ازرته　　والغصن يمرح في غلائله

ومنهن ولادة بنت الخليفة المستكفي حفيد الناصر الأموي : قال ابن بشكوال : كانت ولادة أديبة شاعرة جزلة القول حسنة الشعر . وكانت تناضل الشعراء . وتساجل الأدباء . وكانت في نهاية من الأدب والظرف الى أن قال— وكان مجلسها في قرطبة منتدى لاحرار المصر . وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر . يعشوا أهل الأدب الى ضوء غرتها . ويتهافت أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها . وعلى سهولة حجابها . وكثرة منتابها . تخلط ذلك بعلو نصاب . وكرم انساب . وطهارة أثواب . ولها مع ابن زيدون أخبار كثيرة . ومن قولها وقت فراقها له :

ودع الصبر محب ودعك　　ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على ان لم يكن　　زاد في تلك الخطا اذ شيعك
ياأخا البدر سناء وسنا　　حفظ الله زمانا أطلعك
ان يطل بعدك ليلي فلكم　　بت اشكو قصر الليل معك

وكان منهن من تكتب للأمراء مثل لبنى كاتبة الحكم بن عبد الرحمن . ومزينة كاتبة الامير الناصر . وقد ذكر ابن فياض فى تاريخه « انه كان بالربض الشرقي فى قرطبة مائة وسبعون أمرأة كلهن تكتبن المصاحف بالخط الكوفى » فكم كان اذن فى كل ارباضها التي بلغت ٢٨ ربضاً ممن كانت لهن مثل هذه الصفة من هذا الجنس اللطف ؟ ؟

هذا مااقتصرنا عليه من ذكر أديبات الأندلس .

والآن نذكر لك بعض من نبغ من رجاله الذين لايحصيهم العد .

ففي علوم الدين ظهر كثيرون منهم : عبد الملك بن حبيب السامي الذي بلغت مؤلفاته نحو الف كتاب . ثم عيسى بن دينار فقيه الأندلس . ثم يحيي بن يحيي الليثي أكبر علمائه في مذهب مالك . ثم منذر بن سعيد قاضي القضاة بقرطبة . ثم أبو القاسم الشاطبي أمام القراء . ثم أبو بكر بن العربي . ثم بن شبطون فقيه الأندلس . ثم بقي بن مخلد . وأبو الوليد الباجى . والوزير بن حزم الذي بلغت تواليفه ٤٠٠ كتاب . وعثمان بن سعيد . والقاضي عياض . ومحيي الدين بن عربي الذي مات بالقاهرة . وابو العباس المرسى الذي مات بالاسكندرية . وابن مالك الجياني صاحب الالفية والذي هاجر في النصف الثاني من القرن السابع إلى دمشق ومات بها سنة ٦٧٢ .

أما من ظهروا فى عالم الادب فيكادون لايحصون عدا . ويمكنك ان تطلع على بعضهم في قلائد العقيان وغيره من كتب الأدب والسير والطبقات والتاريخ كالاحاطة ونفح الطيب . وان كنت أرى انهما الى الادب أقرب منهما الى التاريخ . وقد برز من هؤلاء كثيرون فى مقدمتهم الوزير لسان الدين بن الخطيب . وابن عبد ربه صاحب العقد . والفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان . والشريشي شارح المقامات . والمنصور بن ابي عامر . وابن خفاجه . وابن هانيء . وابن زيدون . وابن عمار . والمظفر الافطس ملك بطليوس الذي الف كتابا فى الادب في نحو مائة مجلد . والوزير بن زمرك . وابن سيده الذي ظهرت مواهبه في اللغة وهو

صاحب كتاب المخصص . وغيرهم وغيرهم ممن تحلت الطروس بسطورهم . والنفوس برائع كلماتهم وبديع آياتهم . من شعر يأخذ بالالباب . ونثر يصل برقته الى سويداء القلوب .

وكان عبد المجيد بن عبدون يحفظ جملة من كتب الادب ومنها كتاب الاغاني . وكان الخلفاء والامراء يقترحون على الناس حفظ الكتاب الفلاني ويقدرون لذلك جائزة لها قيمة وكان هذا سبباً لشيوع الحفظ فيهم .

وكان الامراء الامويون انفسهم فى مقدمة رعيتهم فضلا وعلما وادبا ومنهم من كان له قدم عالية في الشعر ومن قول الامير عبد الله بن محمد وهو غاية فى الرقة وأظن أنه لم يسبقه غيره الى هذا المعني :

يا مهجة المشتاق ما اوجعك　　ويا أسير الحب ما أخشعك
ويا رسول العين من لحظها　　بالرد والتبليغ ما أسرعك
تذهب بالسر فتأتى به　　في مجلس يخفى على من معك
كم حاجة انجزت ايرادها　　تبارك الرحمن ما أطوعك

ومنهم كثيرون اشتغلوا بالعلوم الرياضية . والفلكية . والكيميائية . والنباتية . والزراعية بما ظهرت نتائجه القيمة في أواخر القرن الرابع الهجري . وقد نبغ من هؤلاء كثيرون أفادوا كثيراً في رقى المدنية الاسلامية التي كانت مادة لشيء كثير من المدنية الاروبية الحالية : كابن الصفار . وابن السمح . وابي القاسم مسلمة بن احمد . والكرماني . ومحمد بن اسماعيل . وعبد الغافر ابن احمد . والسري . وابن بدر المعروف باقليدس . وابن فتحون . وابن شهر . وابن الليث . وابن خلف . وابن الخياط . وابن جوشن . وابن ميمون . وابن البيطار . وابن مفرج النباتي . وأبو ذكريا الأشبيلي . وابن باضه . وابن جابر : وينسب اليه اختراع الجبر(١)

ومن الذين اشتغلوا فى الرياضيات ابن فرناس الذي اخترع آلة الثقال

---

(١) (وبعضهم ينسبه الى جابر بن حيان الطوسي امام المشرق في علم الكيمياء الذي مات سنة ١٦٠ هـ)

لمعرفة الزمن ورسم في بيته هيئة السماء بما فيها من النجوم والغيوم والبروق وفكر في امكان (١) الطيران وكان قبله لا تتسع له غير خرافات اليونان . فعمل له جناحين من ريش طار بهما مسافة في الهواء . ولكنه لم يحسن الوقوع لعدم تفكيره في عمل الذيل الذي ينظّم حركة النزول ويمنع السقوط المريع — فسقط سقطة كان فيها حتفه .

اما الذين إشتغلوا بالمسائل الطبية ونبغوا فيها فكثيرون جدا . وقد وصل الطب في الاندلس الى درجة لم يصل اليها في الشرق ولا في الغرب . نذكر منهم : ابن الجزار . واسحاق بن سليمان . واسحاق بن عمران . وابن فتح . وابن يونس . واسحاق الطبيب . ويحيي بن اسحاق . وابن جلجل . وابن باجه . وبني زهر . وابن رشد . وابن خلدون (غير المؤرخ) . وابن غلندو . والحراني . وابن حصفون . وابن المدور . والزهري . وابن خاتمة الطبيب وقد ألف كتاباً في الوباء . ذهب فيه الى وجود الميكروبات وتأثيرها في العدوى وقد سبق في العثور عليها باستور العالم الفرنسي الذي مات سنة ١٨٩٥ م .

ومن الذين نبغوا فى الجغرافيا ولهم مؤلفات فيها : الادريسي . والبكري صاحب المعجم . وابن جبير . والحجاري صاحب المسهب . أما الذين ظهروا فى

---

(١) ذاع امر الطيران في الفرنجة فحذا حذو ابن فرناس دانت DANTE في اواخر القرن الخامس عشر ثم اوليفييه OLIVIER في القرن السادس عشر وعملا لهما اجنحة من الريش ولكن كان حظهما مثل حظه في سقوطهما واصابتهما برضوض وكسور . واتي من بعدهما كثيرون فكروا في الطيران بواسطة آلات مدار حركتها على قوة ساعدي الشخص الطائر ولكنها لم تنتج نتيجة صالحة . وفي سنة ١٨٩٣ اخترع الالماني ليليانتال آلة طار بها بضع مئات من الامتار وانتهت تجاربه بموته في سنة ١٨٩٦ . وفي نهاية القرن التاسع عشر وصل العالم الرياضي لانجلي الامريكاني الى اختراع طيارة من الالومنيوم يحركها جهاز خفيف فطارت تسعمائة متر بمعدل ١١ مترا في الثانية . ثم وصل تانان وريشييه الى اختراع طيارة صغيرة وزنها ٣٣ كيلو جرام فكانت تطير بمعدل ١٨ مترفي الثانية .

ومن ثم اخذ هذا الاختراع العجيب يزيد في صلاحيته حتى وصل الى ما نراه الآن من نقل الركاب بين انكلترا وفرنسا وبين هذه وبلاد المغرب ونقل البريد بين مصر وبغداد بطريقة منتظمة . ثم في قطع المسافات الشاسعة بين اوروبا وامريكا وبينها وبين مصر والهند واستراليا . ولا بد ان يأتي يوم تكون فيه حركة الطيارات في الهواء كحركة العربات على وجه الارض .

التاريخ فهم كثيرون منهم ابن خلدون (أصله من اشبيلية). وابن حيان. وابن بشكوال: وابن سعيد. وابن الخطيب.

ولم يظهر الذين نبغوا في الفلسفة إلا في أواخر القرن الرابع لأن الناس كانوا إلى منتصف هذا القرن يتهمونهم بالزندقة بل بالكفر. (١) ويتطاولون عليهم بكل أنواع الأذى بما كان يضطرهم إلى الاختفاء وانكار الاشتغال بها. وكثيراً ما كان الخلفاء من المرابطين والموحدين ينالونهم بالأذى تقرباً للعامة. ومن ذلك ان المنصور يعقوب ملك الموحدين مع علو كعبه في العلوم والآداب سجن ابن رشد لنسبة بعض كتب الفلسفة اليه رغماً من انكاره لها. وكانت الفلسفة سبباً فى فرار ابن هانىء الشاعر من أشبيلية خوف ايقاع الناس به. والذين ظهر منهم فى سماء النبوغ فيها: ابن رشد. وابن الطفيل. والوقشي. وابن الصايغ المعروف بابن باجه. وابن حيان والمقتدر بن هود صاحب سرقسطة.

وقد برز في علم الموسيقى ابن فتحون. وابن باجه. ويحيي الخدج. ولهم فيها تواليف كانت اصلا لترتيب النغمات الافرنكية وتقييدها فى نوتتها الحاضرة.

ومما مر ذكره ترى ان الذي كان ينبغ منهم في مادة لايمنع نبوغه فيها تفوقه فى مادة او مواد اخرى كابن رشد مثلا فانه كان عالما دينيا. واديبا. وشاعراً. وطبيبا. وكاتبا وفيلسوفا. وكذلك ابن باجه فانه كان مع هذا كله موسيقياً.

ولولا التطويل الذي لاتتسع له هذه الكلمة لاكثرنا لك من هذه الامثلة التي يخجل امامها هؤلاء الذين يتظاهرون بجلال العلم من غير ما علم. وقد اصبح هذا من علل الشرق بعد ان كان فيه من علمائه ماينحني رأس التاريخ امام اسمائهم اعظاما واكبارا.

---

(١) ومن ذلك قيامة الازهر على السيد جمال الدين الافغاني عند حضوره الى مصر في النصف الثاني من القرن المنصرم وتدريسه به اصول المنطق والفلسفة. فانهم رموه بالزندقة وقصدوه بانواع الاهانة مما اضطر معه الى ترك الازهر والاقتصار على التدريس في بيته لمن اراد من تلاميذه الذين كان منهم قاد الاصلاح الفكري والسياسي في القطر. ومنهم الامام الشيخ عبده

وبالجملة فقد انتجت الاندلس من رجال العلم [١] من لا يقلون في كفايتهم وعلومهم عمن انتجهم الشرق الاسلامي ممن قامت بتواليفهم هيا كل المدنية فى كل علم من العلوم المختلفة. وقد كانوا يفاضلون بين ابن رشد والطوسي. وبين ابن زهر وابن سينا. وبين ابن فرناس والفارابي. وبين يحيي الخدج وابي الفرج الاصبهاني. وبين ابن هانىء والمتنبي. وبين ابن زيدون والبحترى. وبين ابن عبدون والاصمعي. وبين ابن ضمضم والخوارزمي. وبين ابي مروان البصير والمعري. لوجود الشبه بين كل فى كثرة علومهم وعرفانهم. وكانوا يفاضلون بين عبد الرحمن الداخل والمنصور العباسي. وبين الناصر والرشيد. وبين الحكم ابن الناصر والمأمون العباسي لكثرة الشبه بينهم فى سياستهم. وبعد نظرهم. وكمال رياستهم. وغزارة معارفهم. كما كانوا يفاضلون بين قرطبة وبغداد وبين اشبيلية وحمص وبين غرناطة ودمشق لكثرة الشبه بينها فى ضخامة البنيان وواسع العمران وكثرة الزروع والانهار.

---

(١) لابن الفرضي كتاب لتاريخ علماء الاندلس الى آخر القرن الرابع في جملة مجلدات نشر الاستاذ كوديرا منها الجزئين السابع والثامن في مدريد سنة ١٨٩٢.

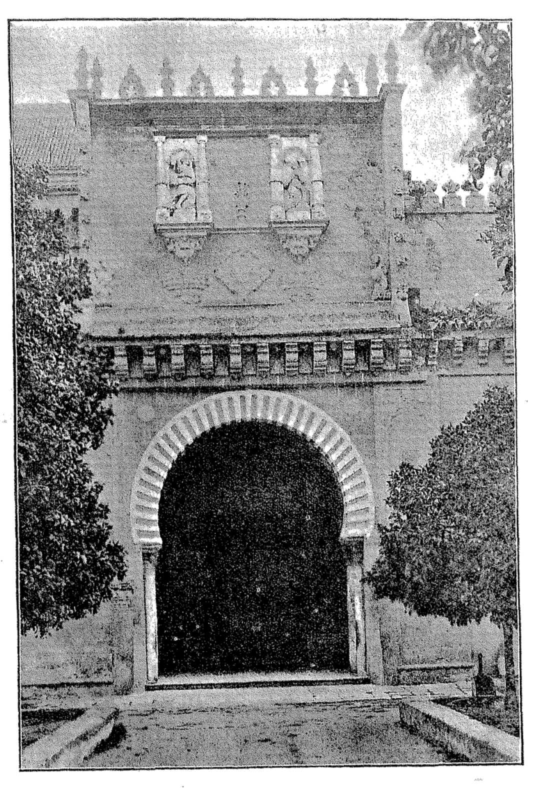
الرسالة الثالثة

من مدريد الى قرطبة

يسير القطار بين هاتين المدينتين فى مسافة طولها ٤٤٠ كيلو مترا يقطعها فى عشر ساعات فى صحراء تقريبا كالتى بين مدريد وسان سباستيان . وترى على القطار يافطة مكتوبا عليها (الاندلس) يعنى انه يتجه الى جهة الجنوب ٠ وهو اشبه شيء بقطر الفروع الصغيرة عندنا قبل ان يدخل عليها الاصلاح ٠ ومن ذلك تعرف ان السفر الى هذه الجهة ليس فيه اية ضمانة لراحة الركاب وليست فيه بطبيعة الحال عربات للنوم ولا للاكل . وكنا كلما سرنا الى الجنوب تكثر الاراضى الزراعية فى هذا الوادي كما تكثر الابنية التي هي اشبه شيء بالعزب والقرى الصغيرة ٠ وبعض هذه الابنية بالطوب النيء ٠ وكذلك تكثر حول المباني الآبار وعليها دلاؤها بشكلها المعروف . وقد ترى بعض السواقى المعينة تدور بحصان وقواديسها من الزنك ومن حولها بعض مزارع الخضر . وقد ترى بجوار القرى قمائن الآجر (الطوب الاحمر) المحروق بالفحم . ولشدة الحرارة فى هذه الجهات ترى في كل محطة من محطات الاندلس بعض الرجال أو البنات أو الصبيان يحملون قللا وينادون (اغوا . اغوا) وهم أشبه شيء بتلك الصبية التى تراها في بعض المحطات عندنا مدة الصيف وهم يصرخون (ماياه) أو ما تراه في صحراء الحجاز من العرب الذين يحملون القرب الصغيرة وهم ينادون (الما الما) وفى الساعة السابعة مساء وصلنا الى قرطبة .

قرطبة

كانت قرطبة قبل العرب عاصمة الاندلس مدة القوط . فلما لحق موسى بن نصير بمولاه طارق بعد الفتح اقام بها ودعا فيها للوليد بن عبد الملك الخليفة بدمشق . ومازالت حتى استولى عليها عبد الرحمن الداخل الاموي في مبدأ



أحد أبواب مسجد قرطبة

الخلافة العباسية وجعلها عاصمة ملكه وأصبحت منذ زمن عبد الرحمن الناصر مقر الخلافة العربية باسبانيا . وكانت مدة الامويين على أكبر ما تكون من العظمة ، وكان قصر الخلافة فى مبدأ أمره جنوبي المسجد الجامع الذي بناه عبد الرحمن الداخل . وهو باق الى الآن فى مكانه لافي روائه وفخامته . وهو مقر البطريق الكاثوليكي في هذه الجهة . وقد بنى الخلفاء الامويون قصور الزهراء خارج المدينة وكانت أشبه شيء بفرساي بجوار باريس لكل خليفة منهم زيادة فيها . إلا أن تعسف المرابطين وأيدي السلبة من جهة ويد الغاصب وحدة التعصب الدينى في محو كل أثر للمسلمين بعد استيلائهم على المدينة من جهة أخرى . وكونها كانت بعيدة عن حصون قرطبة وقد يتحصن فيها المسلمون اذا هجموا على قرطبة من جهة ثالثة . كل ذلك قضى على هذه القصور التى وصلت من فخامة الملك وأبهة الخلافة العربية الى مالم يصل اليه شيء في بابها . وقد كانت تبلغ في طولها ثلاثين كيلو مترا بغياضها ورياضها مما وصفه مؤرخو العرب بما لم تبلغه قصور الخلافة الشرقية في دمشق وبغداد .

وقد بلغت هذه المدينة من العظمة ماسبقت به بغداد فى ثروتها وحضارتها وعلومها وفنونها ولم يبق لنا من آثارها غير تلك الذكرى المؤلمة وذلك الجامع البديع الذي لايبلغ في فخامته شيء آخر فى بابه .

المسجد الجامع بقرطبة

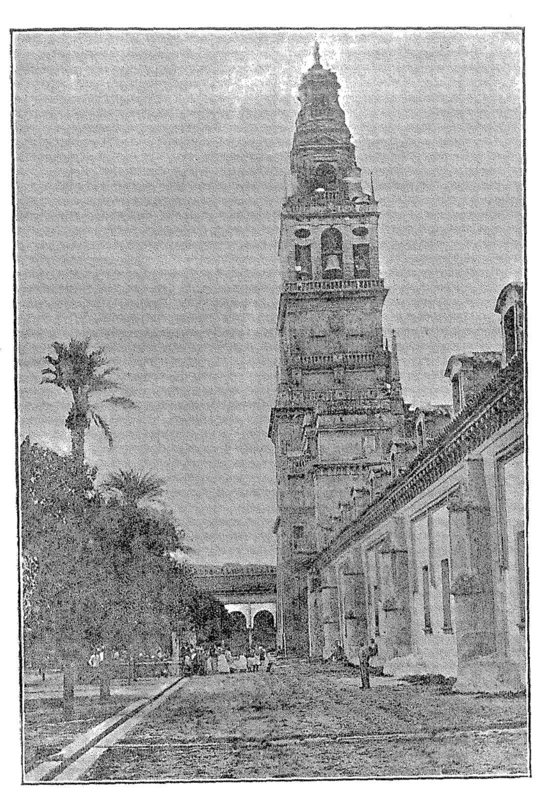
دخلنا المسجد من باب المنارة وهو بابه العمومي الكبير النحاسي ويبلغ طوله نحو ثمانية أمتار وارتفاعه نحو عشرين متراً . ووجهة البناء من الرخام المنقوش بنقوش عربية عجيبة أشبه شيء بالدنتلا . وفي وسطها واعلاها كتابة عربية لم أستطع قراءتها . ويتكون هذا الباب من ظاهره من قطع نحاسية طولها ١٥ سنتيمترا فى عرض نصفها تقريبا . وهى مثمنة الشكل بعضها عمودي على

الآخر . وقد رسم القوم في وسط القطعة القائمة صلبانا بعد استيلائهم على المدينة وتحويلهم المسجد الى كنيسة . والمنارة فى الزاوية القبلية الجنوبية من المسجد وهى مربعة الشكل وطول كل ضلع منها ١٢ متراً وارتفاعها ٩٣ متراً وهى خمسة أدوار في كل دور عدد كبير من الاجراس . وقد استوجب هذا التغيير الجديد بعض تغيير في نظامها القديم بطبيعة الحال . ومن دون باب المنارة صحن المسجد : وهو فناء واسع في وسطه الى الآن ثلاث فسقيات واحدة فى الوسط وهى الكبرى واثنتان صغيرتان واحدة عن يمينها،وأخرى عن يسارها ، وكانت ثلاثتها للوضوء . ومن دون الصحن المسجد .

وقد كان مكان هذا المسجد كنيسة فأراد عبد الرحمن الداخل أن يبتني مكانها مسجداً لحسن موقعها . فعوض النصارى عنها أرضاً واسعة وأموالا جمة (وذلك بشهادة مؤرخي الافرنج) . ثم بنى مكانها مسجده هذا على نظام المسجد النبوي الذي بناه الوليد بن عبد الملك بالمدينة المنورة (وهذا حسب مشاهدتي الشخصية) .

وقد وصل خلط بعض الناس في أفكارهم وأقوالهم الى الحد الذي لا يتفق مع الحقائق البديهية . فان بعضهم نسب الى عبد الرحمن الداخل انه انما بني مسجده بقرطبة بهذه الفخامة حتى يستغني الناس بحجهم اليه عن حجهم الى الكعبة المكرمة بمكة . وهذه تهمة أقل مافيها أن الرجل بعمله هذا يهدم ركناً من أركان الاسلام الخمسة .

ولو علمت أنهم ذكروا أن مالكا رضى الله عنه سأل بعض حجاج الاندلس عن عبد الرحمن الداخل فقالوا له « يأكل الشعير ويلبس الصوف ويجاهد في سبيل الله فقال ليت عندنا فى حرم الله مثله » . وكانت هذه القولة سبب محنة مالك من العباسيين لعرفت أن مثل الداخل لايأتي بما اتهمه به هؤلاء الذين لا يعون مايقولون .



منارة مسجد قرطبة وقد وضعوا فيها النواقيس بعد تحويله الى كنيسة

وقد اتهموا في ذلك الوقت وبهذه التهمة نفسها المنصور العباسي حينما بني القبة الخضراء ببغداد .

وقد كان المنصور وعبد الرحمن الداخل في زمن واحد. وهما تهمتان كاذبتان لاتنطبقان على صفتي هذين الرجلين العظيمين اللذين انما كانا يستمدان سلطانهما من قوة الاسلام ومن شرائع الاسلام في وقت كان منار الاسلام فيه اصله فى الارض وفرعه فى السماء وفيه كان امراء المسلمين وخلفاؤهم يأتون الى مكة سعيا على الاقدام من بلادهم لحج بيت الله تقربا اليه وزلفى .

وقد زاد في المسجد الحكم بن الداخل والخلفاء من بعده . ولكن الزيادة الكبرى التى بنيت فى الجهة الشمالية بناها المنصور بن أبي عامر وزير الخليفة هشام المؤيد . وهذه الزيادة تبلغ ثلثي المسجد الاصلي وتتميز عنه بان ميول خطوط اعمدتها تتجه من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقى اما ميول اعمدة المسجد الاصلى فتتجه من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقى . وعلى كل حال فالذي ينظر الى الاصل والزيادة يرى الفارق بينهما عظيما : لان الاصل بني على نظام واف وفيه من الاعمال الفنية مايقف امامه الانسان باهتا معجبا خصوصا باعمال القبلة والمحراب والمقصورة التي كانت من المسجد الاصلي مكان مقصورة الرسول صلى الله عليه وسلم من مسجده . ولا بد انها كانت مكان صلاة الخلفاء لان بابها تجاه الباب الذي كان يدخل منه الخليفة الى المسجد قبالة باب القصر . وهي بناء مربع مرتفع مزين بنقوش جصية بديعة جدا وعليها كتابات قرآنية واحاديث نبوية وقد وشيت من داخلها بالادهان الذهبية ولها فتحات على المسجد . وقد كان القسس بنوا حولها حوائط تحجبها عن الانظار بعد اخذهم المدينة ولكنهم فطنوا الى هذه الاغلاط التى ارتكبوها ضد التاريخ وهم الآن يزيلونها ويرجعونها الى اصلها .

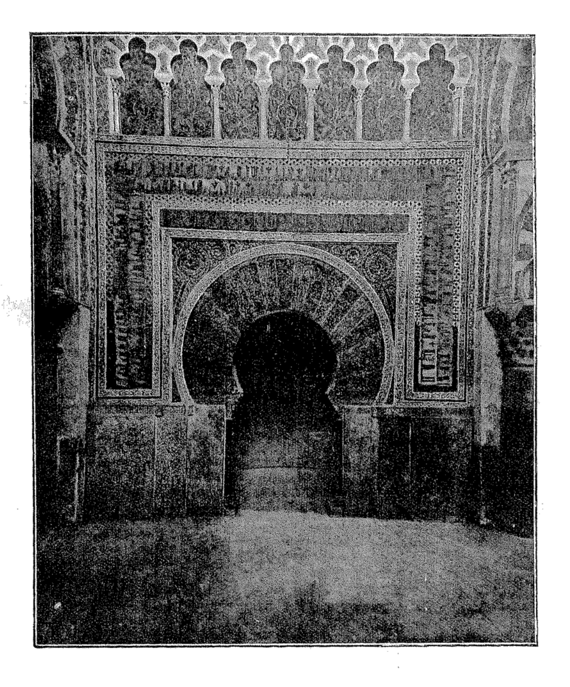
اما القبلة فهي شيء لايصل اليه وصف الواصف ولا مبالغة الناعت . ويحيط بها الآن دربزين من الحديد لمنع الناس عنها . وقد قدرتها بسبعة امتار

طولا في ١٢ مترا ارتفاعا . وفي وسطها المحراب وكل هذه الوجهة صنعت من الفسيفساء (١) الصغيرة جدا والدقيقة في صناعتها : فهي من قطع رخامية من الوان كثيرة يدخلها قطع صدفية وذهبية . وقد صيغت بشكل ينشأ عنه صورة فذة في بابها : اذا نظرت اليها من جهة اليمين رأيت مناظر غير التي تراها من جهة الشمال وذلك بسبب انعكاس الضوء فيها بحال تستهوي الالباب وتسلب العقول بجلال هذه الصناعة العربية . وفي دائر القبلة والمحراب كتابات كوفية قرآنية كثيرة مما تراه عادة على امثالها . وعن يمين القبلة ويسارها بابان لغرفتين صغيرتين احداهما لتعبد الامام والثانية لوضع لوازم المنبر الذي لم يكن له من اثر . والمحراب واسع من داخله وتعلوه قطعة واحدة من الرخام المقعر تكون سقفه وكانوا يضعون فيه المصحف العثماني الكريم (٢) حتى اذا ما استولى الموحدون على الاندلس نقله عبد المؤمن الى مراكش في سنة ٥٥٢ ه واحتفل بدخوله الى المغرب ايما احتفال .

---

(١) اصلها كلمة يونانية فسيفوس PHSEPHOSIS ولعل كلمة موزاييك MOSAIQUE اصلها عربي « مزوق » فاستعمل العرب الاولى واستعمل الافرنج الثانية .

(٢) خالط الناس كثيرا في نسبة بعض المصاحف الى عثمان رضي الله عنه . وادعى بعضهم ان المصحف الذي في جهته هو مصحف عثمان واضاف الى هذه الدعوى دعوى اخرى وهي انه هو الذي على بعض صفحاته دم هذا الشهيد : فمن يتكلم عن مصحف قرطبة يقول انه هو الذي كان يتلو فيه عثمان وقت ان قتله الثائرون . والذي بالشام يدعى هذه الدعوى والذي بالاستانة او العراق لاتقل دعواه عن ذلك . ولا تعدم مصر من يقول بهذا القول . والحاصل ان عثمان رضي الله عنه لما جمع القرآن كتب منه ستة مصاحف (او عشرة) وارسلها الى الجهات الاسلامية . فكتبوا منها كثيرا من المصاحف التى اذاعوها في بلادهم وهذه كتب عنها غيرها وهكذا : ويمكن ان تعتبر كل مصحف منها مصحفا لعثمان : لا في ذاتية المصحف الذي كان يقرؤ فيه وقت ان اعتدت عليه تلك اليد الاثيمة وسال دمه على صفحاته في سنة ٣٥ ه . ولا في ذاتية المصحف الذي ارسل به الى بعض الجهات . على انه لايعقل ان ينقل مصحف عثمان الاصلي من المدينة الى الاندلس لبعد الشقة وعدم تيسر الطريق لنقله : لان مصر في مدة الامويين بالمغرب كانت تابعة للخليفة العباسي . ولا يعقل ان كتابا عظيما كهذا يقول بعضهم عنه ان نقله ينوء بحمله رجلان يخرج من مصر التى هى الطريق الوحيد الى الاندلس ولا يعلم به عاملها الذي لم يكن يسمح بخروج اثر كريم مثل هذا من بلاده . على انه لايبعد ان بعض تجار الكتب يستنسخ مصحفا كبيرا ويلوث بعض صفحاته بدم ويبيعه بهذه الدعوى الفاسدة اكبارا له حتى يضاعف له في ثمنه .



قبلة المسجد الجامع بقرطبة وهي آية الآيات في الصناعة العربية

وما زال هذا المصحف الشريف بخزائن ملوك المغرب فى مركز اجلال واعظام . وكانوا يستصحبونه في غزواتهم . حتى ذهب ابو الحسن المريني ملك فاس الى افريقية (تونس) . وبينما كان عائدا في سنة ٧٥٠ ه من طريق البحر غرقت مراكبه ومن جملة ماغرق منها هذا المصحف الشريف وهذا آخر العهد به.

وقد كان القوم أيضاً أقاموا على القبلة حائطا ليحجبوها عن أنظار الناس الى أن أزيلت في القرن الثامن عشر . وطول المسجد من الشمال الى الجنوب ١٧٥ مترا ومن الشرق الى الغرب ١٣٤ متراً وارتفاعه يصل الى ٢٠ متراً . وقد كان بالمسجد ١٢٩٣ عموداً كلها من الرخام وتيجانها منقوشة بنقوش مختلفة وكانت قبته قائمة على ٣٦٥ عموداً من المرمر ولما أراد القوم بناء كنيستهم من داخله أزالوا القبة وأزالوا معها ١٦٣ عموداً من وسط الجامع وأزالوا ما كان عليها من الحنايا وبنوا فيها كنيستهم التى تراها الآن وسط المسجد الى جهة الشمال الغربي وامتدادها من الشمال الى الجنوب . وهى منه كالنقطة السوداء في وجه الحسناء لاأدري اذا كانت تجملها أو تدملها . وقد كانوا أزالوا بعض سقف المسجد الجميل المنقوش بالأدهان الجميلة واللبقة الذهبية . ولا يزال موجوداً منه جزء عظيم جهة القبلة . ووضعوا بدله حنايا أقاموا عليها عقود كنيستهم . وقد عولوا الآن على رفعها واعادة باقي السقف الى ما كان عليه مع ازالة جميع المصليات الصغيرة التي أقاموها في محيط المسجد . وهم الآن يزيلون البناء الذي كان يحجب الابواب الخارجية وقد ظهرت منها ثلاثة أبواب مما يقابل القصر وهى غاية فى كمال نقشها وفخامة منظرها . وكان بالمسجد مصابيح من الفضة الخالصة بقي الى اوائل القرن الثامن عشر منها أربعمائة مصباح أخذها الفرنسيون عند دخولهم قرطبة في زمن نابليون الأول .

وقد رأيت بين أعمدة الجامع عموداً الى الغرب يكاد يكون بين المسجد الأصلي وزيادة ابن أبي عامر . وقد حفرت في جانبه الخلفي صورة صغيرة للمسيح مصلوبا . ومن دونها في الحائط مثال رأس انسان وضعه القسس ويقولون

أنه مثال هذا الرجل الذي رسم تلك الصورة بظفره وكان يتظاهر باسلامه . وقد خطر ببالي أن هذا وأمثاله كانوا من أسباب هزائم المسلمين في حروبهم مع القوط وغيرهم : لأنهم كانوا يرشدون العدو الى النقط الضعيفة فيهم (١)

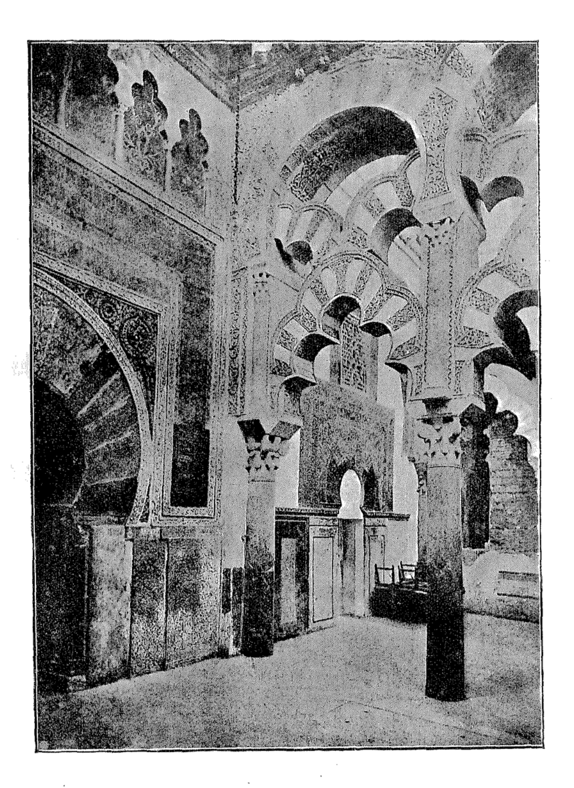
واذا ذهبنا الى أبعد من هـذا وجدنا أمثال هـذا الرجل سبب مصائب الاسلام حتى في صدره الأول : لأن اليهود الذين أسلموا ولم يحسن اسلامهم كانوا من المنافقين الذين كانوا شراً على الاسلام من أعدائه . وقد حاربوا الاسلام بمادة الاسلام وهو في قوته : فأخذوا يبتدعون الاحاديث المكذوبة ويتقولون على النبي مالم يقله . حتى اختلط الصحيح بالفاسد وما زال حتى قام رجال الدين فى العصر الثاني (٢) وطهروا الاحاديث من الدخيل والموضوع وأبانوا صحيحها من ضعيفها بالسند الصحيح الذي لم تحم حوله أية شبهة . ثم أنظر

---

(١) وحسبك الحكاية الآتية برهانا على ذلك :

قال المقري : قال ابن حيان « انه كان جالسا مع المنصور بن ابى عامر في بعض الليالي . وكانت شديدة البرد والريح والمطر . فدعا باحد الفرسان وقال له انهض الآن الى فج طالس وأقم فيه فاول خاطر يخطر عليك سقه الي . قال فنهض الفارس وبقى في الفج في البرد والريح والمطر واقفا على فرسه . اذ وقف عليه قرب الفجر شيخ هرم على حمار له ومعه آلة الحطب . فقال له الفارس الى اين تريد ياشيخ ؟ فقال وراء حطب . فقال الفارس في نفسه هذا شيخ مسكين نهض الى الجبل يسوق حطبا فما عسي ان يريد المنصور منه ؟ ؟ قال فتركته فسار عني قليلا ثم فكرت في قول المنصور وخفت سطوته فنهضت الى الشيخ وقلت له ارجع الى مولانا المنصور . فقال له وماذا عسى ان يريد المنصور من شيخ مثلى ؟ سألتك بالله ان تتركني اذهب لطلب معيشتى . فقال له الفارس لا افعل . ثم قدم به على المنصور . ومثل بين يديه وهو جالس لم ينم ليلته تلك . فقال المنصور للصقالبة فتشوه . ففتشوه فلم يجدوا معه شيئا . فقال فتشوا برذعة حماره . فوجدوا داخلها كتابا من نصارى كانوا قد نزعوا الى المنصور يخدمون عنده الى اصحابهم من النصارى ليضربوا ويقتلوا في احدى النواحى الموطونة . فلما انبلج الصبح امر باخراج اولئك النصارى فضربت اعناقهم وضربت عنق الشيخ معهم »

(٢) اول من الف في الحديث الامام مالك ثم باقي الأئمة الاربعة والزهري وغيره حتى اتى الامام البخاري في مبدأ القرن الثالث (مات سنة ٢٥٤ هـ) ووضع مسنده الذي جمع فيه ٩٢٠٠ حديثا وهي ماأجمع عليه الرواة . وقد سئل البخاري عما يحفظه من الاحاديث فقال انه يحفظ مائة الف حديث صحيحة ومائتى الف حديث غير صحيحة . واتي من بعده ابو داوود فوضع مسنده . ثم الترمذي والنسائى ووضعا ايضا مسنديهما واليهم ينتهي امر الاجتهاد في الحديث ويليهم ابن ماجة والدار قطنى .



منظر من الحنايا والعقود الفنية البديعة بمسجد قرطبة

الى من لم يحسن اسلامهم من الفرس ترهم حاربوا الدين بمادة الدين من جهة أخرى فابتدعوا التشيع . وغالوا في بعض مذاهبه حتى اخرجوها عن الاسلامية بالمرة . ثم ابتدعوا الاعتزال وغالوا فى بعضه حتي أصبحت فروعه تخالف الأصول فى جوهرها . واذا تركنا الدين الى جانب و نظرنا في أعمال هؤلاء الدخلاء السياسيين في الدولة العثمانية مثلا ، وليس عهدها ببعيد ، نرى أن هؤلاء الذين كانوا من دم صربي أو بلغاري أو روسي أو رومي وبيعوا في الاستانة بصفة مماليك واسلموا وتربوا فى حضانة كبار القوم حتى وصلوا الى مكانة عالية وأصبح منهم الوزراء والرؤساء والقواد يميلون بطبيعتهم الى خدمة جنسيتهم الاولى . وقد تستعملهم دولهم الأصلية لمساعدتها ضد هذه الدولة التى نشأوا في عزتها وكانوا لايزالون يعيشون في نعمتها : هؤلاء كانوا سبب هزائم الدولة في كثير من حروبها وكانوا علة فساد سياستها وضعف ماليتها ، حتى كاد يتلاشى أمرها لولا أن أسعفها الله بالكماليين أعانهم الله على مافيه خير بلادهم .

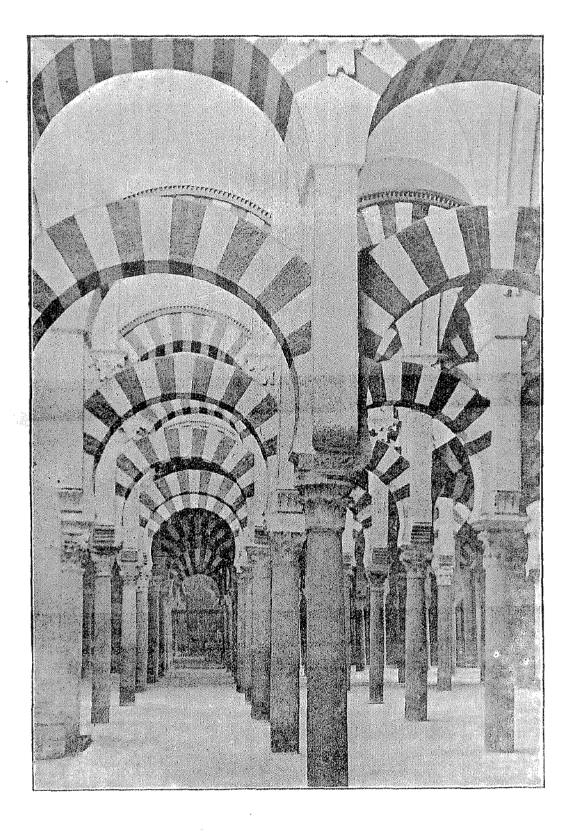
ولو عرفنا أنه قدكان بقرطبة غير هـذا المسجد الجامع العظيم مايقرب من الفي مسجد . وعرفنا أن المساجد كانت ولا تزال في الدول الاسلامية تستعمل مدارس للعلوم المختلفة كما هو الشأن الى الآن في الحرمين الشريفين بمكة والمدينة . والازهر بمصر . والمسجد الجامع ببغداد . والمسجد الأموي بدمشق . وجامع الزيتونة بتونس . ومسجد الكتبية بمراكش . وجامعى السلطان احمـد والسلطان محمد بالاستانة . ومسجد عمر بالقدس أمكننا أن نتخيل ماكانت عليه قرطبة زمن العرب في تبريزها في العلم والعرفان الى مالم تلحقها فيـه مدينة أخرى اسـلامية أو غير اسلامية في عصرها . وأمكننا من جهة ثانية أن نقدر عدد سكانها فى ذلك الوقت بما كان يزيد على نصف مليون نفس بكثير .

أما قرطبة الحالية فشكل مبانيها يكاد يكون عربياً صرفا : فقد ترى الباب الخارجي من بيوتها ومن دونه دهليز يوصل الى حوش يفصل بينهما باب من حديد في الغالب . وفي الحوش ترى روضة جميلة زرع فيهـا شيء من نخل

الاريكا أو الكنسا يتخللها شيء من الزهور والورود . وترى في وسط هذه الروضة فسقية من الرخام عالية أو واطئة عن أرض الحوش صغيرة أو كبيرة بنسبة سعته أو ضيقه : وقد ذكرني هذا الحوش بالقاعات الحورانية التي كانت بمصر وقضى عليها النظام البنائي الأفرنكي الجديد ولا يزال شيء منها في البيوت القديمة بجهة سوق السلاح .

وعلى يمين الداخل من الحوش ترى قاعة الاستقبال وهي أشبه شيء بالمندرة في ديارنا القديمة . وفي ناحية منها السلم الى الدور الثاني والنساء يجلسن في هذا الحوش في شيء من الحجاب .وحيطان الطبقة الأرضية على الخصوص في دائرها القيشاني المختلف الالوان والاشكال الى ارتفاع مترين . ولا شك أن هذه الرسوم بقيت في المدينة من مدة العرب . وقد بقي فيها بيت واحد قديم يقرب من المسجد الجامع لم اتمكن من زيارته لعدم وجود أصحابه فيه . ونساء المدينة محتشمات يغلب عليهن الحياء : فأذا أبصرت واحدة منهن ترى عينيها متجهة الى الارض ولا تحدق بنظرها فيك مطلقاً ومع أن بلادهم حارة — وحارة جداً — فانك لاترى صدورهن عريانة . ومن غريب مارأيت في هذه المدينة أن سيدة كانت تتوارى وراء باب منزلها الخارجي وتنظر الى الخارج من فتحة صغيرة بين مصراعي الباب كما كنت تشاهد في الاحياء الوطنية عندنا الى عهد قريب .

وقرطبة على الشاطىء الغربي من نهر الوادي الكبير وهو في زمن تحاريقه لاترى فيه غير مياه راكدة هنا وهناك على هيئة برك صغيرة تحيط بها أراض جافة الى الشاطىء الآخر . وفي قبالة المسجد قنطرة طولها ٢٤٠ مترا بناها يوليوس قيصر قبل الميلاد بخمسين سنة وقد جددها السمح بن مالك عامل عمر بن عبدالعزيز على الاندلس . ورممها الاسبانيون وهي تنتهي من الطرف الشرقي بقلعة من بناء العرب لها برجان عظيمان تسمى الى الآن بالقلعة الحرة . وفيها نقطة بوليس وفي وسط النهر قريبا من القنطرة اربع بنايات كانت طواحين مائية مدة العرب . وقريبا منها ابنية قديمة على الشاطيء كانت في مدتهم حمامات نهرية . وقد بني



منظر داخلي لمسجد قرطبة الجامع

القوم بين المسجدوالقنطرة عمودا عاليا عليه تمثال القديس روفائيل حامي المدينة . لذلك تجد المدينة وسكانها ثمانون الف نفس اكثر من نصف رجالها اسمهم روفائيل كما هو الحال فى طنطا وما اليها من البلاد في كثرة اسم السيد . وشوارع المدينة ضيقة والشارع الذي به القهاوي والمحلات التجارية واسع نوعا ويضعون في اعلاه خيمة تظله من شمس النهار ذكرتني بالخان الخليلي والصاغة عندنا لولا أنها هنا أوسع وانظف . واكبر شوارعها هو شارع الكروية . واترك لك الحرية في قراءته بالتحريف الذي تريده . وعرضه على ماارى ٢٠ مترا منها عشرة لافريزه من كل جهة . وفيه بعض اللوكندات والقهاوي ، ومبانيه فى الغالب على الطراز الافرنكي . اما الابنية التى خارج المدينة فليست بهذا ولا بذاك ويكثر حولها التراب الى مسافة بعيدة مما يدل على ان كان فيها ابنية قديمة قد محتها يد الايام .

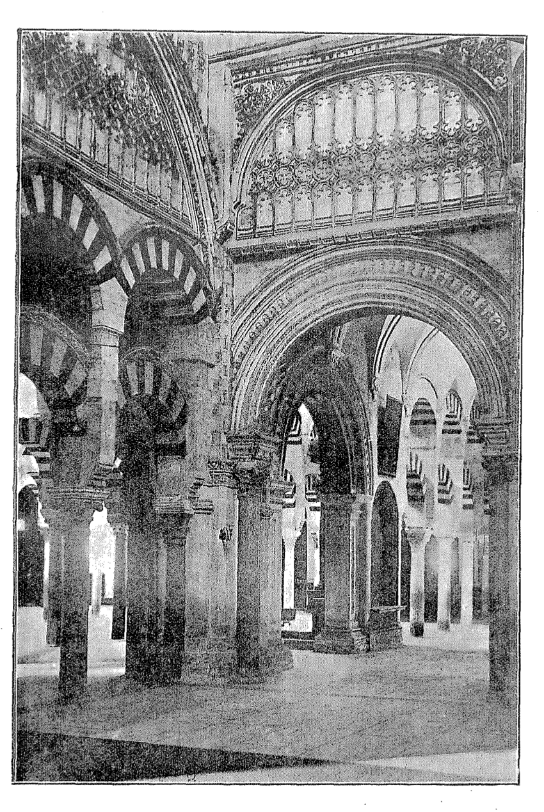
ويظهر ان رجال المدينة عملهم قليل ، لذلك ترى القهاوي على كثرتها عامرة بهم طول النهار واظن لشدة الحرارة اثر في ذلك . ويكفي ان اقول لك اني كنت أدخل الحمام ثلاث مرات في اليوم في هذه المدينة . وكنت اجلس في الماء البارد أكثر من ساعتين وقت الظهر . وفى هذه الاثناء تذكرت المرحوم داود باشا مدير قنا لعهد اسماعيل وكان يقضي غالب يومه في برميل ممتلىء بالماء . ومن دونه الختم : فاذا كانت اوراق هامة اتي الباشكاتب وختمها وانصرف الى سبيله . ولكن اين هنا من قنا وفيها اشجارها ونيلها يلطفان من شدة حرارتها كثيراً ولو بعد غروب الشمس .

ولقد كانت قرطبة مدة العرب جنة زاهرة وروضة ناضرة لنظام الري الذي احدثه العرب فيها فلما استولى الافرنج عليها سنة ١٢٣٦ م طردوا اهلها وجعلوها حصنا على حدود مملكتهم واهملوا ترعها وخلجانها وكذلك الماء الذي سيره العرب الى قصورها من الجبل . وبذلك اصبحت هذه المروج النضرة قيعانا لا يسكنها غير البوم ولا تسير فيها الا لفحات السموم . وكان حالها كحال العراق الذي

بعد ان كان جنة الارض مدة العباسيين اصبح بعد ان دالت دولتهم صحراء لا نبات فيه ولا زرع ، ولا يسكنه الآن غير قوم من العرب الرحل الذين ينتقلون وراء الكلأ : ولا شك ان البلاد تسعد أو تشقى باهلها . وقد كانت الدولة العلية في اواخر ايامها فكرت في وضع نظام للري فى العراق و استقدمت فعلا المستر ويلكوكس المهندس الشهير بمصر فذهب الى العراق ومعه نخبة من المهندسين المصريين و بعد ان وضعوا له النظام الوافي بالغرض ، اهملته الدولة لكثرة النفقات التي تلزمه ولا تزال رسومه على ما اظن في خزانة وزارة النافعة التركية (الاشغال) الى الآن .

ولعل الانكليز وقد اصطلحوا مع الترك على الموصل وصار العراق بحدوده الجديدة في أمن من الاتراك ومناوآتهم يعملون على تنفيذ هذا المشروع فيرجعوا الى العراق شبابه الاول ورفاهته المنصرمة وان كانت هذه الأمنية مما يهدد مصر في كيانها الزراعي (وهو كل شيء فيها) ، خصوصاً وقد أصبح بعد السكوار ، ومشروع جبل الأولياء ، ونظام الرى الذي يراد عمله في سواكن والاريترة ، وهو المتفق عليه بين الانكليز وايطاليا على حساب الحبشة ومصر ، لا يعلم الا الله ما يكون مخبوءا وراء هذا كله لبلادنا . وعلى كل حال فليس للفلاح المصري مخلص من كل هذه المهددات لحياته غير اهتمامه وعنايته بترقية زراعته حتى ترجع اليها شهرتها الاولى ، ويرتفع القطن المصري الى رتبته التي كانت له من عشرين سنة بحيث لا يعد له قطن أية بلاد أخرى .

وبهذا وحده تخلص مصر من جميع المهددات التي تكتنفها من الشرق والغرب والشمال والجنوب ، لاسيا اذ لاحظنا ان الاتراك يفكرون في تعميم زراعة القطن في بلادهم واظنهم قد تفرغوا الآن للعمل في داخليتهم بعد ان صفوا كل او جل مسائلهم الخارجية . وان الاسبان من جهة اخرى يزاولون التجارب العديدة لزراعة القطن فى بلادهم وقد استقدموا فعلا بعض المصريين لهذه الغاية ومكان هذه التجارب الآن ولنسيه واشبيلية . ولكنهم لم ينجحوا



منظر داخلي للمسجد الجامع بقرطبه

فيها لشدة حرارة اسبانيا صيفا وللتغيرات الجوية الفجائية التى قد تنتقل بالطقس من حار الى بارد من غير وسط بينهما في جنوب هذه البلاد وخصوصا في شهر سبتمبر .

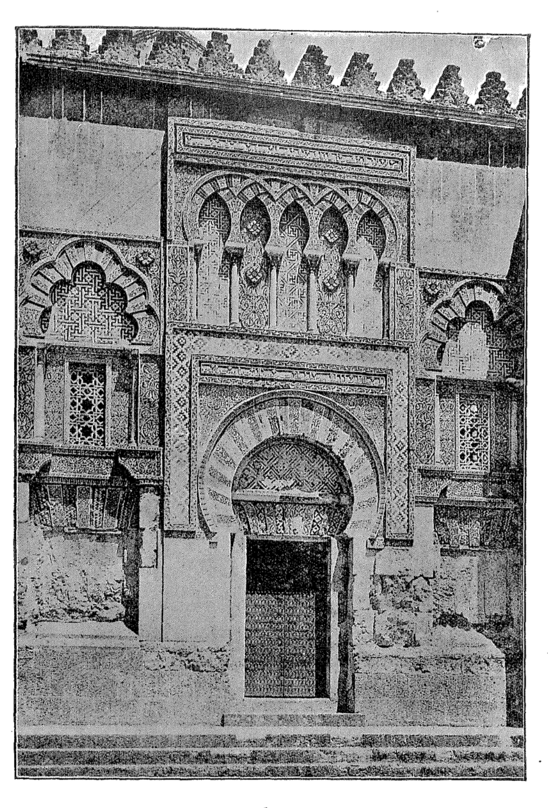
للعبرة والتاريخ

فى زمن الوليد بن عبد الملك دخل العرب ارض اسبانيا فاتحين سنة ٩٢ ه تحت امرة طارق بن زياد ثم موسى بن نصير . ولما انتهوا بالفتح الى برشلونه . عاد موسى ومعه طارق الى المغرب ومنها الى المشرق بعد ان ولى عليها ابنه عبد العزيز بن موسى بن نصير . وما زالت تختلف عليها الولاة من قبل بني امية ويخطب لهم فيها الى ان انتهى حكمهم في المشرق سنة ١٣٢ ه . ومن خيرة ولاتهم عبد العزيز بن موسى وخير مايذكر به انه امر بانشاء ديوان للتوفيق بين الشريعة السمحة ومصالح البلاد المفتتحة ، وتشجيعه امر الهجرة الى الاندلس . فوفد عليه الناس من الشام والعراق ومصر وغيرها . وكان يقطع كل قبيل جهة من الجهات فكان ذلك سببا في انتشار علوم المشرق وصناعاته في البلاد التى وفدوا اليها . ومن خيرة عمالهم ايضا السمح بن مالك الذي نهض بالفتح الى جنوب فرنسا ومات في حصاره لمدينة تولوز (تولوشه) . ثم عنبسه بن سحيم الذي غزا قرقشونه ونيم وغيرهما من جنوب فرنسا . ومات عنبسه في كمين عمل له فى جبال البرينات . ومنهم عبد الرحمن الغافقي الذي بدأ باصلاح مافسد من داخلية البلاد ثم سار الى أرل وبعد استيلائه عليها سار الى بوردو فاستولى عليها ثم قصد ليون وبيزانسون فاخذها عنوة . ثم قصد تور فدخلها فاتحا . وهنا لك قابلته جيوش النصرانية تحت امرة قارله (شارل مارتل) . فارتد عبد الرحمن بجيشه الى السهول التى كانت بين تور وبواتييه . وفيها حصلت بينهم وقائع يشيب منها الولدان كاد النصر يكون فيها للعرب لولا ان صرخ صارخ فى جيوشهم بان الافرنج قصدوا الى معسكراتهم وفيها غنائمهم . وقد يكون شارل لبعد نظره

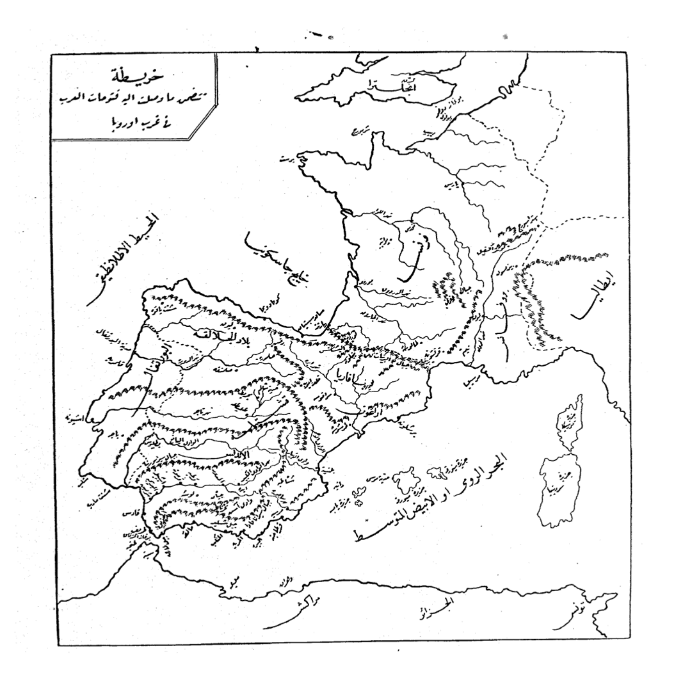
ومعرفته بالوتر الحساس في اصحاب هذه الغنائم التي كانت تملاء السهل والوعر، ارسل الى معسكرهم فرقة من عسكره لازعاجهم على ماملكت ايديهم من الغنائم والاسلاب . او ان البشكنس قاموا بهذه الخدعة حتى اذا انهزمت العرب خلصوا من سلطانهم عليهم . وعلى كل حال فقد حصل الاضطراب في صفوفهم لهذه الفكرة، وبينما كان اميرهم عبد الرحمن يحاول تثبيتهم وتشجيعهم على القتال اصابه سهم فخر منه قتيلا . وهنالك وقع الخلل في صفوفهم واختلف امراؤهم فكانت النتيجة أن صمموا على العودة الى اسبانيا مكتفين بما في أيديهم من الغنائم . وفي أثناء الليل تركوا معسكرهم الى الجنوب مثقلين بما كان فى أيديهم من الأموال ، والعدو يضرب في اقفيتهم الى أن أجلاهم عن أرض فرنسا .

وعندي أن الغافقي رحمه الله مع شجاعته الخارقة للعادة واقدامه الذي لامثيل له ومعرفته بأساليب الحرب في جميع أبوابها — كان يجب عليه قبل أن يتغلغل بجيوشه في فرنسا ، أن ينفذ رأى بن زياد في تطهير جزيرة اسبانيا وجبال البرينات الى منحدراتها الشمالية من القوط والنفاريين وغيرهم من العناصر التي كانت لاتزال تسكن شمال الجزيرة ، حتى كان يخلص بلاده من هذا العدو الذي كان يسكن منه بين البشرة والادمة ، هذا العدو الذي كان في حال ضعفه يعمل لكل هيجان في داخلية البلاد ينتهي غالباً باضرام نار الثورة بين قبيل وآخر من العرب . بل كان يصل تداخله الى بيت الأمارة نفسه فكان يفسد بين الأخ وأخيه والابن وأبيه . وكانت أيام العرب كلها في الأندلس جذوة نار لاتطفأ وبركان اضطرابات لايهدأ . حتى اذا صلب ريشه وقوى ساعده أخذ يحارب العرب الى أن أخرجهم من ديارهم بحال من القسوة لاتزال تبكي لها الانسانية.

نعم كان يجب على الغافقي بعد دخوله بلاد فرنسا أن يجعل حدا لسيل هجومه قبل أن يقف الضعف الطبيعي لهذا السيل عند الحد الذي انقلب به الفتح خذلانا والنصر هزيمة . نعم كان يجب أن يكون لتيار انتصارات هذا الفاتح العظيم حد في بلاد قد اتسعت سهولها وتشعبت حزونها وانفسحت أمامه



الواجهة الخارجية لاحد أبواب مسجد قرطبه


خريطة
تحصر ما وصلت اليه فتوحات العرب
في غرب اوروبا
انجلترا
خليج جاسكونيا
المحيط الاطلانطيقي
فرنسا
ايطاليا
بلاد الجلالقة
البرتغال
الاندلس
البحر الرومي او الابيض المتوسط
مراكش
الجزائر
تونس

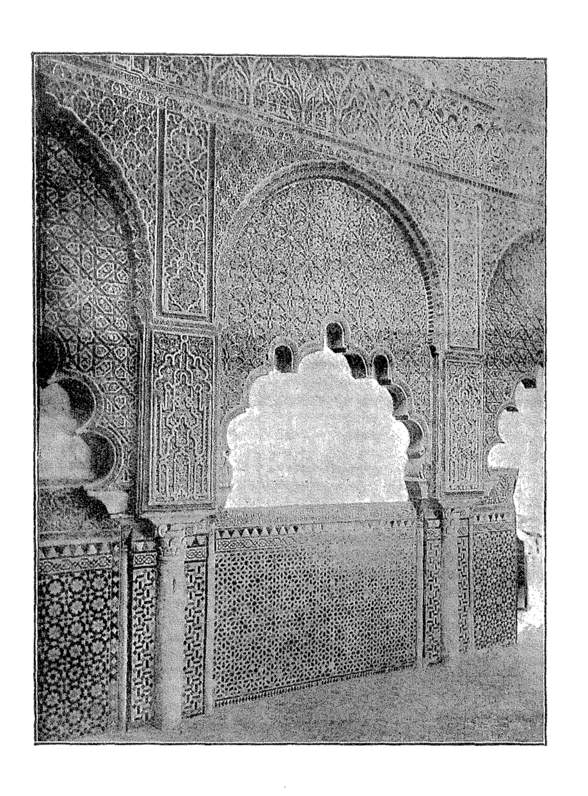
فيها دائرة الفتح وامتد فيها خط هجومه الى حد لم يمكنه معه قلة أساليب المواصلات في ذلك العهد أن يحكم أمره فيه أو يدلي برأيه الى طرفيه : ومسافة ما بينهما لا تقل عن مائتي كيلو متر (بين ليون والاطلانطيق) . وكان خيراً له أن لا يتعدى نهر الدوردوني DORDCGNE بل يجعله حده الشمالي من جهة الغرب وهو على الدوام فياض بمائه لعظم المد الذي يأتيه من الاقيانوس ، وأن يجعل جبال الأوفرني AUVERGNE حداً آخر الى مدينة ليون . ويكون نهر الرون حده الشرقي الى خليج مرسيليا التى كانت في يده . وهنالك كان يقف في خط دفاع أوله من الشرق مدينة ليون وآخره من الغرب مدينة رويان ROYAN . وبذلك كان يتفرغ لتنظيم البلاد التى افتتحها ويقسمها بين الفاتحين فيشغل كل قبيل منهم بالدفاع عن ملكه . وربما كان عدوه يحسن سكوته على وقف هذا الهجوم الذي كاد يطير بالباب أوروبا هلعا . ويفتت من أحشائها جزعاً . وكان شارل مارتيل يرضي بأن يقبع في بيته ولا يلقى بنفسه في لهيب تلك المخاطر التى كانت تتجسم أمامه هاويتها . وبذلك كانت تصبح في يد العرب مملكة تبلغ الفاً ومائتى كيلو متر طولا في نحو نصفها عرضاً ، ليس فيها دخيل ينغص عليهم حياتهم بسعاياته أو عدو يهدم كيانهم بخياناته .

ولقد أحدث انكسار العرب في فرنسا قيام الثورات الداخلية في اسبانيا الاسلامية . فكانت الحروب الاهلية مستمرة أحياناً بين المضرية واليمنية ، أو بين الشامية والمصرية أو بين البربر والمولدين . أو بين جملة عناصر منهم ضد آخرين . مما كان سبباً في الاضطراب العام في الاندلس فقتل فيه آلاف من المسلمين وغير واحد من امرائهم .

وقد ساعد على تأجج نيران هذه الثورات ضعف الخلافة الأموية في الشرق ثم سقوطها بين يدى العباسيين ، بعد واقعة الزاب التى انتصرت فيها المسودة على جيوش مروان الثاني سنة ١٣٢ هـ . وهنالك أمعن السفاح أول خلفائهم في تقتيل الأمويين . فهرب منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن

عبد الملك حتى دخل الاندلس في سنة ١٣٨ . وكان عاملها من قبل العباسيين عبد الرحمن الفهري وكان من المضرية ، وهو الامير العشرون من يوم دخل العرب اسبانيا . وفي أول ولايته اختلفت اليمنية مع المضرية على الولاية ثم اتفقوا على أن يكون من المضرية أمير لسنة ومن اليمنية أمير لسنة أخرى . فلما انتهت سنة المضرية لم يقبل الفهري النزول عن الولاية . وصادف ذلك ظهور عبد الرحمن الأموي فانتصرت له شيعة الأمويين مع اليمنية . وأنضم اليهم البربر من زناته لأنهم أخواله . وسار الى قرطبة واستولى عليها . ومن ثم أخذت أطراف البلاد تبايعه واحد بعد الآخر . وكان يثور عليه بعضها بتحريض الاسبانيين فكان يقضي على الثورة بهمة لا تعرف الملل . ثم انتصر على جيوش شارلمان التي حاربته مساعدة للعباسيين كما انتصر على الجيوش التي كانت تأتي لحربه من المغرب . وانتهى أمر البلاد كلها لطاعته . فشيد بها ملكا امويا جديداً وصل من أبهة السلطان وجلال المجد الى أرقى ماوصلت اليه العظمة الاسلامية ثروة وجاها وعلما وصناعة وزراعة وتجارة . ومن آثاره بقرطبة مسجدها العظيم وقصرها الفخم الذي لايزال قائماً تجاه المسجد . وكان يدعو اولا للمنصور العباسي الذي كان يسميه بصقر قريش ، حتى اذا توطد سلطانه قطع ذكره من الخطبة واستمر له الحكم المطلق في البلاد حتى توفي رحمه الله سنة ١٧٣ بعد أن عهد بالأمارة الى ولده هشام .

وكان هشام اميرا جليلا عادلا ذهب مذهب العمرين في سيرته فكان يسير في الطرقات ليسمع بنفسه مظالم الناس ويرسل بمن يثق به الى البلاد ليتعرف احوال عماله . وكان يأخذهم بما يقع منهم من ظلم او حيف . وهو الذي ادخل مذهب مالك الى الاندلس وكانوا على مذهب الاوزاعي . وكان يفسح لعلماء الدين في مجلسه . وزاد في المسجد الذي بناه ابوه وجدد بناء قنطرة الوادي الكبير . وكان رحمه الله ورعا تقيا رفيقا على الناس رحيما بهم شديدا على اعدائه ، ومات في سنة ١٨٨ هـ بعد ان اوصى بالخلافة الى ولده الحكم . وكان يحب الصيد ويميل الى شيء من اللهو ويجالس الشعراء والادباء والمغنين ويعمل لابهة



المقصورة بجامع قرطبه

الملك بكل وسائل البذخ فاكثر من المماليك الصقالبة ومن ربط الخيل المطهمة ، ومنع تدخل علماء الدين في حكومته ، فشنعوا عليه سيرته وكثرت الثورات بتحريضهم ، ووصل بعضهم له بان ساعدوا الاسبان على قيامهم ضده ، واثاروا عليه اهل قرطبة . ولكنه شمر عن ساعد الجد وقبض على كل ثورة بيد من حديد وما زال في عزة الملك وفخامة السلطان حتي مات سنة ٢٠٦ هـ وخلفه ابنه عبد الرحمن الاوسط بعهد منه . وكان لطيف الجانب عظيم الخلق ميالا للعلم والعلماء على اختلاف مذاهبهم وكانت ايامه خيرا على البلاد هدأت فيها الثورات الداخلية وزادت الموارد المالية . غير ان النور مانديين هاجموا اسبانيا في اواخر حكمه ونهبوا بعض البلاد التي في الشمال الغربي . وقامت بعض الثورات من النفاريين وزادت فتنهم في مدة ولده محمد ثم الظافر بن محمد وعبد الله بن محمد الذين حكموا من سنة ٢٣٨ الى سنة ٣٠٠ هـ . وكان يزيد في خطر ذلك كله تلك الاضطرابات الداخلية : وبالجملة فقد كانت البلاد في مدتهم كانها شعلة نار ان اطفئوها في جهة تاجج لهيبها في جهة اخرى حتى انهكت الحرب قوى الجند واستنفذت مالية البلاد .

ولما مات عبد الله تولى بعده حفيده عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الاوسط . وكان الناس يرقبون سقوط الاموية لقيام الثورة في كل جهة . واشتداد سعيرها خصوصا في جهة الشمال . فاخذ الناصر يعمل ليله ونهاره في تجهيز الجيوش وارسالها غربا وجنوبا لاطفاء فتنة العرب ، وشمالا لمحاربة النفاريين وهو في اثناء ذلك يدبر امور مملكته بعقل راجح وفكر ثاقب . وقد اقام في اطفاء نيران هذه الثورات والوقوف في وجه اعدائه من القوط والبشكنس وغيرهم نحو خمس عشرة سنة .

وهنا لك اسعفته المقادير باختلاف ملوك الاسبان واعلانهم الحرب بعضهم على بعض ، واقاموا في تيار هذه القطيعة مدة طويلة ، انطفأت فيها جميع الثورات الداخلية في الاندلس بحسن سياسة الناصر وتمشت الطمأنينة بين جميع العناصر الاسلامية وحينئذ اخذ الناصر في ترتيب داخلية بلاده وفي تنظيم جيوشه البرية

والبحرية وما يقتضيه ذلك من زيادة الاسطول وتقويته ، ومن ابتداع الانظمة التي ترقت بها مملكته في جميع مرافقها وظهرت بها مواهبه للناس من اقصي البلاد الى اقصاها . فثبتت محبة الناس له لعدله وفضله وكرمه وعلمه وشجاعته وسياسته ، ووقعت هيبته من قلوبهم ليقظته وحزمه ، ولما كان فيه من المزايا التى اتصف بها حكمه بانه الحكم الذهبي للعرب فى الاندلس .

ولما بلغ الناصر في سنة ٣١٧ ه أن مؤنس الخادم قتل الخليفة المقتدر بالله العباسي بالمشرق لم يضع هذه الفرصة : فاعلن خلافته في الاندلس بمنشور ارسله الى جميع الجهات (١) وتسمى بامير المؤمنين وضربت السكة باسمه وخطب له على منابر البلاد بهذا اللقب الجديد الذي بقي في خلفائه الى سقوط الاموية فى الاندلس .

وفي سنة ٣٢٥ ابتدأ فى بناية الزهراء ولما تمت جعلها مركزا للخلافة وجر اليها الماء من جبال قرطبة فى اقنية من البناء مرفوعة على حنايا تختلف ارتفاعا وانخفاضا حسب طبيعة الارض (وترى شكلها بالقاهرة بين النيل والقلعة من عمل محمد علي ويسمونها العيون) .

وكان لعبد الرحمن من جلال الملك وعظيم السلطان وهيبة الذات وسامي الصفات مازاد فى ابهة الخلافة وفخامتها : فامتدت اليه ايدي الملوك شرقا وغربا طلبا لقرباه . ووفدت عليه ملوك قشتالة واراغون وليون التماسا لرضاه . وقدموا

---

(١) منشور الخلافة

اما بعد فانا احق من استوفي حقه . واجدر من استكمل حظه . ولبس من كرامة الله ما ألبسه . للذي فضلنا به . واظهر اثرتنا فيه . ورفع سلطاننا اليه . ويسر على ايدينا دركه . وسهل بدولتنا مرامه . وللذي اشاد في الآفاق من ذكرنا . وعلو امرنا . واعلن من رجاء العالمين بنا . واعان من انحرافهم الينا . واستبشارهم بدولتنا . والحمد لله ولي الانعام بما انعم به . واهل الفضل بما تفضل علينا فيه . وقد رأينا ان تكون الدعوة لنا بامير المؤمنين . وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك . اذ كل مدعو بهذا الاسم منتحل له ودخيل فيه . ومتسم بما لايستحقه . وعلمنا ان التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق اضعناه . واسم ثابت اسقطناه . فأمر الخطيب بموضعك ان يقول به . واجر مخاطبتك لنا عليه ان شاء الله . والله المستعان .

اليه طاعتهم وتبعيتهم وهاداه ملوك القسطنطينية ومصر وارسلوا اليه وفودهم ليوثقوا له دعائم محبتهم ومتين صلتهم .

وأرسل اليه قسطنطين كتابا رقيقا يوثق به علاقته معه ويستفزه فيه الى حرب العباسيين حتي يسترد منهم ملك آبائه : وغرضه بذلك أن يضرب المسلمين بعضهم ببعض حتي يضعفهم بسلاحهم ويقوى هو بضعفهم ويكون في أمن منهم جميعاً . ولكن دسيسته لم تجز على الناصر. بل أرسل اليه هدية نظير هديته مع سفير خاص . وبعد ثلاثين سنة من حكمه ظهرت معالم الثروة في جميع طبقات البلاد . وكان دخل المملكة في هذه الآونة حسب ماأجمعت عليه التواريخ العربية المعتبرة ما نكتفي منه بذكر ماجاء في تاريخ ابن خلدون قال :

«خلف الناصر في بيوت الأموال خمسة آلاف الف الف الف — مكررة ثلاث مرات (١) .ثم قال: وقال غير واحد أنه كان يقسم الجباية اثلاثا : ثلثا للجند. وثلثا للبناء . وثلثا مدخرا . وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف الف وأربعمائة الف وثمانية آلاف دينار . ومن السوق والمستخلص سبعمائة الف وخمسة وستين الف دينار . وأما الاخماس والغنائم العظيمة فلايحصيها ديوان »

وكان الناصر عالمًا فاضلا عاقلا بعيد النظر في السياسة والرياسة شجاعاً

---

(١) لم يذكر ابن خلدون أكان ماتركه الناصر من الدنانير ام من الدراهم (وان كان غيره قيدها بالدينار) . فاذا كان من الدنانير وقد يقدرون الدينار بنصف الجنيه المصرى الحالي فيكون ماتركه الناصر في خزائن الاموال الفين وخمسمائة مليار من الجنيهات المصرية . واذا كان من الدراهم وكان الدينار في القرن الرابع الهجري يساوي تقريبا ١٧ درهما فيكون ما تركه الناصر نحو ثلثمائة مليار من الجنيهات . وهو في كلتا الحالتين لايتصوره العقل واظن ان هناك الفا مكررة وان ما اراد ابن خلدون ان يقوله هو :

٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٥ فاذا كانت من الدنانير فيكون ما خلفه الناصر مليارين ونصف مليار من الجنيهات المصرية وان كانت من الدراهم فيكون ماتركه ثلثمائة مليون جنيه وهو ما يمكن للعقل ان يتصوره .

غير ان من يطلع على ماذكره ابن خلدون وغيره من وصف هدية ابن شهيد الى الناصر وكان من وزرائه مما يدل على عظيم ثروة الرجل يرى ان ثروة الدولة على هذا القياس ربما

ناهضاً برقي أمته ساهراً على شؤون دولته وكان كاتباً شاعراً كبير الهمة عظيما في نفسه كبيراً في كرمه ومن قوله :

ما كل شيء فقدت الا عوضني الله عنه شيا
اني اذا مامنعت خيري تباعد الخير من يديا
من كان لي نعمة عليه فانها نعمة عليا

وهذا لعمري أرقى درجات الكرم والشجاعة .وقد وجد بخطه أن أيام سروره كانت أربعة عشر يوما وهي يوم كذا من سنة كذا ويوم كذا من سنة كذا .الخ. وتوفي الناصر رحمه الله سنة ٣٥٠ هـ بعد أن حكم خمسين سنة وطد فيها دعائم الخلافة لولده الحكم الذي تولى بعده بعهده اليه . فثارت عليه ملوك النصرانية لاول حكمه فحاربهم بنفسه واستولى على بعض بلادهم ، فطلبوا صلحه على ما كانوا عليه مدة والده . ثم أرسل جيوشه الى نواح كثيرة شمالا وغربا ففتحوا مدنا كثيرة منها قلمرية من بلاد البشكنس وأرسل أسطوله بقيادة أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس الى مياه البرتغال فطرد النورمان الذين كانوا يهددون السواحل . وأجاز جيوشه الى العدوة فنزل له الادارسة عن ملكهم فيها وفي الريف.

بلغت الحد الذي ذكره المؤرخون العرب ونحن نتخيل انهم مبالغون فيها . واليك بعض ماجاء في هذه الهدية :

٥٠٠ الف منقال من الذهب . وما قيمته خمسمائة الف دينار من سبائك الفضة . و ٤٠٠ رطل من التبر . و ٤٠٠ رطل من العود العالي (لعلها القاقلي) . ومائة اوقية من المسك . ومائتا اوقية من العنبر . وثلثمائة اوقية من الكافور . وثلاثون شقة من الحرير المرقوم بالذهب كلباس الخلفاء . ومائة جلد سمور . و ٤٨ من الملاحف لكسوة الخيل من الحرير والذهب . وقرية تغل آلافا من امداد الزرع . ومن الصخر للبنيان ما انفق عليه في عام واحد ثمانون الف دينار (ولعل ذلك ايام اشتغال الناصر ببناية الزهراء) . وعشرون الف عود من الخشب قيمتها خمسون الف دينار وغير ذلك من السرادقات والابسطة المختلفة الالوان والسلاح والنبال والخيل المطهمة والبغال والوصائف والمماليك والجواري الى آخر ماقالوا ؟ وكانت هذه الهدية سببا لابلاغ الناصر رزق ابن شهيد الى ٨٠ الف دينار في السنة ؟

وقد قدر المؤرخ نيكلسون ايرادات الاندلس مدة الناصر بمبلغ ٦٢٤٥٠٠٠ وقدر ماكان في بيت المال سنة ٩٥١ م بعشرين مليون جنيه .

وكان الحكم يميل الى السلم حتى يتفرغ لنشر المعارف والعلوم المختلفة بين أمته . وكان يرسل الى جميع البلاد شرقا وغربا لشراء الكتب النادرة بأثمان عالية حتى جمع منها مبلغاً عظيما ، وكون مكتبته الشهيرة التي كان بها ٤٠٠ الف مجلد من ثمين الكتب ، وكانت على أغلبها تعليقات بخطه . ورتب لها الخدم والمغيرين تحت أمرة مولاه تليد الخصي. وكانت لخزانة دواوينه وحدها أربع وأربعون فهرسة . وفي كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها الا اسماء الدواوين . وأقام الحكم للعلم والعلماء سوقا نافقة جلبت اليها بضاعته من كل قطر . واستمرت هذه المكتبة ينتفع بها الناس عامة الى أن تبددت وبيعت بأرخص الأثمان مدة الفتنة زمن هشام المؤيد بأمر الحاجب واضح مولي المنصور بن أبي عامر .

وكان الحكم عالمًا فاضلا بل كان أعلم بني أمية على الاطلاق لأن والده استحضر لتثقيفه جلة العلماء من الشرق والغرب ومنهم أبو على القالي . وكانت كل لذته في مطالعاته ومذا كراته مع العلماء في مختلف العلوم . وفي مدته نفقت سوق العلم والعلماء الذين أصبحوا مشمولين باحسانه وفي حمايته وتحت رعايته ، فظهرت آثارهم في كل علم ، وترجمت كتبهم الى الاسبانية أو اللاطينية : وكان كثير من أهل البلاد المسلمين واليهود على علم تام بهما . فينقلون العلوم الاجنبية الى العربية . كما كان كثير من القوط وغيرهم يعرفون لغة العرب لضرورة علاقتهم بالدولة العربية في محرراتهم ومعاهداتهم وسفاراتهم وغير ذلك ، فكانوا يترجمون الكتب العربية الى لغاتهم . ومن هنا انتشرت مدنية المسلمين وعلومهم فى ممالك الفرنجة فاستفادوا منها كل الفائدة . وجعلوها مصدراً أخذوا عنه علومهم المختلفة من رياضية وفلسفية وزراعية وفلكية وطبية وكيميائية . وبالجملة فالدولة الاندلسية العربية كانت واسطة في نقل علوم العرب من شرقية وغربية الى أوروبا فبنوا من مادتها شيئا كثيراً من علومهم ومدنيتهم الحالية . ولولا ذلك لكانت أوروبا متأخرة بمئات من السنين عن الدرجة العلمية التى وصلت اليها الآن .

وما زال الحكم فى ابهة الخلافة وجلالها تتقرب الملوك اليه بالهدايا والسفارة من كل جهة حتى مات سنة ٣٦٦ بعلة الفالج . وكان الامر من بعده لاخيه المغيرة فعمل وزيره المصحفى بتدبير الحاجب ابن ابي عامر على الفتك به من ليلته . وبذلك خلا الجو لهشام بن الحكم من السيدة صبح البشكنسية التي كان لها الفضل فى ترقية ابن ابي عامر وحظوته عند الحكم حتي وصل الى درجة الوزارة . واجتهد ابن ابي عامر فى أخذ البيعة له وهو لم يتجاوز سن العاشرة . واصبح يعمل باسمه في رسوم الخلافة . وباستشارة والدته تضى على جميع مناويئه وحاسديه من رجالات الدولة . وكان بدهائه يقتل بعضهم بسلاح بعض . حتى اصبح صاحب الحول والطول والكلمة النافذة . وهنا لك استبد بالسلطة وحجر على المؤيد فى قصره بحيث لا يراه احد . وأخذ يكوّن لنفسه عصبية من جند البربر والصقالبة وغيرهم . وكان يقطع الالسنة عنه بكرمه وحسن ادارته وجميل سياسته . وتسمى بالمنصور وامر بان يحيى بتحية الملوك . وقد كثرت غزواته بحيث بلغت سبعا وخمسين غزوة وكان يقودها بنفسه . ويعود منها منتصرا غانما فيفيض على الناس مما افاء الله عليه فيأسرهم باحسانه . وكان المنصور نصيراً للعلم محبا للعلماء . وكان يفسح لهم فى مجلسه . وكان له يوم في الاسبوع للاجتماع بهم للمذاكرة في مختلف العلوم . بل كان يستصحب الكثيرين منهم في غزواته ويستأنس برأيهم . فكانوا يذيعون عنه دينه وورعه وعدله وفيضه وبره ويتحدثون عنه بكل محمدة . ومن دهائه انه أمر سامحه الله بحرق بعض كتب الفلسفة تقربا للعامة . وكان ذلك يزيد في سلطانه ويؤكد من محبته في قلوب الناس .

وبني المنصور الجهة الشمالية من الجامع الاموي بقرطبة . ثم قنطرة على الوادي الكبير وأخرى على نهر شنيل . وبنى قصر الزاهرة وجعله محل سطانه وحكمه بعد ان جعله من الفخامة والجلالة بما لا نظير له . ووصلت جيوشه الى قلب المغرب الاقصى بقيادة ولده عبد الملك وخطب له على منابره .

وبالجملة فقد كان المنصور بن ابي عامر من اكبر ملوك الاندلس سلطانا وعلما

وفضلا واحسانا وله فى سياسته القدح المعلى وفي أدارته المثل الاعلى . وكان الناس يتحدثون في جميع الجهات بما كان له من جميل النعوت وعظيم الصفات وبعد النظر وثاقب الفكر وكان كاتبا شاعراً بليغاً ومن قوله .

رميت بنفسي هول كل عظيمة　　وخاطرت والحر الكريم يخاطر

وما صاحبي الا جنان مشيع　　واسمر خطي وابيض باتر

فسدت بنفسي أهل كل سيادة　　وفاخرت حتى لم أجد من يفاخر

وما زال المنصور في ابهة الملك وعظيم السلطان حتي مات رحمه الله في غزوة من غزواته سنة ٣٩٢ ه ودفن في مدينة سالم : وهي مدينة على الطريق الحديدي بين مجريط وسرقوسه وكتب على قبره :

آثاره تنبيك عن وصفه　　حتي كأنك بالعيان تراه

تالله لا يأتي الزمان بمثله　　أبداً ولا يحمي الثغور سواه

وقام بأمر الحجابة بعده ولده عبد الملك بعهده اليه . فسار على سيرة أبيه من الحجر على المؤيد واستبداده بأمور الملك وكان شهما كبير الهمة عظيم الهيبة ومات بعد سبع سنين من حكمه ، كانت كلها خيراً وبركة وغزوات موفقة.

وخلفه أخوه عبدالرحمن بن محمد بن ابي عامر ، فشدد في الحجر على المؤيد ، وأرسل اليه من هدده في حياته حتى كتب اليه عهده بالخلافة من بعده، واشهد على ذلك رجالات الدولة . فاغضب ذلك بقية الامويين من أحفاد الناصر ، وأثار عوامل الحقد في قلوب المضرية ومن كان من شيعتهم ، فقاموا بالثورة وبايعوا محمد بن عبد الجبار بن الناصر . ولقبوه بالمهدي . وكان عبد الرحمن بن أبي عامر في غزوة له فلما سمع بالخبر عاد ادراجه فانصرف عنه الناس لسوء سيرته وقتله بعضهم وذهب برأسه الى المهدي : وبه طويت صحيفة آل بنى عامر . ومن هذا الوقت اشتعلت نار الفتنة في الاندلس ، وأصبحت الخلافة محل وثوب كل من استأنس بحق فيها من بقية الامويين وبني حمود حتى انتهى امرها الى هشام بن محمد الملقب بالمعتمد وكان ضعيفاً فخلعه الجند في سنة ٤٢٢ ، ففر الى لاردة

وهلك فيها سنة ٤٢٨.وبه انقضى أمر الاموية من الغرب كما قضى عليها في الشرق. وبالجملة فقد كانت بلاد الاندلس كلها فوضى من سنة ٤٠٠ الى سنة ٤٢٣ ه .

ولقد تولى الخلافة في هذه المدة اليسيرة من الامويين ستة هم : المهدي ، والمستعين ، والمرتضى ، والمستظهر، والمستكفي ، والمعتمد . وتولاها من بنى حمود في هذه المدة ثلاثة :على ، والقاسم ، ويحيي . وانتهى امر البلاد الى تفرق الجماعة وانقسامها الى ملوك الطوائف. وكان نفر من بني حمود لايزالون يتقاتلون على الخلافة الى سنة ٤٦٠ . وربما كان منهم اربعة يحكمون في منطقة صغيرة لاتزيد على ثلاثين فرسخا كلهم يحمل لقب الخلافة ومنهم الواثق ، والمتأيد ، والمهدي ، والمستعلي ، حتى قال فى ذلك ابن شرف ابياته المشهورة :

مما يزهدني في ارض اندلس　　القاب معتصم فيها ومعتضد
القاب مملكة فى غير موضعها　　كالهر يحكى انتفاخا صورة الاسد

وفي اثناء هذه الفتنة هدم الثائرون قصور الخلافة بما فيها الزهراء والزاهرة، ونهبوا ما فيها من الاموال والتحف التي لايمكن تقديرها . بل ولا تصورها الا لمن قرأ وقال مؤرخو العرب عنها من الحقائق التى هي اشبه شيء بالقصص منها بالتاريخ . وانتهت هذه الفتنة بمحو الخلافة وبتقسيم البلاد بين ملوك الطوائف .

وكانت قرطبة كالكرة يتلقفها كل غالب ثم آلت الى حكم ابن جهور حينما انقسمت الاندلس الى ملوك الطوائف وما زالوا بها ولم يتعدوا لقب الوزارة حتى غلبهم عليها المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية . وآل امر ملوك الطوائف الى أن كانوا يدفعون الجزية لملوك الاسبان خوفا منهم على مافى ايديهم . وكلهم كان يخطب ود ابن عباد ويطلب مرضاته لقوته ومنعته . ولم يطل ملكهم حتى تغلب عليه المرابطون في سنة ٤٨١ ثم الموحدون سنة ٥٣٩ . وفي اواخر حكمهم اخذ ملوك الاسبان يستولون على اطراف البلاد ونواحيها ، حتى لم يبق للعرب غير غرناطة التي بقيت في يد بني الاحمر الى آخر القرن التاسع الهجري، ثم آل امرهم الى أن طردهم الاسبان من الاندلس مما تراه مفصلا فى مكان آخر .

الرسالة الرابعة

من قرطبة الى اشبيلية

المسافة بين هاتين المدينتين ١٣١ كيلو مترا يقطعها القطار فى أكثر من أربع ساعات في طريق عامرة بالمزارع الواسعة يتخللها بعض خلجان الماء ويسمونها مما يلي قرطبة بالمرج . وتكثر في هذا الطريق القرى الكبيرة . ورغم كل هذا فالحر شديد، حتى اذا وصلت الى اشبيلية وجدته أشد ولا يكاد يحتمل خصوصاً من الظهر الى مابعد غروب الشمس .

اشبيلية

والعرب تسميها حمص تشبها بحمص الشرقية في عمرانها وحضارتها وكانت في مدتهم احسن مدنهم عمرانا وثروة وعلما وصناعة خصوصا في مدة ابن عباد : فقد كانت فى زمنه عروس المدائن الاندلسية والشمس التي تنبعث منها اشعة العظمة والثروة والفخامة الى جزيرتها . وبالجملة فقد كانت اشبيلية مدة ملوك الطوايف اوسع بلادهم ملكا واكبرها قوة . وهي الآن مدينة عظيمة جدا بل هي احسن مدينة في جنوب اسبانيا بعد مدريد، وعدد سكانها ١٥٠ الف نفس، وهو اقل من نصف عددهم مدة العرب . ويغلب الشكل العربي في كثير من مبانيها الا انها خالية فى الغالب من الرياض الصغيرة التى تجدها بحالة عامة في بيوت قرطبة . وقد دخل على شكل بعض ابنيتها شيء كثير او قليل من الرسوم الافرنكية . وعلى كل حال فهي مدينة لاتزال عربية الى الآن والى الغد . لانهم لو رأوا أن هذا الشكل غير مناسب لوضع المدينة ولكثرة حرارتها لاستبدلوه من زمن بعيد بغيره كما ترى في مدريد وبرشلونه .

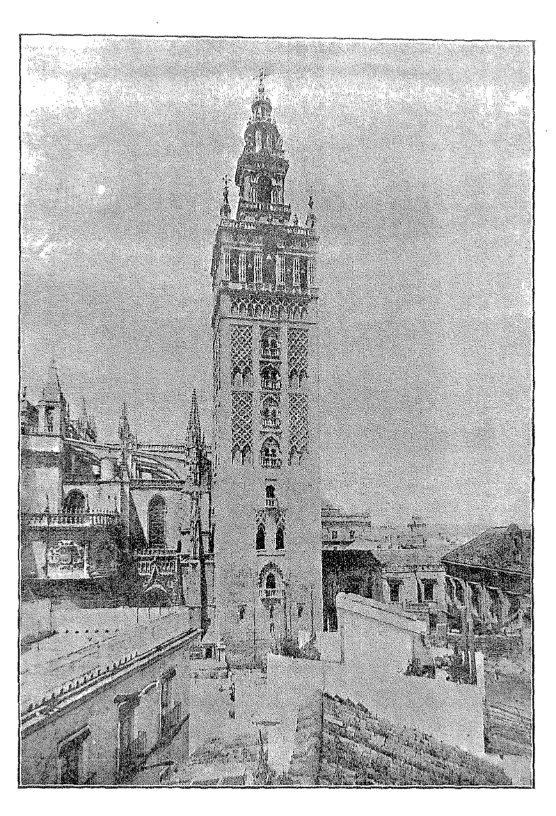
وهناك قسم من اقسام اشبيلية لايزال على ما كان عليه مدة العرب، وشوارعه

ضيقة جدا لاتسع غير عربة واحدة تسير فيه وان قابلتها عربة اخرى فاحداهما لابد ان تتقهقر حتى تجد الثانية مخلصا للمرور . وقد قررت بلدية المدينة الاحتفاظ بهذا القسم على حاله والامتناع عن ادخال اي اصلاح عليه ابقاء على صورة اصلية للنظام العربي القديم . وفى هذا القسم دار بنتها الجمعية الاسبانية الامريكانية على النظام العربي وجعلوها مزارا للسياح : والحق انها جميلة جدا في نظامها وان لم يكن فيها شيء من الفن .

وشوارع المدينة بوجه عام ضيقة وكثيراً ماترى في اعلاها مظلات من قماش القلوع لتحجب الشمس عن ارض الشارع وعن الدكاكين التى فيه . وترى المحلات التجارية منتشرة هنا وهناك في شوارع المدينة ، وبعضها منعت العربات من المرور فيه كما هو الحال في الخان الخليلي بالقاهرة. واحسن هذه الشوارع وأكثرها حركة هى التي تتصل بميدان القديس فرديناند : وهو ميدان لابأس به زرعت على محيطه الأشجار وفيه أكبر لوكندات المدينة . ويقرب من هذا الميدان الكاتدرائية : وهى الكنيسة الجامعة التي بنيت مكان المسجد الجامع الذي كان بهذه المدينة قبل استيلاء سان فرديناند عليها في سنة ١٢٤٨م. ويقرب من هذه الكنيسة القصر (الكازار) وهو من أفخم مايرى الراءون، وبطبيعة الحال كان المسجد يتناسب معه فخامة ورواء . ولم يبق منه غير صحنه ومنارته .

وقد لجأت الى هذه الكنيسة من شدة الحر . وقديما كان الناس يلجأون الى بيوت العبادة . فدخلت من بابها الغربي الى صحن واسع في وسطه فسقية من الرخام كانت للوضوء . وهذا الباب على شكل باب مسجد قرطبة النحاسي الكبير لولا أن قطعه النحاسية القائمة مكتوب فيها بالعربي لفظ الجلالة باوضاع مختلفة .

وفى زاوية الصحن الشرقية مما يتصل بالكنيسة تلك المنارة العظيمة التى يسمونها الآن (LA TOUR DE GIRALDA) وترجمتها منارة لعبة الهواء . وهذه المنارة بنيت على شكل منارة مسجد الكتبية بمراكش (أو أن



« لاجيرالدا » وهي منارة المسجد الجامع باشبيليه الذى جعلوه كنيسة

منارة مسجد الكتبية بنيت على شكلها وهو الاصح) . وأمر ببنائهما السلطان المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن من الموحدين (وهو الرابع من ملوكهم) فى أواخر القرن الثاني عشر الميلادي . وكان فى اعلاها أربع تفافيح كبيرة من النحاس غلفت بطبقة من الذهب بلغت نفقاتها وحدها أكثر من مائة الف دينار . فأزال القوم هذه التفاقيح بعد استيلائهم علي المدينة وبنوا مكانها على الدائرة التي كان يدور عليها المؤذن ابراجا للنواقيس وضعوا فوقها تمثالا ارتفاعه أربعة أمتار وزنته ١٢٨٨ كيلوا غرام ، بحال يتحرك فيها مع الرياح حيث سارت ومنها أتت تسميتها بلفظجيرالدا . (لعبة الهواء) وهذه المنارة مربعة الشكل وكل ضلع من أضلاعها من جهة القاعدة طوله ١٣،٦٠ مترا وبناؤها من الطوب الاحمر وسمك حوائطها ٢،٥٠ متر . وفيها الى اعلاها كثير من الفتحات التى تسمح بنفاذ الهواء والنور الى داخلها . وارتفاعها ٧٠ مترا ، وهو مابقى من عمل العرب فيها . ويصعد الى قمة المنارة بطريق مائل فى محيطها من الداخل يسع فارسين يسيران أحدهما بجانب الآخر ، وترى من أعلاها منظرا جميلا جداً المدينة . وقد تثبت فى سقف دائر الصحن مما يلي المنارة قبالة باب الكنيسة الداخلي تمساح (يقال أنه هدية من ملوك مصر) ، وسن فيل كبير ، وعصا ، ولجام : ويقولون أن التمساح رمز للتروي ؟ والسن للقوة . والعصا للعدالة . واللجام للوازع النفساني الذي يقف بصاحبه عند حده : وهى ان كانت ذات مغزى جميل لكننى لم أفهم معنى لوضعها هنا .

دخلت الكنيسة الجامعة التى بنيت مكان الجامع الذي يمكنك تقدير فخامته من شكل منارته ومما كانت عليه فى أول وضعها . وأول ماصادفني مصلي الى جانب المنارة فى صدره ناووس القديس فرديناند ، وهو من الفضة الخالصة وفيه نقوش جميلة جداً ، وفى وسطه من جانبه الظاهر دائرة من الذهب شكلها بيضاوي نقشت فيها صورة فرديناند على حصانه وأمامه ملك العرب يقدم اليه مفاتيح المدينة !! والى جانب هذا المصلي من اليمين قبر زوجته

والى اليسار قبر ابنته التى ينسب اليها هدم المسجد وبناء هذه الكنيسة مكانه . وبجوار هذا المصلي غرفة وضعت فيها جواهر الملك وتاجه وسيفه . وفى جانب آخر من هذه الكنيسة قبر كرستوف كولومب الذي كان مصدر حياة اسبانيا التجارية وعظمتها الاستعمارية : وعلى قبره الرخامي أربعة تماثيل كبيرة من المرمر تحمل نعشه الرخامي على قدره الطبيعي : وهي تماثيل ملوك الممالك الاربع التى تكونت منها الوحدة الاسبانية وهم : ملك قشتيله وملك اراغون وملك ليون وملك نافاريا . ولم يدهشني ان هذه الملوك تحمل نعش هذا الرجل البسيط الذي كان على يده ظهور هذا العالم الجديد (امريكا) ، وأصبحت احدى دوله المتحدة وبين شفتيها كلمة اسعاد دول العالم واشقائها . وقد تم لها الآن دور الظهور على جميع الامم بما لها من ثروة واسعة وجاه عريض وقوة هي قوة المال والعلم والاختراع : وذلك ببركة مافي بلادها من المواد الاولية من ذهب وفضة وحديد ونحاس وقصدير وفحم وبترول وغير ذلك ولا أدري اذا كانت امريكا تقدر لهذا الرجل العظيم قدره وتخلد ذكره .

وعلى كل حال فهذه الكنيسة غاية فى الفخامة ولا بد ان يكون القوم ازالو المسجد مع جلالته وعظيم فخامته ، حتي يقضوا على كل فكرة تحوم حول رجوع المدينة الى المسلمين : مما ترى فيه التعصب الديني ممثلا كل التمثيل . على ان مسجدا فخما كهذا لو بقى لكان فيه فائدة كبيرة للعلم والفن والتاريخ : كما هو شأن مسجد قرطبة الذي رجعوا فيه الآن الى غسل الاغلاط التي ارتكبوها في ستر نقوشه وتغيير بعض معالمه .

وهنا اقول ان تحويل الكنائس الى مساجد او المساجد الى كنائس يجرح قلوب المغلوبين بما تبقى اثرة التحامه طول الدهر ، وتنتقل من الآباء الى الابناء ومن الاجداد الى الاحفاد . واصل مصائب الدولة العثمانية وتحرش نصارى اوربا بها هو تحويلها كنيسة اياصوفيا الى مسجد . واذا كانت المساجد كلها لله والدين كله لله فخير للناس ان يتركوا للناس حريتهم في تعبدهم . والانكليز لم ينجحوا

فى استعمارهم الا باتباعهم هذه الطريقة واحترامهم لعقائد المستعمرين : على ان لهم فى مصر زلة لايريد الشعب ان ينساها وهى اطلاقهم الرصاص على الازهر وقت الفتنة كما انه لايريد ان ينسى لنابليون بونابرت ربطه الخيل في صحن الازهر على اثر ثورتهم على الفرنسانيين ايام احتلالهم لمصر .

الكازار

الكازار او القصر هو بناء كبير يدخل اليه من صالة واسعة مسقوفة في وسطها صفان من اعمدة الرخام وليس فيها شيء من الزخرفة ولا من الفن ، وتنتهي من اليمين الى دهليز يوصل الى باب في يمينه ،له حوش فيه بحيرة صغيرة من الرخام تحيط بها زهرية جميلة . ومن دونها قاعة عالية مربعة الشكل كل ضلع منها عشرة امتار وارتفاعها نحو ١٥ مترا قامت عليها قبة من الخشب الجميل الصنع . وحوائطها منقوشة من اعلاها بنقوش جصية ، فيها مقرنصات جميلة مختلفة الشكل . وفي اعلاها مناور متصلة بالجو مباشرة للنور والتهوية ، في كل جهة ثلاثة مناور . وفى ظني أن هذه القاعة كانت مكان انتظار الزوار .

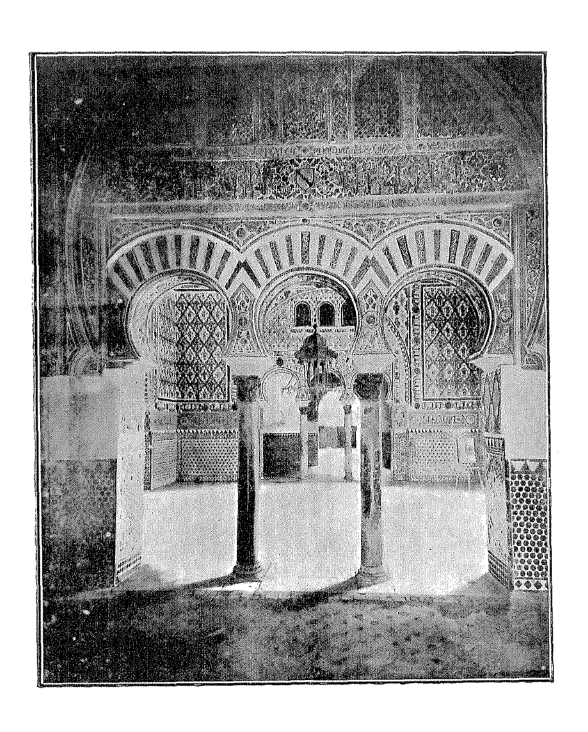
وينتهي ذلك الدهليز بباب الى حوش كبير ، ومن جهته اليسرى باب عظيم من الخشب البديع الصنع يبلغ ارتفاعه نحو ٨ أمتار . ووجهة هذا المدخل تبلغ ١٥ متر طولا في ٢٥ مترا ارتفاعاً وكلها بالنقوش الجصية الجميلة ، تتخللها الادهان المختلفة وقد وشيت بالذهب مما جعل لها منظراً هو نهاية الفخامة . وربما كانت هذه الوجهة فذة في بابها نادرة في مثالها .

ومن وراء هذا الباب صالة بديعة جداً فيها كثير من النقوش المختلفة وهى تفضي الى حوش تكتنفه ممشاة يحيط بها أربعون عموداً من الرخام تحمل حنايا يقوم عليها سقف الممشاة . وهنا ترى النقوش الغريبة في السقف وحوائط الحوش ، وتجد في أسفلها وزرة من القيشاني الجميل على ارتفاع نحو مترين . وفي هذا الحوش باب يؤدي الى قاعة الاستقبال .

وقاعة الاستقبال ويسمونها قاعة السفراء مربعة الشكل وارتفاعها نحو ٢٠ متراً وكل ضلع منهـا لا يقل عن ١٢ متراً قامت عليهـا قبة من الخشب البديع الصنع من تحتها مناور فى كل جهاتها ، ومن دونها ثلاث بلكونات متصلة بالدور العلوي من القصر ، وفي كل جهة من جهاتها ماعدا جهة الباب عمودان من المرمر يحملان مع الحائط الذي يليها مقصورة جميلة . ويحيط بهـذه القاعة خلف هـذه المقاصير بهو عظيم : والقاعة والقبة والابهاء الثلاثة آيات من آيات الله في جلالها وفخامتها وبديع صنعتها وجميل نقوشها الذهبية التي تتخللها الادهان الحمراء والزرقاء والخضراء : بما يقف امامها الانسان باهتا : فبينا يدهشك هذا الجدار بعظمته فيجذ بك الجدار الآخر بفخامته ، فيستهويك الثالث بكمال جماله ، فيستلفتك السقف ببديع مثاله . وبالجملة فليس في الامكان أن يتخيل الجنان أو يصور البيان مقدار مافى هذا المـكان من العظمة والفخامة .

وهذا القصر على الشكل الذي بناه عليه العرب خصوصا فى زمن ابن عباد ، لولا أن مساحته الآن على نصف ما كان عليه في مدتهم ، لانه كان يتصل بمنارة الذهب الموجودة على نهر الوادي الكبير ممايلى الجمرك وبينهما الآن مبان واسعة . وينسبون شيئاً من أبنيته الحالية الى الملك بترو الاول الملقب بالقاسي . ولـكنهم لم يحددوها لنا . وعلى كل حال فهذا الملك استقدم عمالا من العرب بنوا القسم الذي بناه في القصر أو قاموا بالاصلاح الذي أتمه فيه وذلك من سنة ١٣٥٠ الى سنة ١٣٧٠ م

وقد حدث فيه اصلاح وترميم أيضاً في زمن فرديناند وايزابلا . وفي سنة ١٦٢٤ اصلحه جميعه فليب السادس بواسطة فنانين من البقية التي بقيت في البلاد من العرب وكان نصيبهم بعد ذلك أن طردهم من أرض اسبانيا بحال شنيعة حتى تخلو البلاد من شيء اسمه عرب : وكان جزاؤهم جزاء سنمار بعد أن بني للنعمان قصر الخورنق . فلما رآه من العظمة بمكان أمر بيده فقطعت حتي لا يبنى مثله لغيره . ولـكنه عوضه عنها بأموال جمة حفظت حياته وحياة عائلته : وهـذا



قاعة السفراء باشبيلية

العمل وان كان قاسياً الا أنه عمل فردي وفيه شيء من العوض : أما عمل الاسبان فهو ضد أمة بتمامها دعا اليه التعصب الديني الذي لا يعرف شفقة ولا رحمة ! !

والجهة الاخرى من مدخل القصر تنتهي الى بستان عظيم جداً في نظامه وترتيبه : وبعضه عال وهو للزهور وفيه بحيرة واسعة من الرخام طولها ٢٠ متراً ، وعرضها ١٥ متراً ، وعمقها ٣ امتار : وكانت حمام الملك الخصوصي ويسمونها البركة .

أما البستان الواطىء فننزل اليه بعدة درجات رخامية وفيه من كل فاكهة زوجان . وبه باب في بناء القصر يوصل الى بحيرة بالخافقي في داخله طولها نحو ٥٠ متراً وعرضها نحو ٨ أمتار : وهي حمام النساء . وقد أخبرني مرشدي أنها كانت تستحم فيها مائة ثمانية مرة واحدة مدة ملوك العرب . ولكنه لم يقل كم كانت تستحم فيها من هذا الجنس اللطيف مدة ملوك الاسبان .

قصر بيلاتوس

بدأ بناء هذا القصر الدون بدرو سنة ١٤٩٢ واتمه ورثته في أزمان مختلفة وهو الآن يملكه واحد من هذه العائلة الشريفة ويدخل اليه بأجر زهيد .

ولقد كنت أود أن اكتب كلمة عن هذا القصر الفخم الذي وشيت جميع حوائطه الداخلية بالنقوش العربية ، وبرزت سقوفه في حلتها المختلفة الالوان والادهان بحسن صناعتها التي تدهش الابصار ، لولا سبق زيارتي للكازار الذي لم يبق بعده كلمة لقائل ولا وصف لواصف . على أني زرت في هذا القصر جملة قاعات وابهاء فيها من النقوش المختلفة مايدهش الابصار . لاسيما المكتب الخصوصي وقاعة الحكم : ولعلهم كانوا يقضون فيها على الناس ، أيام كانت الاحكام على الشعوب البائسة بين شفاه الامراء والرؤساء . وبالجملة فهذا القصر آية من آيات الصناعة والفن سواء في نقوش حوائطه أو سقوفه أو في القيشاني الثمين الذي يكسو حوائطه الى ارتفاع مترين تقريبا . هذا كله في طبقته

الارضية ، أما الطبقة العلوية فهي خاصة برب المنزل ولا يسمح بزيارتها لأحد .

وأهم شوارع المدينة من خارجها شارع البرادو وهو على نظام البرادو في مدريد تقريبا : ترى فيه كثيراً من القهاوي والمتنزهات التى يقصدها الناس فى المساء أيام الصيف على الخصوص لقضاء شطر من الليل هناك فى الهواء الخالص. وكثيراً ماترى العائلة منهم تجلس الى ناحية من المتنزه وتتناول عشاءها البسيط الذي أتت به معها . ومما أعجبني جداً أني أردت أن أدخل فيه قهوة جميلة مفتحة المنافذ من كل جهة وبها تمثيل سينما توغرافى ، فاعترضني الحارس بما فهمت منه أنها خاصة بالعائلات ولا يدخلها رجل بمفرده . فعدت وأنا معجب بهذا النوع من الحجاب الذي يحفظ به كيان العائلات من جميع آفات المدنية المطلقة والتى لاحد لها . وقد وجدت فى هذه الجهة التين الشوكي يباع مقشرا وهو ما انتقدته لتعرضه للتراب والذباب . ويظهر أن المسائل الصحية غير معتنى بها فى هذه البلاد : فقد رأيتهم يبيعون الفاكهة وكثيراً ماتكون عاطبة ومتعفنة . وقد شاهدت غير مرة الخيل تجر العربات مع عرجها وهزالها من غير شفقة ولا رحمة كما رأيت في الصحراء أكثر من مرة رجلين يركبان حمارا مهزولا يكاد ينوء بحملهما!!

وشارع البرادو ينتهي الى البارك وهو بستان عظيم كبير جميل التنسيق والتحديق . وفيه أشجار الفلفل والبرتقال والنارنج والنخل المختلف الأنواع مما لايثمر بهذه البلاد وان أثمر فلا يتم نضجه . ويكثر الرش في هذه المدينة وخصوصاً خارجها لانامة التراب وتقتل الحر الذي لايزال مستمراً الى الساعة العاشرة مساء.

وأهل هذه المدينة بصفة خاصة والاندلس بصفة عامة يستسلمون الى التشاؤم والتفاؤل واظنهما من ميراث العرب . وقد ترى فى أغلب البلكونات الجميلة جريدة من النخل على طولها لمنع تأثير العين . وهم يهتمون كثيرا باوراق اللوتوريات .

واشبيلية لها عيد فى الاسبوع المقدس من كل سنة فى (أبريل) ، فتجد سكان جميع الجهات المحيطة بها يقصدونها جماعات جماعات بملابس مخصوصة بيضاء فى الغالب ومزركشة بالمقصبات وغيرها من التطاريز الحريرية الكثيرة الالوان،

ويسيرون في الطريق بهيئة موا كب كبيرة حاملين صورة العذراء مجملة مذهبة وهم يرقصون ويتغنون ويلعبون حتى يصلوا الى الكاتدرائية (الكنيسة الكبرى) ، وتستمر هذه الحركة ثلاثة أيام . وفي هذه الاثناء ترى لهم اسواقا ينصبونها في هذا الفضاء الواسع الذي يكتنف البرادو من جميع اطرافه . وترى لهم في كل نقطة من هذه الجهة مسا كن من خشب أو خيم مختلفة الاشكال والاوضاع . وترى في هذه المنطقة هنا وهناك مغان ومراقص وأمكنة لمصارعة الثيران وتياترات وملاه مختلفة . والبراد هو المركز العمومي لترامواي المدينة .

ويقصد اشبيلية في ذلك الوقت آلاف الآلاف من سياح اوروبا وامريكا فتكتظ بهم المدينة الى درجة لا يتيسر معها للانسان المشي في شوارعها الا بكل مشقة . وهم يحجزون مكان مبيتهم او محل اقامتهم في اللوكندات او المسا كن قبل هذا الوقت بشهرين او اكثر . وهناك شركات تقوم بتجهيز كل ما فيه راحة السياح لهذه الزيارة في كل جهة من جهات اوروبا .

وبلدية المدينة تقيم الآن في معرض خارجها لسنة ١٩٢٨ ؛ وبينه وبين البارك خليج من نهر الوادي الكبير . وهذا المعرض على قسمين : قسم اسباني وهو آية في فخامته ، وشكله من جهة البارك نصف دائرة واسعة الاطراف آية في الجمال . ووجهتها كلها من الصناعة العربية البديعة المنقوشة بالذهب والالوان المختلفة والتي اخذوها من الاشكال العربية الموجودة في الكازار (القصر) وغيره . وتكثر الاعمدة الرخامية في مداخل المعرض من هذه الوجهة . كما تكثر صناعة الفسيفساء فيما يلي هذا القوس العظيم . اما اشغال القيشاني التي عملت منها القناطر التي على هذا الخليج من اراضيها وسلالمها ودربزيناتها فشيء من الابداع يحار فيه وصف الواصف . وقد قام على طرفي هذا القوس منارتان على شكل المآذن الاسلامية المربعة . وهذا القسم من داخله مقسم الى اقسام كثيرة للمعروضات .

اما القسم الثاني فامريكاني وهو مركب من جملة مبان منفصل بعضها عن بعض ، وهو ايضا من خارجه جميل المنظر وعلى النظام العربي .

ومن هذا ترى أن أثر هذه الصناعة البديعة لايزال في هذه البلاد بحال تشرح الخاطر وتسر الناظر . وهو من الدقة بحيث يجود فيه هذا الفن كل الاجاده .

للعبرة والتاريخ

لما دالت دولة الامويين والعامرين من قرطبة ، واقتسمت الاندلس ملوك الطوائف ، اخذوا يبنون لانفسهم وهم فى شباب دولهم مجدا أثيلا وذكراً جميلا بما كان لهم من علم وفضل وكرم . وكان في مقدمة بلادهم اشبيلية لما كان فيها من واسع العمران وناعم الحضارة وجليل الامارة في زمن بنى عباد الذين راجت سوق العلم والادب في دولتهم . لاسيما ايام المعتمد آخر ملوكهم فقد كان اوسعهم حرما ، واكبرهم همما ، واكثرهم كرما ، واعظمهم سلطانا .

ولقد كان بعواصم الاندلس منتديات علمية يتداولون فيها العلوم المختلفة ، وكان ملوكهم يعملون على نشرها في دوائر حكمهم . وكثيراً ما كانوا يحتفلون فى مجالسهم الخاصة بالعلم والعلماء ويفيضون عليهم من نعمتهم . فكان اعزازهم للعلم من اكبر الاسباب التى دعت الى نشره بين الناس على اختلاف طبقاتهم . لذلك كانت البلاد في مدتهم فياضة برجالات العلم خاصة بذوى الدراية والعرفان وخصوصا اشبيلية التى ظهر في افقها كثيرون ممن ذاع فضلهم وعلمهم فى المشرق والمغرب . وكانت ملوك الاندلس يستقدمون اكابر علماء المشرق ويعقدون لهم المجالس للمناظرة مع علماء بلادهم ويفيضون نعماءهم على المبرزين منهم . وكان اهل اشبيلية يشتغلون بالادب خاصتهم وعامتهم . وكانت لهم منتديات يتذاكرونه فيها . وكانت لهم متنزهات يخرجون اليها في وقت راحتهم من عملهم كما هو الحال فى البلاد المتمدنة الآن . وكانوا يتبادلون فيها كل ماراق لهم من الحديث من قديم وحديث :

ومن ذلك ان عبد الجليل بن وهبون الشاعر اعد نزهة لاصحابه بوادي اشبيلية اقاموا فيها يومهم حتى اذا دنت الشمس الى الغروب هب نسيم ضعيف غضن وجه الماء فقال مرتجلا :

حاكت الريح من الماء زرد —

ثم قال لاصحابه اجيزوا . فقال على بن رباح :

اي درع لقتال لو جمد

وهذا من ارق واحسن وابلغ ما اتت به البديهة .

ومن احسن بديهات العامة ان الوزير بن عمار مر على دكان قصاب فقال له

لحم سباط الخرفان مهزول —

فاجابه القصاب من فوره :

يقول للمفلسين منه زولوا

ومنها أن ابن عمار مر على دكان بن جامع الصباغ فاراد ان يعلم سرعة خاطره وكشف عن ساعده قائلا :

مابين زند وزند —

فقال الصباغ من فوره:

مابين وصل وصد

فعجب الوزير من حسن ارتجاله وكان هذا اول التنويه باسمه .

ومن هذا تعلم ان الأدب في الاندلس لم يكن محصوراً في المشتغلين بصناعته بل كاد يكون عاما بين الناس .

وهنا نذكر لك شيئا عن الخاصة في مجتمعاتهم : فقد صنع المعتمد بن عباد قسيا في القبة المعروفة بسعد السعود فوق المجلس المعروف بالزاهي فقال :

سعد السعود يتيه فوق الزاهي —

واستجاز الحاضرين فقال ولده الرشيد :

وكلاهما فى حسنه متناهي

ومن اغتدى سكنا لمثل محمد قد جل فى العليا عن الاشباه

مازال يبلغ فيهما ما شاءه ودهت عداه من الخطوب دواهي

وهذا لعمري من الطف البديهات واظرفها .

ومنها ان ابن ابي عامر خرج للنزهة بظاهر اشبيلية في جماعة من ندمائه ثم اخذ في المسابقة بالخيل . فجاء فرسه سابقاً الى شجرة تين اينعت وبرزت منها ثمرة . فسدد اليها عصاه فاصابتها وتثبتت على اعلاها . فالتفت الى من لحقه من اصحابه وقال اجيزوا :

كأنها فوق العصا —

فاجاب ابن جامع الصباغ من فوره :

هامة زنجي عصى

فطرب المعتمد لسرعة بديهته وامر له بجائزة سنية .

ومن هذا تعلم مقدار عناية امراء الاندلس فى مجالسهم بالعلم والادب وكيف كانوا رحمهم الله يشحذون القرائح بطلبهم للناس اجازة اقوالهم او تكليفهم بالكلام في شأن من الشؤن ، ويجيزون المبرزين فيها : ففشا العلم فى ديارهم وطلعت شموس الادب فى فلك بلادهم حتى شملت الصغير والكبير ، والنساء والرجال .

وقد كان كرم بني عباد يساعد على رقى العلم فى عمومه والشعر في خصوصه ، ولم يكن ذلك فى دائرة ملكهم فحسب ، بل كان يقصدهم الناس بمدائحهم من جميع الآفاق : فكانت اشبيلية في مدتهم كعبة القاصدين من المجيدين ، والسماء التي تطلع فيها دراري الافكار ، وشموس الابتكار .

واني اكتفي بان اقص عليك ماذكره الحافظ الحجاري في المسهب عن عبد الله بن ابراهيم الذي قال : قصدت المعتمد بن عباد وهو مع امير المسلمين يوسف بن تاشفين فى غزوته المشهورة للاسبان فرفعت له قصيدة منها :

لاروح الله سربا فى رحابهم   وان رموني بترويع وابعاد
ولا سقاهم على ما كان من عطش   الا ببعض ندى كف بن عباد
ذي المكرمات التي مازلت تسمعها   انس المقيم وفي الاسفار كالزاد
ياليت شعري ماذا يرتضيه لمن   ناداه ياموئلي في جحفل النادي

فلما انتهيت الى هذا البيت قال : أما ما ارتضيه لك فلست اقدر عليه في

هذا الوقت ، ولكن خذ ما ارتضي لك الزمان. وامر خادما له فاعطاني ما اعيش من فائدته الى الآن . وكنت ممن زاره فى سجنه باغمات . وحملتني شدة الحمية والامتعاض لما حل به ان كتبت على حائط سجنه متمثلا :

فان تسجنوا القسري لاتسجنوا اسمه   ولا تسجنوا معروفه في القبائل

ثم تفقدت الكتابة بعد ايام فوجدت تحت البيت — « لذلك سجناه » :

ومن يجعل الضرغام فى الصيد بازه   تصيده الضرغام فيما تصيدا

اما شعر المعتمد وبنيه فقد وصل الى مكانة عالية . وفى قلائد العقيان جملة صالحة منه ترى منها مقدار سمو كعبهم في الادب من شعر ونثر يصعد بهم الى مستوى اعاظم الشعراء والكتاب ، وتتعرف منه حالهم من الرفه ونعيم السلطان مدة حكمهم .

وكانت إشبيله مدة ابن عباد عاصمة العواصم الاندلسية . ومظهر المدنية الراقية . فكان فيها واسع الدور وعالي القصور وفى محلاتها العمومية التماثيل المرمرية كما هو الحال الآن فى البلاد المتمدنة . وفى بعضها يقول شاعرهم :

ودمية مرمر تذهو بجيد   تناهي فى التوردو البياض

لها ولد ولم تعرف حليلا   ولا ألمت باوجاع المخاض

وتعلم أنها حجر ولكن   تتيمنا بالحاظ مراض

وكانت اشبيله مشهورة بكثير من الصناعات وخصوصاً فى النسيج وعمل الاسلحة والسفن وحرف البناء التي اتسع بها عمرانها في مدة بنى عباد . وكانت ضواحيها كلها رياض رياحين وجنات أثمار ، تنساب فى نواحيها جداول الماء وتنعقد في ارجائها أندية السرور والهناء وهنا يجمل بنا أن نذكر لك كلمة عن تاريخ بنى عباد :

يتصل نسب بني عباد بالنعمان بن المنذر ملك الحيرة . وأول من نبغ منهم فى الاندلس هو محمد قاضي اشبيله جد المعتمد . وكان الناس يحبونه لفضله وعدله ولطفه وظرفه وأدبه وحسن سياسته . وآل أمره بأن انتخبه أهل البلاد

سلطانا عليهم لسوء سيرة المستعلي بن حمود ملك قرطبة ، وكانت اشبيلية تابعة له ، وتسمى بالظافر . ولم يزل باشبيلية حتى مات سنة ٤٣٣ هـ . وخلفه ابنه المعتضد بالله عباد . وقد جاء في بعض أوصافه في ابن خلكان ماملخصه : كان سبط البنان ثاقب الذهن حاضر الخاطر صادق الحديث وقد اعطته سجيته مشاء من تحبير الكلام وقرض الشعر الى أن قال: وأخبار المعتضد فى جميع افعاله وضروب انحائه غريبة بديعة ، وكان كلفا بالنساء فاستوسع في اتخاذهن ، وخلط في اجناسهن ، فانتهى في ذلك الى مدى لم يبلغه أحد من نظرائه .

ومن شعر المعتضد الذي يعطيك من شخصه صورة صادقة قوله .

شربنا وجفن الليل يغسل كحله ... بماء صباح والنسيم رقيق
معتقة كالتبر أما نجارها ... فضخم وأما جسمها فدقيق

ومن قوله سامحه الله :

وليل بسد النهر أنسا قطعته ... بذات ثوار مثل منعطف النهر
نضت بردها عن غصن بان منعم ... فياحسن ماانشق الكمام عن الزهر

وتوفى المعتضد سنة ٤٦١ هـ وقام بالملك بعده ولده المعتمد . وكان اندى ملوك الأندلس راحة وأرحبهم ساحة . وأعظمهم عمادا . وأرفعهم عمادا . ملقي الرحال . وقبلة الآمال . لم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء ما كان يجتمع ببابه . وكان المعتمد شاعراً مجيداً ومن شعره :

لولا عيون من الواشين ترمقني ... وما احاذره من قول حراس
لذرتكم لا أكافيكم بجفوتكم ... مشيا على الوجه أوسعيا على الراس

وجاء فى ابن خلكان أن المعتمد عزم على ارسال حظاياه من قرطبة الى اشبيلية فخرج معهن يشيعهن فسايرهن من أول الليل الى الصبح فودعهن ورجع وأنشد أبياتا من جملتها :

سايرتهم والليل أغفل ثوبه ... حتى تبدي للنواظر معلما
فوقفت ثم مودعا وتسلمت ... مني يد الاصباح تلك الأنجما

وعلى كل حال فاذا كان المعتمد أعطى لنفسه ماطاب لها من لذاتها وشهواتها فقد كان فيه من العقل والدهاء والكياسة والشجاعة وكبير الهمة وعظيم الصفات ماجعله أكبر ملوك الأندلس في وقته ملكا ، وأنفذهم رأيا ، وأعظمهم سلطانا . وكان قد خشى تدخل ابن تاشفين ملك المغرب في أمر الأندلس فوقف فى وجهه وانتهى أمره بأن وقع في أسره فى سنة ٤٨٦ . فارسله بن تاشفين الى اغمات وهى بلدة وراء مراكش بينهما مسافة يوم بالقافلة وهو مايقرب من خمسين كيلو متراً . ومما قال في قيده وهو فى محبسه بها .

قيدي اما تعلمني مسلماً أبيت أن تشفق أو ترحما

دمي شراب لك واللحم قد اكلته لاتهشم الا عظما

ومات المعتمد في محبسه سنة ٤٨٨ .وقد رثاه الشعراء بقصائد مطولات انشدوها على قبره ومنهم شاعره ابو بحر عبد الصمد رثاه بقصيدة طويلة قال في أولها :

ملك الملوك أسامع فأنادي أم قد عدتك عن السماع عوادي

لما نقلت عن القصور ولم تكن فيها كما قد كنت في الاعياد

اقبلت في هذا الثرى لك خاضعا وجعلت قبرك موضع الانشاد

وهذا لعمري أكبر شيء فى الوفاء والشجاعة وعظم النفس فرحم الله ابن عباد ورحم الله شاعره أبا بحر . واني لم أذكر لك ماذكرت الا للعبرة بصروف الزمان وتقلب الحدثان وسبحان من بيده الامر يعز من يشاء ويذل من يشاء .

وقد زار قبره لسان الدين الخطيب فرآه على هضبة بمقبرة اغمات فقال :

قد زرت قبرك عن طوع باغمات رأيت ذلك من أولى المهمات

لم لا ازورك ياأندى الملوك يدا ويا سراج الليالي المدلهمات

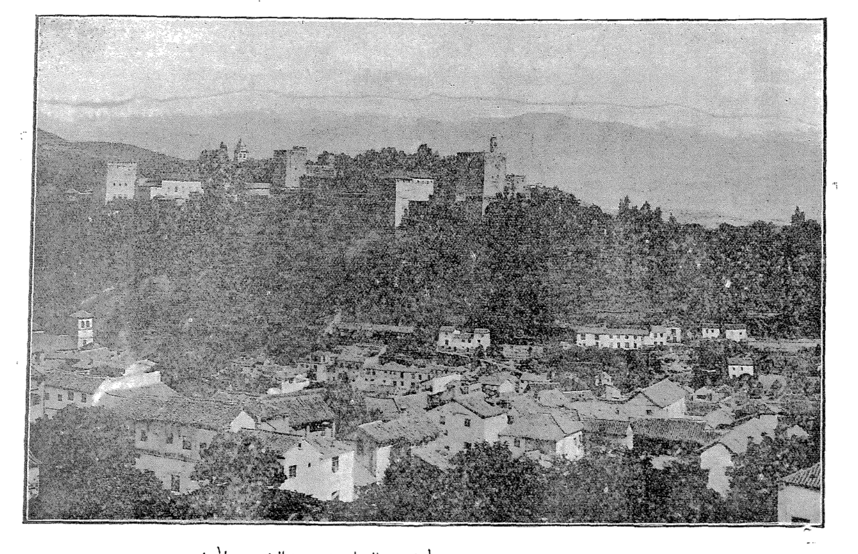
وأنت من لو تخطى الدهر مصرعه الى حياتي لجادت فيه أبياتي

اناف قبرك فى هضب يميزه فتنتحيه حفيات التحيات

كرمت حياً وميتاً واشتهرت علا فانت سلطان أحياء وأموات

ماري مثلك في ماض ومعتقدى أن لايرى الدهر في ماض ولاآت .

وقول لسان الدين هذا في شخص مات قبله بثلاثة قرون ونصف تقريبا وليست له عليه اية يد، لاكبر دليل على ان ابن عباد كان من اكبر الملوك واعظمهم . ومن يطلع في الجزء الثاني من نفح الطيب على هذه الجملة « وبسبب قتل بني عباد لابي حفص الهوزني تسبب ابنه ابو القاسم في فساد دولة المعتمد بن عباد وحرّض عليه امير المؤمنين يوسف بن تاشفين حتى ازال ملكه ونثر سلكه وسبب هلكه رحمه الله » ، ير ان هذا الملك العظيم قضى بيد الخشونة والظلم ضحية السعايات والوشايات الدنيئة .



مناظر مدينة غرناطة وفي اعلاها قصور الحمراء من اليسار وقصر جنراليف من اليمين

الرسالة الخامسة

من اشبيلية الى غرناطة

قام القطار من اشبيلية الساعة العاشرة صباحا واتجه الى الجنوب الشرقى في ارض تكثر فيها المزارع وغابات الزيتون والكافور ومروج الخضر تتخللها اشجار الفاكهة من برتقال ونارنج وتين وليمون . وقد يكثر على حافتى الطريق التين الشوكي والصبار ونبات الخلة وشوك القرطم ،وعلى كل حال فالزراعة هنا شتوية اكثر منها صيفية : اعني انها تنحصر فى القمح والفول وما اليهما . وهي بوجه عام اشبه شيء بزراعة الحيضان عندنا قبل ان يدخل عليها النظام الصيفي . وتربة هذه الجهة جيدة وارضها مسطحة ولا بد انه كان فيها مدة العرب نظام للري اهمل بعدهم وبقيت زراعتها لا تسقى الا مرة واحدة قبيل الزرع ، وهي اشبه بما يسمونه عندنا الزراعة البعلية : ولا ادري هل هذه التسمية جاءتنا من شكل الزراعة في بعلبك او من جهة اخرى . ويختلف امامك معدن الارض فطوراً تراه حديديا ويزرعون فيه كروم العنب،وطوراً تراه طفليا ويزرعون فيه الفاكهة ، وكلما قربت الى الشرق تكثر انواعها من مشمس وكمثرى ورمان وخوخ وتفاح . وتارة ترى معدنها اسود ويزرعون فيه الخضر والبطيخ والقاوون وهما من احلى شيء في نوعهما .

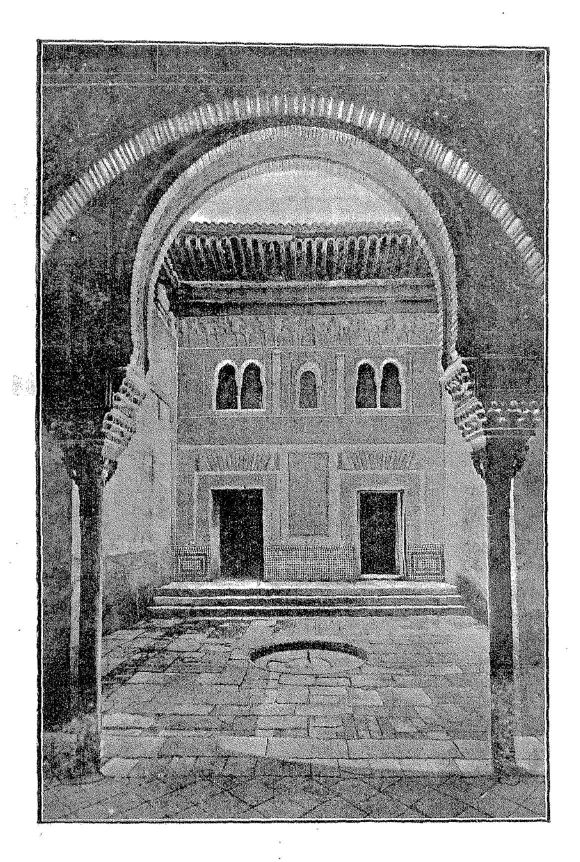
والسفر من اشبيلية الى غرناطة صعب جداً بالسكة الحديدية من كل وجه : لان عرباتها قديمة وهي اشبه شيء بعربات خطوط الشركات الضيقة عندنا . ومع ان المسافة بينهما ٢٨٨ كيلو متراً فالقطار يقطعها في اكثر من عشر ساعات، وليس فيه عربة للاكل . وقد يقف القطار كثيراً فى بعض المحطات انتظارا لقطار ثان آت من طريقه أو من طريق آخر . ولا ترى فى المحطات الا باعة الماء فى الغالب . وكلما اتجهت الى الشرق تجد من يبيع شيئا من الفاكهة خارج سياج المحطة . وبالجملة فالماء هنا هو اول شيء يحتاج اليه الانسان في كل

وقت لشدة الحرارة . وقد كنت أحسبني قليل الشرب جداً حتي في مدة الصيف، ولكنني هنا أراني أكثر من الشرب فى كل وقت مدفوعاً بشدة العطش . وقد تحدث شدة الحرارة هنا تهيجاً فى الحلق والحنجرة . فترى النـاس يبصقون كثيراً في الطريق وغير الطريق من غير مبالاة ، بما لا تراه الا نادراً في البلاد المتمدنة ، بل قد يكون سبباً فى تهييج الشعب فيكثر السعال .

وفى الساعة الثالثة بعد الظهر تقابل قطارنا بالقطار الذي قام من غرناطة في محطة اسمها روضة الاندلس LA RODA DE L' ANDALOUSIE . ولهذه الجهة نصيب من اسمها ، لان النظر كلما اتجه فيها الى جهة لا يرى غير غابات الزيتون ومروج الفاكهه والخضر ، ولا شك ان هذه الجهة هي أخصب أرض اسبانيا الوسطى الجنوبية : لذلك تكثر فيها المدن ويظهر العمار .

وفي الساعة الرابعة وصلنا الى مدينة BOBADELE ولعلها « أبي عبد الله » ومنها يتفرع خطان أخران : واحد الى مالقه والآخر الى الجزيرة الخضرا وجبل طارق .

وما زلنا سائرين حتى اذا كنا على بعد ساعة من غرناطة ابتدأت الزراعة تكسو ارض الوادي كله ، وبدت لنا جداول الماء تظهر بكثرة بعضها مبني وبعضها محفور ، يغذيها نهر شنيل من اليمين ونهر دارو من اليسار : بحيث لا تقع العين الا على مروج ناضرة ورياض زاهرة ترى فيها الذرة والبنجر والخضر واشجار الفاكهة والدخان الهافانى بشكاه الجميل وهو رخيص جدا في هذه البلاد : وهنا خطر ببالي كيف ان الحكومة المصرية الدستورية لاتزال تحجر على حرية الناس بمصر في زراعة الدخان . فان قيل ان زراعته تقلل من ايراد الجمارك قلنا بامكان فرض ضريبة على زراعته تعوض على الحكومة ما تخسره من عدم وروده من الخارج وتعود على الاهالي وخصوصاً أصحاب الجزاير التى لا تصلح إلا لزراعته بالفائدة التى لا يزالون يرجونها من انتاجه . وفى الساعه الثامنة مساء وصل القطار الى غرناطة .



واجهة المسجد الخارجي بالحمراء

غرناطة

هي مدينة واقعة في الشمال الغربي من جبل شلير أحد حلقات جبال سيرا نوفادا ، وعدد أهلها الآن ٨٠ ألف نفس . ويقطعها نهر دارو الذي ساقه اليها العرب من هذا الجبل . وفي جنوبها نهر شنيل الذي يروي مادونها من الاراضي الواسعة الجميلة التي يسمونها بالمرج : وذلك بواسطة الترع التي سيرتها بها العرب ، ونظام الري الذي انشأوه فيها . وهو قائم الى الآن بوظيفته في هذه الجهة التي لا تزال من أخصب بلاد اسبانيا . وأبنية المدينة القديمة على الشكل القوطي في شوارعها الضيقة . أما شوارعها الكبرى فقد دخل عليها مسحة من نظام البناء الافرنكي : ويظهر ان سبب ذلك هو ان درجة الحرارة فيها أقل منها في أشبيلية وقرطبة كثيراً وذلك لكثرة ما يتخللها من مجاري المياه ويحيطها من كثرة الغابات والمزارع ومراقد الثلوج المستديمة التي تراها على قمم سيرا نوفادا . ومع هذا فشوارع المدينة غير نظيفة ويكثر فيها التراب . وبالجملة فليس فيها ما هو جدير بان أحدثك عنه لانها ليست بالشرقية ولا بالغربية اللهم إلا تلك الجهة الواقعة على منحدر الجبل الى القصر ويسمونها قسم البيازين : وهذا القسم هو الباقي من مدة العرب وهو الذي ترى عليه صورة عربية جافة تكثر فيها المنافذ وليس فيها شيء من الفن ولا من جمال الشكل . يظهر ان حركة التجارة والصناعة في المدينة حركة لا بأس بها وخصوصاً في تجارة المحاصيل الزراعية .

ولقد كانت هذه المدينة مدة العرب غاية في الجمال والجلال والفخامة . وكان سكانها مدة بني الاحمر لا يقلون عن نصف مليون من النفوس لان سواد البلاد الاسلامية بالاندلس هرع اليها بعد سقوطها في يد الاسبان . وكان منهم عدد كبير من اليهود . وكان العرب يسمونها دمشق لكثرة مائها ومزارعها . وكان فيها كثير من البساتين بحيث كان للغني بالله وحده بها مائة بستان : وفيها يقول لسان الدين الخطيب :

بلد تحف به الرياض كأنه　　وجه جميل والرياض عذاره
وكأنما واديه معصم غادة　　ومن الجسور المحكمات سواره

وكان يحيط بها مدة بنى الاحمر سور فيه الف وثلاثون برجا للمقاتلة . وكان داخل السور مائة وثلاثون طاحونه لطحن الغلال بقوة التيارات المائية .

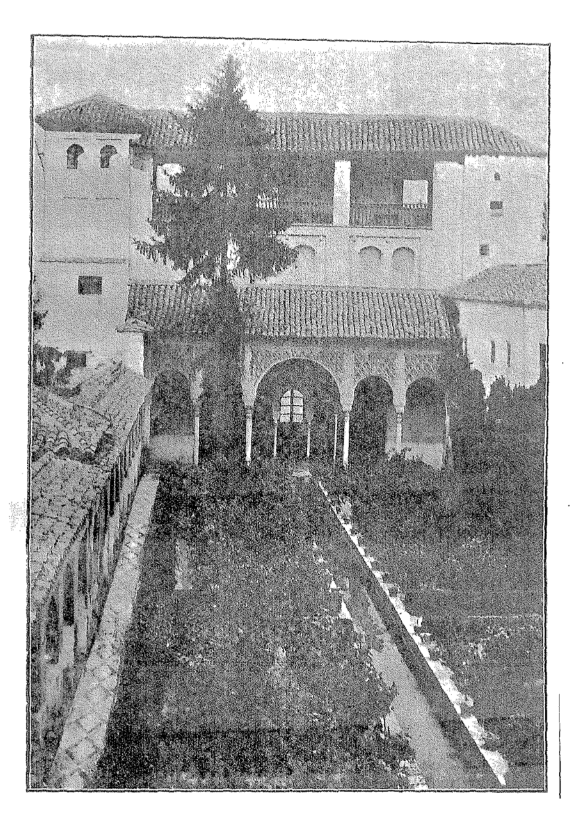
والآن أذكر كلمتى عن القصر وهو كل شيء في المدينة .

القصر

وهو يشمل تلك الدائرة الكبرى التي فى شرقى المدينة وفي حض جبل شلير : وهى عبارة عن سور كبير داخله بستان واسع في اعلاه من الشرق قصر جنرّاليف GENERALIF وهو لفظ لامعنى له وضع محرفا لهذا القصر العالي الذي كان يسمى جنة الريف وبعضهم يسميه جنة العريف . وكانت ملوك غرناطة تقضي فيه فصل الصيف . ويتخلل هذا البستان غدران الماء التى تنزل اليه من الجبل وتسمع لها خريرا هنا وهناك كأنه نغمات الموسيقي حتى ليخيل للانسان أنه فى احدى رياض سويسرا الجميلة .

وقد قام على منحدرات هذا الجبل المتعرجة سور مرتفع طوله ٧٢٦ مترا فيه ٢٤ برج على طوله حول قصر الحمراء . وفي الزاوية الغربية من بناء القصر بميل الى الجنوب القصبة : وهى القلعة العظيمة التى هى أقدم بناء في هذه الدائرة . بناها محمد بن الاحمر الأول . وأهم هذه الابراج برج فالا وارتفاعه ٢٦ متراً . وفى أقصى القصبة منارة وضع في اعلاها جرس زنته ١٢٠٠ كيلو جرام يضرب كل ساعات الليل في أيام السنة كلها . وفي يوم ٢ يناير وهو اليوم الذي استولى فيه القوط على غرناطة من العرب يضرب هذا الجرس باستمرار ٢٤ ساعة احتفاء بهذا اليوم الذي هو من أكبر اعيادهم ان لم يكن أكبرها .

دخلت الى هذا البستان من باب كبير وهو من بناء العرب وضع عليه من جهتيه كرة من الحجر على شكل الرمانة : وهى اشارة لطيفة لاسم المدينة . ولقد أصلح هذا الباب الملك شارلكان . ووضع عليه رنكه . وما زلنا سائرين



منظر قصر جنراليف اوجنة الريف

في طريق صاعد وسط هذا البستان الجميل الى أن وصلنا الى بناء على جهتيه هو لوكندة واشنجتون . ويقال أنها بنيت على المقبرة الاسلامية لملوك غرناطة . وما زلنا صاعدين والى يسارنا سور عال من الطوب الاحمر هو سور قصر الحمراء حتى وصلنا الى باب قصر جنراليف .

وهذا القصر يتدرج بستانه الى ثلاث مناطق :كل واحدة فوق الأخرى ببضعة،و أمتار يصعد اليها بواسطة سلالم من الرخام . وكل بستان منها عبارة عن زهرية مستطيلة في وسطها بحيرة كبيرة مستطيلة وهي من الرخام . وفى جوانبها نافورات الماء التي اذا فتحت ينفجر منها الماء على هيئة أقواس من البللور تنتهي الى وسط البحيرة بنغمات مشجية ،واذا انعكست فيها أشعة الشمس رأيت أقواس قزح هنا وهناك على البحيرة بشكل بديع جدا . وينتهي البستان الأول الى ايوان جميل فيه شيء كبير من الفن ويشرف من جهة الشمال على قسم البيازين (المدينة القديمة) ومن جهة الغرب على قصر الحمراء . أما البستان العالي فيتصل بقصر الحرم . واما الوسط فبينه وبين الايوان . وفي هذا البستان شجرة من الارز يسمونها ارزة الملكة . ويقولون أن عمرها يرجع الى سنة ١٤٠٠ ميلادية .

وبالجملة فهذا القصر في وضعه ونظامه ونضارة جنانه آية في الابداع وكمال الذوق مما لا يمكن وصفه الا لشاعر او مصور . وهنا ارجو حضرات القراء ان يسمحوا لى بان أحدثهم بكلمة عن قصر الحمراء .

قصر الحمراء (١)

عم تتساءلون . عن البناء العظيم الذي منه تدهشون وله تعجبون ؟ هذا بناء الحمراء الذي ابقت عليه الايام ليكون فخراً لنا على ممر الايام . وهل لنا من شيء نفخر به غير عمل الآباء والاجداد ؟؟ نعم هذا هو ذلك القصر التاريخي

(١) وقد سمى بالحمراء لان الجبل الذي بنى عليه تربته حمراء ،وقد يكون ذلك لنسبة هذه القصور الى بنى الاحمر وهو أوجه. وبنيت الحمراء في منحدر جبل شلير على ارتفاع ١٥٠ متراً من أرضية المدينة .

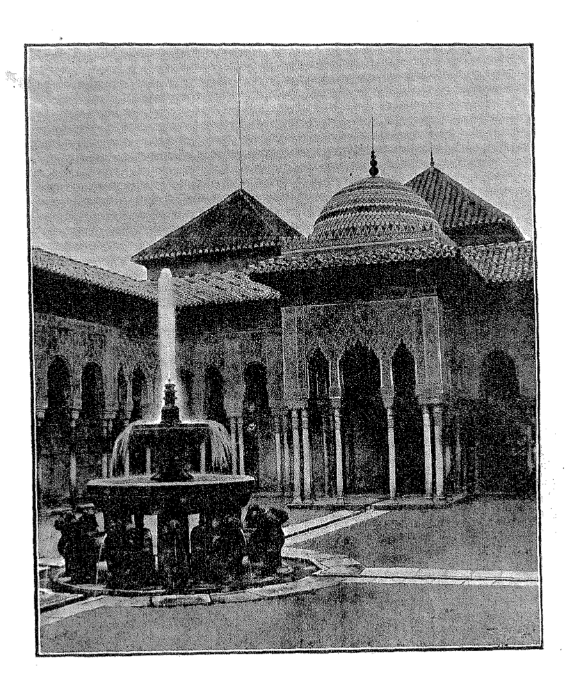
الذي سأحدثكم عنه كثيراً ولا اراني حدثتكم عنه بشيء . لأني لم افهم منه غير اعجابي بفخامته وحسن صناعته . ولكن على كل حال اقربه الى ذهنكم بوصف المهم من ابنيته : وهي قاعة الحكم ، وحوش السباع وحوش الريحان وقاعة الاستقبال ويسونها قاعة السفراء ، ثم مسجد الملك وحمام الملك . وكانت كلها تنتهي الى قصر الحرم من جهتها القبلية . فازاله شارلكان وبني مكانه قصره على النظام القوطي: وهو في وسطه عبارة عن دائرة سماوية قام على محيطها ٣٢ عمودا عن الجرانيت، وعلى خمسة امتار منها تقريبا حائط يرتكز عليها وعلى الاعمدة سقف محدب الشكل على هذه الدائرة دورثان يشبه الاول في شكله . ولم يكمل هذا القصر في مدة صاحبه وهم يعملون في اتمامه الآن

وهنا نبدأ بشرح مابقي من الآثار العربية التي تتصل بحال مباشرة أو غير مباشرة من جهتها القبلية بقصر شارلكان : الذي ليس فيه شيء من الجمال وان كان شكله الداخلي لا يخلو من العظمة والفخامة .

وأبنية هذا القصر ليست لشخص واحد من بني الاحمر بل هي لجملة منهم

وأول ما يشاهد الانسان منها مسجدها الخارجي وهو على صغره غاية في الفخامة ، ونقوشه في منتهى الجمال . وقد حوله القوم الى كنيسة مدة شارلكان، ولكن من غير ان يبدلوا شيئا من نقوشه ولا من الكتابة التي على حوائطه . وهذا المسجد من بناء محمد الثاني ، وقال بعض المؤرخين انه كان بحائط محرابه احجار ياقوت مرصعة في جملة ماعق به من الذهب والفضة . ومحرابه من العاج والابنوس (ولكني لم أر شيئاً من ذلك) .

اما قاعة الحكم او قاعة العدل فقد بناها السلطان يوسف الاول في اواخر القرن الرابع عشر: وهي مربعة الشكل ،طول كل ضلع منها ١٥ مترا وارتفاعها عشرين متر ونصف،مترا وحوائطها جميعا منقوشة بنقوش جصية بديعة جداً . وفيها صورة يد مرفوعة الى السماء وبجوارها مفتاح اشارة الى ان العدل مفتاح السعادة في الدنيا والآخرة . وفيها كتابات عربية يكثر فيها « عز لمولانا ابي عبد الله » « لا غالب



منظر قاعة الحكم من جهة حوش السباع

الا الله » . ومن خارجها بهو طويل من جهته اليسرى اعمدة رخامية على طوله وبه من النقوش العربية شيء يدهش الانظار ويأخذ بالابصار وقد وضع فيه القوم اخيراً كلمة بالاسبانية على قطعة من الرخام تشير الى استيلائهم على غرناطة .

والى غربي قاعة الحكم حوش السباع : وهو اهم أثر عربي في اسبانيا ، ابتدأوا في عمله سنة ١٣٧٧ م ، وطوله ٢٨،٥٠ متراً وعرضه ١٥،٧٠ متراً ، وأرضيته من الرخام ، وتحيط به بواك قامت على ١٢٨ عموداً من المرمر ، وضعت بتناسب جميل جداً اثنين اثنين ، أو ثلاثة ثلاثة أو أربعة أربعة ، وقد نقشت حناياها وسقفها والحوائط التي من دونها بنقوش جصية مذهبة آية في الابداع والجمال . وفي وسط هـذا الحوش فسقية من الرخام الازرق صحنها مسدس الشكل وقطره ١،٥٠ متر فيه نافورة ماء ، ويحمله ١٢ سبعاً من الرخام الازرق ينقصها الاتقان في صناعتها . وربما كان ذلك مقصوداً لتحريم التمثيل عندهم . وينزل المـاء من الفسقية الى مجار رخامية على سطح الارض تسير الى أربع فسقيات أرضية في زواياه الاربع من خارج البواكي .

وفي وسط هذا الحوش مما يلي االفسقية قاعتان متقابلتان واحدة تسمى قاعة بني سراج (١) . وكانوا من وزراء الدولة وكان بها مركزهم لجوارها من قاعة الحكم . ويقال إنه كان بهـا مصرعهم على يد السلطان أبي عبد الله آخر ملوك بني الاحمر لاتهامهم بممالأة الفرنجة سراً .

(١) كان بنو سراج من اكبر العائلات النبيلة في غرناطة وكان منهم القضاة والوزراء والقواد وكان أصلهم من قرطبة ، وهاجروا منها بعد استيلاء الاسبان عليها . ويزعم الاسبان ان بنت أحد ملوك بني الاحمر واسمها فاهمة أو فهيمة قد أحبت أحد بني سراج ، وكانا يجتمعان خفية في زاوية من بستان قصر جنراليف ، ويتبادلان لوعة الحب تحت شجرة صنوبر لاتزال موجودة بحديقة هذا القصر ، والى يومنا هذا يسمونها بشجرة الملكة . وبلغ السلطان أمرها فغضب على بني سراج واستقدمهم واحدا واحدا الي قصر الحمراء وضرب أعناقهم في القاعه التي سميت باسمهم . ومن خرافات الاسبان أن أرواحهم الى هذه الساعة لاتزال تصرخ بعد سكينة من الليل مما أصابهم من الظلم ! !

ولكن اذا عرفت ان هذا البستان بستان رياحين كما وصفناه لك ، وانه يتدرج الى ثلاث

وهذه القاعة مربعة طول كل ضلع منها ٢٥ ، ٦أمتار، وفي وسطها فسقية من الرخام ، وحوائطها كلها بالنقوش الغريبة عليها كتابات عربية من أعلاها الى ادناها ، وسقفها قطعة واحدة من المقرنصات الهائلة ، من دونها ١٦ منورا تحملها مقرنصات تنزل بميل حتى تتصل بالحائط على طول مترين ونصف متر وفيهامن النقوش ماهو غاية في الابداع مما لا يمكن أن يصفه اليراع . ويقال إن المقرنصات التي بها فيها أكثر من خمسة آلاف شكل لا يشبه بعضها الآخر .

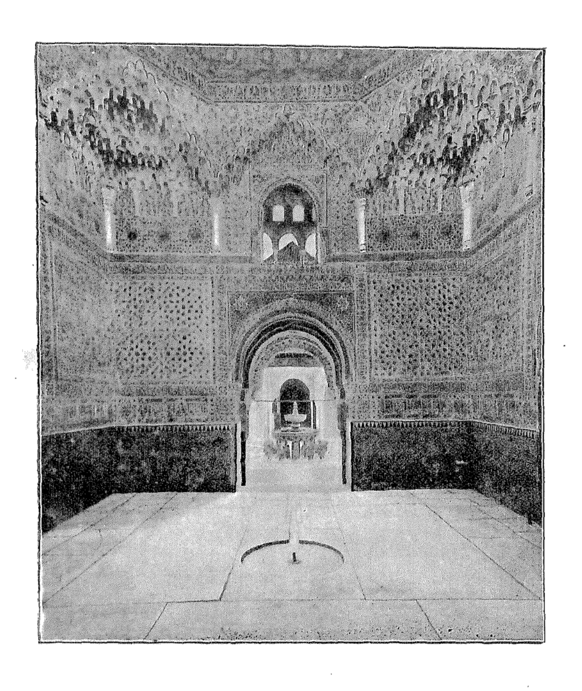
أمّا القاعة التي تجاهها فتسمى بقاعة الاختين وهى على شكل قاعة ابن سراج في صناعتها وبهجتها لو ان هذه تتصل بها من داخلها قاعة جميلة في صناعتها وهيئتها تسمى قاعة الملكة ، وتشرف من جهتها الشمالية على بستان واطي عنها ببضعة امتار يسمونه بستان الملكة . ويقولون إن تسميتها بقاعة الاختين لان فيها رخامتان كبيرتان شكلها واحد وهي تسمية سخيفة ، لا اظنها تتفق مع ابهة المكان . ولعلها كانت لاختين لاحد ملوك بنى الاحمر .

أما حوش الريحان،والافرنج يكتبونه ALRAGNANE «الريان» وهو خطأ ،فهو فى غرب حوش السباع وطوله ٦٠ ، ٣٦ متراً وعرضه ٢٣،٤٠ متراً وارضيته من

مناطق وانه كله مكشوف الى عين الناظر وخصوصاً من منافذ القصر الذي يشرف عليه عرفت انها رواية سقيمة لا أثر لها من الصحة ولا وجود لها البتة في التواريخ العربية . وهذهالقصة اشبه شيء بقصة العباسة أخت الرشيد مع جعفر البرمكي مما ينسب القصاصون اليها نكبة الرشيد للبرامكة ، في حين ان نكبته لهم انما كانت خوفاً على ملكه منهم ، لما كان لهم من عظيم السلطان خصوصا في بلاد فارس لان أصلهم منها .

وحقيقة بنى سراج كما يؤخذ من كتاب ترجمه العالم الكاتب الكبير الامير شكيب ارسلان (آخر بنى سراج تأليف الفيكونت دو شاتوبريان الكاتب الفرنسي الشهير) انهم كانوا وزراء لبنى الاحمر وكانوا من شيعة محمد بن يوسف الشهير بالاعسر، ونصروه على ابن أخيه محمد الصغير . فلما تولي هذا الملك في نحو سنة ١٤٢٧ م نكبهم وأخذ يفتك بهم ، ففر بعضهم الى ملك قشتيله وأقاموا في خدمته .

وآخر ما ذكر عن بنى سراج ان محمد بن يوسف ابن سراج كان قائداً لحصن قبيل والذي بجواره .فحاصرهما ملك الاسبان بمدافعه الجديدة ذات المرمى البعيد وأخذ يرسل عليهما نيرانها الشديدة . فرأى ابن سراج أن لا فائدة في المقاومة . وسلم الحصنين على شرط الخروج الى غرناطة ،وذلك في زمن أبي عبد الله بن الاحمر . وربما كان تسليمه للحصنين سبباً في نكبته لاتهامه بان ذلك كان لممالأته للعدو .



احد مناظر حوش السباع بالحمراء من جهة قاعة الحكم

الرخام ، وفى وسطه بحيرة رخامية يسمونها البركة طولها ٥٠ ، ٣٣ مترا وعرضها ٤٠ ، ٧ امتار وعمقها ٥٠ ، ١ متر ، يحيط بها سياج من نبات الفصيلة الريحانية مقصوص على شبه حائط ارتفاعه نحو متر ، وعلي طرفيه صفان من اعمدة المرمر ترتكز عليها وعلى الحائط الذي يليها قباب صغيرة غاية في حسن الذوق وجمال المنظر .

ومن دون حوش الريحان الى الجنوب الشرقى الحمام : وهو شيء من الاعجاب بمكان . وهو على النظام الروماني : يدخل اليه اولا من غرفة جميلة فيها مسطبتان رخاميتان للاستراحة ، احداهما قبالة الاخرى ، واحدة للملك والثانية للملكة . وفى وسطها فسقية رخامية يحيط بها اربعة اعمدة من المرمر يرتكز عليها سقف يحيط به بلكونات من دوره العلوي ، ويقال انه كان مكان الغواني اللواتي كن يضربن الموسيقي وقت استحمام الملك . وعلى كل حال فالنقوش التي بهذا المكان من جصية وذهبية تتناسب مع جلال الملكية . ومن داخل هذا المكان الحمام وفيه قبة من الجص فيها فتحات للنور ثبتت عليها قطع زجاجية . وفيه حوضان يسير اليهما الماء بتدبير في اقنية تتصل بالجبل وليس فى غرفة الحمام الداخلية شيء من الجمال وخصوصا القبة ، فان خشونة منظرها لا تتفق مع جمال المكان الخارجي (بيت اول) ، ولعل القبة هدمت فيما هدم من الحمامات والمساجد ايام شارلكان ثم اقاموا هذه في مكانها . وفي وسط البواكى التي من جهة الشمال من حوش الريحان مسجد القصر الخصوصي وقد نقشت حوائطه بنقوش بديعة يتخللها كتابات كثيرة بالخط العربي الجميل في طولها . وقد قرأت منها مما يلي باب المسجد هذين البيتين وربما كانا أول القصيدة :

تبارك من ولاك امر عباده ... فاولى بك الاسلام فضلا وانعما

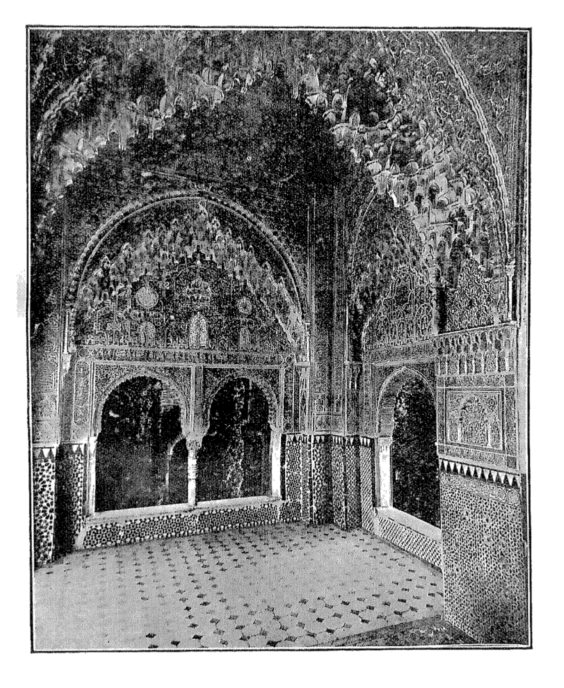
ولو خير الاسلام فيما يريده ... لما اختار الا ان تعيش وتسلما

ومكتوب فوقها « عز لمولانا السلطان عبدالله » . والداخل الى المسجد يرى على يمينه ويساره فتحة في الحائط طولها نحو ثلاثين سنتيمترا وعرضها اربعون

سنتيمترا ويقولون انها مكان انعال الملك وقت دخوله الى المسجد . ولكن مايحيط بهذه الفتحة من تكرار اسم الجلالة يمنعنا من تصديق القوم ،ونضيفها الى حلى الصناعة التى فيه، او انها مكان كان يوضع فيه شيء من الورود والزهور والرياحين. وهذا المسجد عبارة عن قاعة فيها محراب كان فيه المصحف العثماني الذي اهداه بنو الاحمر الى السلطان يوسف ابن يعقوب المريني سنة ٦٩٢هـ. وهذا المحراب آية في نقوشه التى تتخللها كتابات عربية تبتديء بهذه الالفاظ : « بسم الله » « القدرة لله » « العزة لله » « الملك لله » « ولا غالب الا الله » . الخ ، وجهة المسجد من الشمال كلها مكونة من مقاصير قامت على اعمدة رخامية صغيرة وهي تشرف على قسم البيازين .

اما قاعة الاستقبال ويسمونها قاعة السفراء فهي أكبر وافخم قاعة في القصر بناها السلطان ابو الحجاج يوسف بن الاحمر . وقد اشكل على مؤرخي الافرنج نطق الجيم المعطشة فقلبوها شيناً وكتبوها: ALHACHACHE « الحشاش » وهو خطأ بين . وهذه القاعة مربعة الشكل كل ضلع منها ١١ مترا وارتفاع حوائطها ١٨ مترا تعلوها قبة خشبية فيها نقوش ذهبية يحار العقل فى جمالها ،ومن دونها ٢٠ منورا ،من دونها ثلاثة شبابيك كبيرة على هيئة طنف (بلكونات) بديعة الشكل . وقد نقشت حوائط هذه القاعة كلها بنقوش غاية في الابداع وجلال الفن مما لا يمكن لواصف وصفه . وانما اقول للقارىء ان بها ١٦٢ نقشا يخالف الواحد الآخر ، ولا يمكن ملاحظة ذلك لرائيها لحسن تناسقها وتناسبها حتى كأنها نقش واحد .وفيها كتابات عربية قرأت منها فى اعلاها « عز ونصر لمولانا الملك العادل المجاهد ابي الحجاج » ،وعلى يمين الداخل الى هذه القاعة على ارتفاع مترين فوق الازار القيشاني « النصر المكين والفتح المبين لمولانا ابي الحجاج امير المسلمين» .

وعلى كل حال فقصر الحمراء آية الايات فى الاعجاب والاغراب في كل باب من ابواب العظمة الفنية والجلال الهندسي مما لا يمكن لانسان وصفه . واني اتصور



قاعة الاستقبال المشهورة بقاعة السفراء بالحمراء

انك لو جئت بالف واصف لكان وصف كل واحد مخالفا لوصف الآخر : ذلك لان عواطف كل شخص منهم تتغلب عليه بمؤثرات كثيرة متغايرة : فهذا يصفها من حيث جلالها ، والآخر يصفها من حيث جمالها ، والثالث من حيث مافيها من العظمة الفنية ، والرابع من الجهة التاريخية ،والخامس من الهيئة الطبيعية، والسادس من العبرة الزمانية ،وهكذا . ولا أحسبنى في شيء من هذا كله : لان شدة اعجابي بهذا المكان قد طاش معها الجنان وجمد البيان . خصوصا بعد ان تجلت أمامي تلك الصحيفة التاريخية الرائعة التي انتهي بها حكم بنى الاحمر في غرناطة ،او بعبارة أخرى حكم العرب بالاندلس : تلك الصحيفة التي كتبت بدماء قلوب المسلمين التى اسالتها عوامل الظلم ومعاول النكبات التي سقطت عليهم من قساوسة النصرانية وملوكها باسبانيا . وكأني كنت اذا نظرت من أعلى القصر الى قسم البيازين سمعت انين المقتولين . وصراخ المصلوبين . وعويل المشردين من النساء والشيوخ والاطفال!! والملك لله وحده،ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم.

وهنا أرجو القاريء أن يعذرني اذا قصرت فى وصف هذا القصر الذي لم أفهم منه شيئاً غير دهشتى لفخامته!! ذلك لان جلال هذا المكان الحقيقي في صنعته الفنية . ولم يحدثنا مؤرخو العرب عنها بشيء بل كان وصفهم له يحوم حول فخامة البنيان وما يحيط به من ذهب براق وثروة واسعة هي نتيجة لازمة لضخامة الملك وعظمته . وما تراه فى كتب الافرنج لا يخرج عن ذلك سوى ما فيه من الاغلاط التاريخية التى أساسها الجهل والتعصب الدينى والجنسي.لذلك أطلب الى حكومتنا الموقرة ان توفد الى اسبانيا بعثة من رجال الفن العربي بمصر ممن يلتحقون بدار الآثار العربيـة على الخصوص ،لاسيا وقد فاقت بعثاتها الحد ممن يشتغل بالمهم وغير المهم . فهل نراها تبخل على العلم والفن والتاريخ ببعثة كهذه تزيح اللثام عن شيء يتحدث جميع الناس قديما وحديثا بجلاله وجماله وهم لا يعرفون شيئا مما فيه من الفن العربي العجيب والذي كله آيات بينات مدهشات ، خصوصا وهذا الفن قد أمحى أثره من الشرق ، فليس منه شيء في بغداد ،والبقية

الصالحة التى كانت منه بدمشق قد أحرقها الفرنسيون أخيراً باطلاقهم النيران على بيت العظم الذي انتهت اليه عظمة الفن العربي فى الشام وسوريا !!

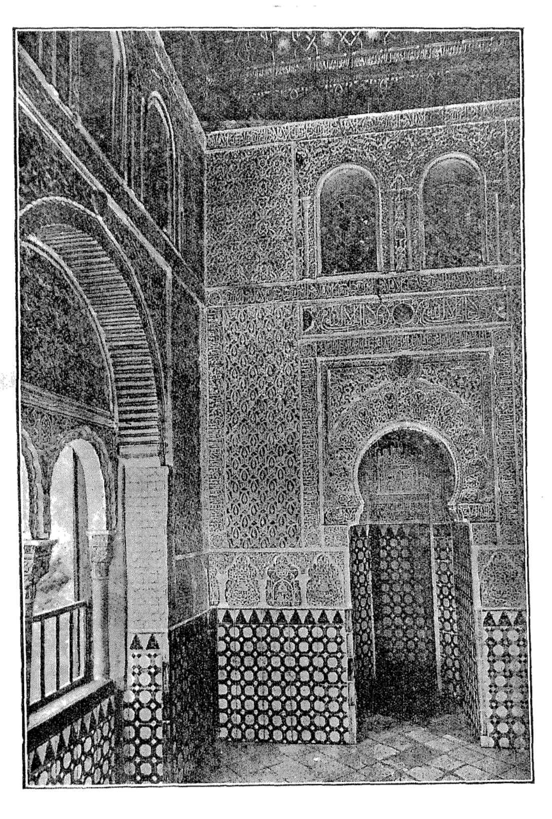
وقد يقول قائل : ان عندنا منها بمصر شيئاً كثيراً : فعندنا مسجد المنصور قلاوون ، والناصر حسن ، والسلطان قايتباي ، وقاجماس، والبرديني، والسلطان الغوري الذي انتهت به عظمة مصر الفنية والاستقلالية . وقد يشيرون الى آثار الناصر محمد بن قلاوون الفخمة التي توجد بدار الآثار العربية بباب الخلق . فنقول لهم نعم : ولكن هذا شيء وذلك شيء آخر .

وفي اسبانيا الآن رجال يعملون فى الصناعة الخشبية الدقيقة بالتنزيل والتطعيم على اشكال مختلفة فيها رسوم جميلة من آثار الصناعة القديمة . وكذلك عندهم رجال يعملون فى النقوش الجصية التي يستعيرونها من الاشكال القديمة ويدخلونها في مبانيهم الحديثة الفخمة . وقد ترى ذلك مجتمعا في ذلك المعرض الذي يقيمونه في اشبيلية لسنة ١٩٢٨ وقد مر بك ذكره . وفيه أحسن صناعاتهم هنا . وفي اشبيلية وقرطبة على الخصوص صناعة القيشاني العجيبة اللطيفة الشكل الكثيرة الالوان . ولاشك أنها من أثر الصناعة القديمة وان كانت لا تصل اليها في جودتها وجمال منظرها .

للعبرة والتاريخ

بنو الاحمر

بنو الاحمر من العرب الذين أجازوا الى الاندلس ويسمون بنو نصر . وأصلهم يتصل بسعد بن عباده سيد الخزرج . وكانوا من جند ارجونه « من حصون قرطبة » . وكان كبيرهم لآخر دولة الموحدين محمد بن يوسف بن نصر ويعرف بالشيخ . فلما ضعف أمر الموحدين وكثر الثوار بالاندلس . وقام منهم



المنظر الداخلي لمسجد قصر الحمراء

محمد بن هود بمرسية واستولى على شرق الاندلس تصدى له محمد بن الاحمر ، وانتهى أمره بأن تغلب على غرناطة سنة ٦٣٥ . وما زال حتى اذا غلب عليه الاذيفونش استصرخ يعقوب بن عبد الحق سلطان المغرب من بني مرين . فاجاز له جيشاً دفع به عدوه . ومات محمد بن يوسف سنة ٦٧١ . وقام بالامر بعده ابنه محمد وكان يعرف بالفقيه . فاستولى على جنوب اسبانيا الى الجزيرة الخضراء وأصبح له السلطان فيها حتى مات سنة ٧٠١ . وكان من خيرة بنى الاحمر سياسة وكياسة وهمة . وتولى بعده ابنه محمد الملقب بالمخلوع . ثم أخوه أبو الجيوش نصر ولم تطل مدة حكمهما. وأتى بعدهما أبو الوليد بن أبي سعيد بن اسماعيل بن نصر وكان من أحسن ملوكهم سيرة وأبعدهم همة وأكبرهم قوة وأعظمهم سلطاناً ، ومات سنة ٧٢٧ : قتله أحد قرابته غدراً في داره . وتولى بعده محمد ابن أبي سعيد ، ومات مقتولا سنة ٧٣٢ : فولى الأمر بعده أخوه أبو الحجاج يوسف الذي مات قتيلا سنة ٧٥٥ : بطعنة من رجل من السوقة ، وكان من خيرة بنى نصر . فقام بالامر بعده ابنه محمد ، فاستبد به حاجبه رضوان ، وحجبه عن الناس . فثار أخوه اسماعيل بن يوسف وقتل رضوان ، وتولى الملك سنة ٧٦٠ بعد أن نفى أخاه محمداً إلى المغرب . فقام أبو يحيى من ولد عمومته وقتله واستولى على الملك . ولكنه لم يلبث حتى عاد اليه محمد بن يوسف بمساعدة بنى مرين باتفاقهم مع ملك قشتيلة، وتلقب بالغنى بالله . ولم يلبث أن قويت شوكته وتوطدت دعائم سلطته لاختلاف ملوك الاسبان بعضهم مع بعض. ولم يضع الغنى بالله هذه الفرصة: بل عمل بحسن سياسته على استرجاع كثير من البلاد التي استولى عليها الاسبان مدة اسلافه . وهو الذي استوزر لسان الدين بن الخطيب الذي ابلى في خدمته بلاء عظيما وصحبه في نفيه الى المغرب . وانتهى أمر الغنى بالله بان قتله لوشاية فيه .

وقد وفد ابن خلدون على الغني بالله سنة ٧٦٣ ﻫ وأقام في خدمته. وكثيراً ما كان يستعمله في السفارة بينه وبين ملك الاسبان باشبيلية. وكان النجاح مصاحباً له في سفاراته. ولكنه بعد أن أقام في خدمته ثلاث سنوات استقال خوفا من السعايات

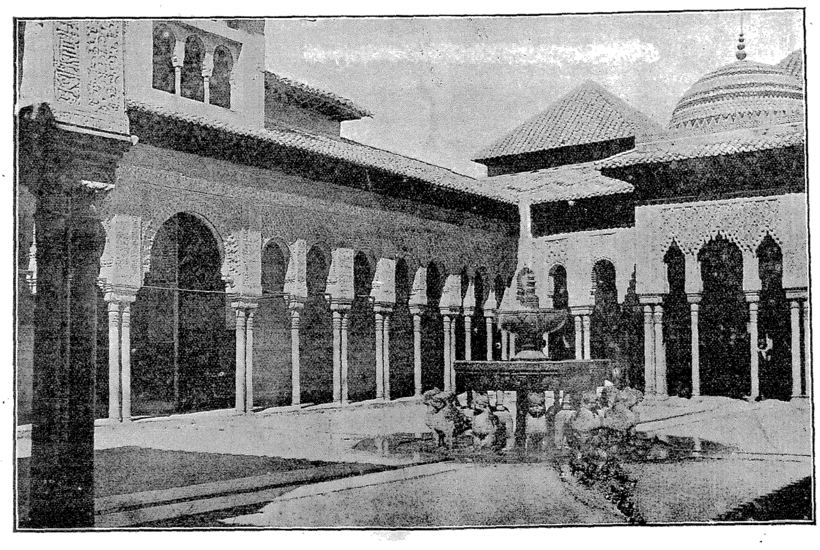
والوشايات التى راج سوقها في البلاد. وسافر الى بجاية ومنها الى المغرب ثم الى مصر زمن الظاهر برقوق الذي ولاه قضاء المالكية ثم استقال من هذه الوظيفة واشتغل بالتدريس والتأليف حتى مات بالقاهرة سنة ٨٠٦ .

وجاء من بعد الغنى بالله ابنه يوسف . ثم سعد بن يوسف ثم أبو الحسن بن سعد وكان ضعيف الرأى يميل بكايته الى اللهو وعدم الاهتمام بأمر الدولة . وهو والد أبي عبد الله محمد من محظيته الاسبانية السيدة ثريا (١) . وكان هائماً بحبها لايكاد يفارق سماءها . وكان له ولدان من السيدة عائشة زوجه الاخرى : هما محمد ويوسف . وكان يقدم ولده من الاسبانية عليهما . فحصلت الغيرة بين طرفي العائلة . وهرب محمد ويوسف الى القشتاليين . وبمساعدتهم شنا الغارة على أبيهما فكانت له الغلبة عليهما وانقطع بعد ذلك خبرهما . وقد أسر ولده أبو عبد الله في بعض وقائعه مع الاسبان . وكان أبو الحسن قد أسن وانهزمت صحته وضعف عقله بالاسترسال في شهواته ، وصار لايخرج من داره ولا يهتم بأمر الدولة التى كان يديرها وزراؤه بحسب أهوائهم فساءت حال البلاد. وكانت فى أوائل ولايته سنة ١٤٧٠ تتكون من أكثر من مائة مدينة بين كبيرة وصغيرة ، وضعف ذلك من الابراج والحصون، ومالا يقل عن ذلك من القرى وكان أهلها يقدرون بأربعة ملايين من النفوس . فاخذ العدو ينقصها من اطرافها . وانتهى أمر أبى الحسن بأن أصيب بالصرع وبفقد بصره ، فتنازل عن الملك الى اخيه أبي عبدالله الزغل وسافر الى المنكب وبقى فيه الى أن مات .

ولقد اطلق الاسبان ابا عبد الله من أسرهم لمناوئة عمه الزغل فاخذ يشن عليه الغارة بمساعدتهم وكانوا ينتهزون فرصة اشتغال المسلمين بأنفسهم ويستولون على أطراف البلاد . وفى هذه الاثناء استولوا على كثير من البلاد الحصينة المهمة مثل مالقة والمرية وانتهى أمر المسلمين بأن عرضوا على الزغل وابن

---

(١) هناك خلاف في كون أبى عبد الله بن ابى الحسن ابن الاحمر أمه محظيته ثريا أو أنه ابن زوجه عائشة . وعلى كل حال فقد كانت ثريا سبباً نفشل في هذه العائلة ففرقت بين الاخ واخيه ثم بين الولد وأبيه مما كانت نتيجته زوال ملكهم وانقضاء على دولتهم .



أحد مناظر حوش السباع بقصر الحمراء

أخيه أن يقتسما ما بقي لهم في البلاد حتي لا يكون خلافهما سببا في نكاية العدو بالمسلمين . فخرج الزغل الى وادي آش . واستولى ابو عبد الله حليف القشتاليين على غرناطة ، وكان الاسبانيون يرسلون الى الزغل من يزيد في الفتنة بينه وبين ابن اخيه صاحب غرطانة حتى سار معهم لحربه: لأن فرديناند غضب عليه اذ لم يقبل أن يسلمه حصن الحمراء . وبعد أن استولى القشتاليون على اغلب الحصون التي حول غرطانة سلطوا على الزغل رجلا من بنى الاحمر اسمه يحيي كان قد تنصر وكان يعيش في اشبيلية . فاخذ يخوف الزغل من الاسبان ويحسن له أن يتنازل عن وادي آش لفرديناند نظير مبلغ كبير من المال ثم يجيز الى بلاد المغرب حتى يكون في أمن منهم فعمل الزغل بنصحه أو بخديعته وأجاز الى فاس باموال جمة . ولكن سلطانها نقم عليه مؤازرته للنصارى على المسلمين بما كان سببا في خذلانهم وضعفهم وضياع ملكهم فصادره في ماله وسمل عينيه ومازال في سجنه حتى مات في اشنع حالات البؤس . اما ابو عبد الله محمد والاسبان يسمونه « بوباديل » فانه ما زال يدفع جيوش النصرانية عن غرناطة حتى أعلنه أهلها بأنهم أصبحوا لا قدرة لهم على الدفاع . وأنهم يقبلون شروط الصلح التي ارسل بها اليهم الملك فرديناند . هنالك سلم أبو عبد الله مفاتيح غرناطة الى فرديناند فى ٢ ربيع الأول سنة ٨٩٧!! ثم هاجر إلى المغرب واستوطن فاسا كاحد افراد الناس حتي مات بها سنة ٩٤٠ ه وبقي نسله فيها إلى سنة ١٠٣٧ يعيشون من أوقاف المسلمين المرصودة على الفقراء والمنقطعين !! نعوذ بالله من شر نقمته .

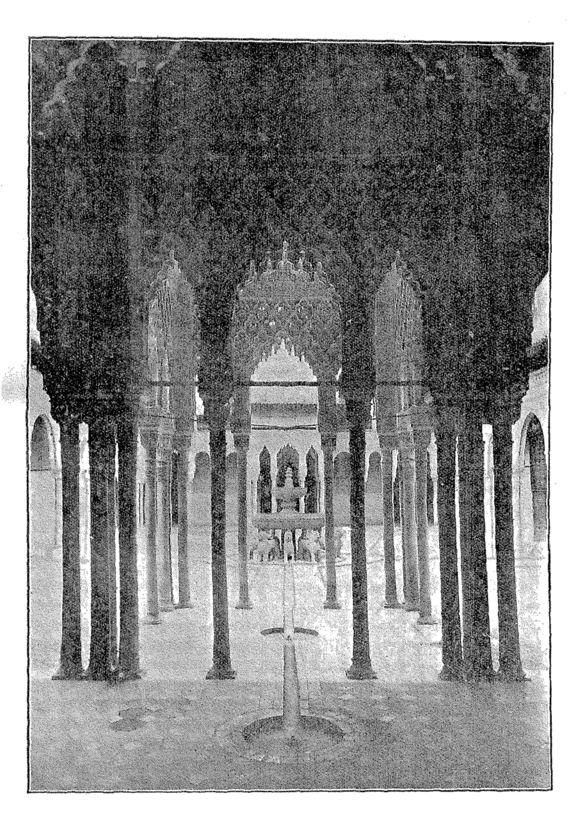
ومن هذا تعلم أن ملك بنى الأحمر بعد القرن السابع للهجرة كان مضطرباً لفساد الاخلاق، ولشيوع السعايات والوشايات بين طبقات الناس وخصوصاً الطبقة العالية منهم ، مما كان سبباً لكثرة نكبة الملوك لوزرائهم لأية ريبة ، ولكثرة الايدي التى كانت تعتدي على الملوك من ذوي قرابتهم فى الغالب طمعاً فى الملك ، ورغبة فى التمتع بتلك الشهوات واللذائذ التي استسلم لها بنو الاحمر فى آخر أيامهم، وخصوصاً في مدة يوسف بن الغني بالله ، لضعف رأيه وسوء سيرته

وعلى الاخص لخلافهم على الملك ، ذلك الخلاف الذي كان يجر إلى حروبهم بعضهم لبعض ، واستنصارهم بعدوهم الذي كان ينتهز فرصة هذه الحروب الداخلية فيستولى على بلادهم وحصونهم واحداً بعد الآخر .

وما زالت هذه الفوضى تنتاب كيان البلاد بما أصبح له فساد القلوب تاماً بين العظماء والرؤساء . والناس فيما بينهم كالقطيع لاعقل يقوده ولارأي يدبره ، حتي اذا ضرب الدهر ضربته كان تأثيرها شديدا بحيث انهارلها في ساعة واحدة هذا البنيان الشامخ الذي أقامه العرب فى ثمانية قرون ! !

ولقد كانت محنة مسلمي غرناطة في مدة السلطان بايزيد الثاني العثمانى . فاتفق مع السلطان قايتباي ملك مصر على مساعدتهم . بان يرسل بايزيد أسطولا الى أراضى اسبانيا ، وأن يرسل قايتباي جيشاً من جهة أفريقية ، الا أن بايزيد شغل بفتنة أولاده ، كركود ، واحمد ، وسليم ، ووقوع الحرب فيما بينهم حتى آل الامر بتنازله عن الملك لولده سليم . أما ملك مصر فان فرديناند وايزابلا أرسلا اليه المسيو بطره مارتيرسفيراً فابدى من المهارة ما أقنع به قايتباي بان الاسبانيين انما يدافعون عن أنفسهم هؤلاء العرب الذين غصبوا ديارهم ونهبوا أموالهم وعاثوا فى أرضهم فساداً . وبذلك اكتفى كل من بايزيد وقايتباي بان ارسلا كتبا الي فرديناند وايزابلا ، والى البابا ، والي ملك نابولي ، بعدم ارهاق مسلمي الاندلس . ولكن صوتهما لم يعمل عملا لان الذى يسمع فى مثل هذه الظروف انما هو صوت المدافع وصلصلة السيوف .

ولقد كانت ملوك الاندلس كلما وجدوا من الاسبانيين ضغطا عليهم طلبوا معونة ملوك العدوة ، فيرسلون اليهم بالغزاة من الرجال والفرسان على اساطيلهم فيكشفون عنهم ما نزل بهم . كما كان من المرابطين والموحدين الذين آل اليهم ملك الاندلس . حتي اذا ضعف الموحدون استولى ملوك الاسبان على أغلب حصون البلاد ومدنها الشهيرة فى القرن السابع الهجري الذي كان شؤما على مسلمي الاندلس . فاستولوا على لوشه ومارده وبطليوس سنة ٦٢٢ وعلى جزيرة



منظر عام لحوش السباع بقصر الحمراء

ميورقة سنة ٦٢٧، وعلى قرطبة سنة ٦٣٣ ، وعلى شاطبة سنة ٦٣٥ ؛ وعلى بلنسية سنة ٦٣٦، وعلى مرسية واشبيلية سنة ٦٤٥، وعلى شلب وطلبيرة سنة ٦٥٩، ولم يبق في يد مسلمي الجزيرة غير غرناطة وضواحيها تحت سلطان بني الاحمر .

ولما كانت سنة ٦٧٤ ورأي محمد الثاني «الفقيه» أن الاسبانين يهاجمون بلاده خشي تغلبهم عليها ، فبعث رسله الى السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني يستعطفه ويطلب غوثه . فاجاز الى الاندلس بجيوش جرارة ونازل الاسبانين وهزمهم في جملة مواقع . وطلب ملوك الاسبان صلحه فاشترط عليهم ان لا يرهقوا المسلمين وان يبتعدوا عن كل ما يؤذيهم . فعاهدوه على ذلك ورجع إلى المغرب بالغنائم التي لاحصر لها . وقد اجاز بعد ذلك جيوشه الى الجزيرة، وبلغت غزاته الى مجريط . ولكن ابن الاحمر في هذه المرة خافه على ملكه وتجسمت في مخيلته صورة ما عمله ابن تاشفين مع بني عباد، فاتحد مع ملك قشتيلة على حربه . ولكنه لم يلبث ان رجع عن هذا الرأي الفاسد . وكان الامير يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين أميرا على الغزاة بالاندلس فاراد أن يقتص من ابن الاحمر فاتفق مع الاذيفونش على الهجوم على غرناطة ، وارسل ملك قشتيلة رسله الى السلطان يعقوب بالمغرب ليقرهم على ذلك، فلم يرق هذا في نظره، وأرسل الى ولده يوبخه على ما أراد من ممالأة النصارى على المسلمين . ولما علم ابن الاحمر بذلك استغفر يعقوب لذنبه واستتابه من زلته . فقبل ذلك منه احتفاظا بالرابطة الاسلامية . واجاز ابن الاحمر الى العدوه لتمكين صلته بالسلطان يعقوب في سنة ٦٩٢ فاكرم وفادته واعاده الى غرناطة مكرما معظما .

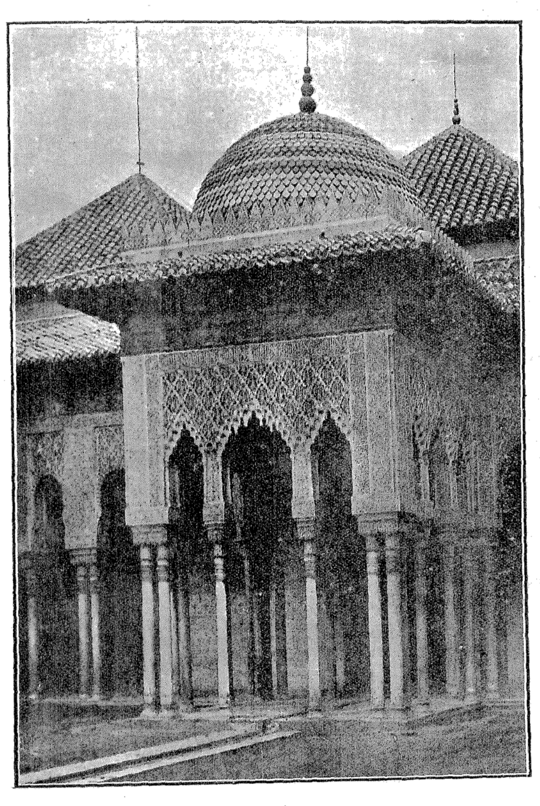
ولم يزل امر مسلمي الاندلس في عزة ومنعة الى زمن السلطان ابي الحسن المريني الذي استنفر مسلمي المغرب الى غزو الاسبان، واجاز الى طريف بجيش هائل سنة ٧٤٠ . فقصده ملك قشتيلة بجيوشه من البر، وحاصره ملك البورتغال بأساطيله من البحر، وضيقوا عليه الحصار من كل جهة حتى نفدت الاقوات، وصار هو وجيشه في اسوأ الحالات، ثم هجم عليهم الاسبان وهم في غفلتهم

فقتل منهم عدداً لا يحصي ، وفر السطان ابو الحسن الى سبته . وكانت هذه الموقعة من اشأم مانكب به المسلمون ، وهي ثانية واقعة العقاب ؛ ولم تقم للمسلمين بعدها قائمة في الاندلس ! !

بعد ذلك ضربت ملوك النصرانية الجزية على مسلمي الجزيرة، وماز الوحتى اذا آنسوا من ملوك المغرب وقوع الشقاق بينهم ، وشيوع الثورات في داخليتهم، واشتغالهم بأنفسهم، وشبوب نيران الفتنة بينهم وبين بنى حفص ملوك تونس ، خاطب ألاسبانيون البابا في طرد المسلمين من غرناطة، فاقرهم على ذلك. وهنا لك فكروا في الحيلولة بين مسلمي المغرب والاندلس وذلك باحتلالهم ثغور العدوه : فاستولى البورتغاليون على سبتة في سنة ٨١٨ ، واستولى الاسبانيون على جبل طارق في سنة ٨٦٩، ثم على مدينة بونه سنة ٨٦٧ ، واعقب ذلك استيلاء البورتغاليين على قصر المجاز في سنة ٨٦٢ ، وعلى طنجة في سنة ٨٦٩ ، وعلى اصيلا فى سنة ٨٧٦ﻫ .

وكانت حالة المغرب فى هذه الآونة في شدة الاضطراب لاستمرار الحروب بين أفخاذ بني مرين ، وعلى الخصوص أيام السلطان عبد الحق بن سعيد ، فانه لضعفه وصل اليهود في زمنه الى منصة الوزارة واصبحت لهم الكلمة النافذة : فارهقوا المسلمين واوقعوا عليهم كثيراً من المظالم والمغارم ، وحسنوا لابن سعيد الوقيعة ببني وطاس وهم فرع من بني مرين وكان منهم وزراؤه وعظماء دولته . فقبض عليهم وقتلهم ، وفر منهم الشيخ محمد الوطاسي الى الصحراء فالتفت به قبائل البربر وساروا الى فاس فاستولى عليها سنة ٨٧٦ ، وبقي سلطانا على المغرب الاقصى الى ان مات في سنة ٩٦٠ . وفي مدته وفد عليه السلطان ابو عبد الله بن الاحمر مع عائلته بعد تسليمه غرناطة فأكرم وفادته .

ومن هذا تعلم أن استيلاء الاسبانيين على ثغور المغرب جعل مسلمي الاندلس في عزلة عن كل معين ، وأصبحت دولة غرناطة محصورة باساطيل العدو من جهة الجنوب والشرق ، وبجيوشه البرية من جهة الشمال والغرب . وما زالوا ضيقون عليه دائرة الحصار حتى استولوا على غرناطة سنة ٨٩٧ .



منظر قاعة الحكم بقصر الحمراء

ولقد كان عقلاء المسلمين بغرناطة قبل سقوطها باكثر من قرن يتوقعون لها هذا المصير: فان ابن خلدون كان يتوقع سقوطها من يوم الى آخر فى يد العدو لفساد اخلاق اهلها ولتقاطع الروساء وتنابذ الامراء. وكان ابن الخطيب يقول لاولاده انها اصبحت دار غربة ويوصيهم بعدم التوسع فى شراء العقار بها.

وكان بعض شعرائهم ينصحون لهم بالهجرة من الاندلس لتوقع نكبة الاسبان لهم فيها ومن قولهم في ذلك :

حثوا رواحلكم يا اهل اندلس   فما المقام بها الا من الغلط
السلك ينثر من اطرافه وأري   سلك الجزيرة منثورا من الوسط
من جاور الشر لا يأمن عواقبه   كيف الحياة مع الحيات في سفط

ولقد تحققت نبوتهم. ولما استولى ملوك الاسبان على غرناطة اوقعوا بالمسلمين ثم مازالوا حتى طردوهم من ديارهم، واصبحوا ينطبق عليهم قول عمر بن الحارث شيخ جرهم :

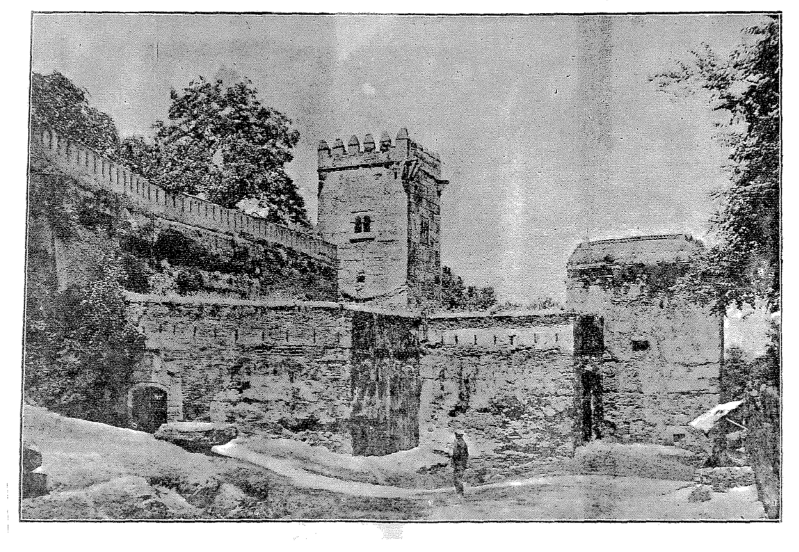
كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا   أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا   صروف الليالي والحدود العواثر

ولما استولى الاسبانيون على غرناطة ووافق هذا الوقت استكشاف كولمب لامريكا، اهتموا بقوتهم البحرية وعنوا عناية شديدة بانشاء الاساطيل وتعزيزها بالرجال الذين لهم دراية بالحرب. وأخذت بحريتهم مدة شرلكان تخرج من جنوه ومن ثغور اسبانيا الشرقية والجنوبية، وتقطع الطريق على مراكب المسلمين التجارية. وفى سنة ٩٢٠ استولت على بجايه ووهران ومدينة الجزائر. وأنشأ الاسبان على سواحل المغرب حصونا ومعاقل كثيرة.

وكان لاربعة اخوة من تجار الاتراك بعض السفن. وكانت مراكب الاسبان تعبث بها فضاقت صدورهم واتفقوا مع محمد الحفصي سلطان تونس على أن يعطيهم ثغراً من ثغوره يلجأون اليه بسفنهم، ويتعقبون سفن الاسبانيين ويمنعونهم من التطاول الي بلاده، ويعطونه خمس ما يغنمونه منهم. وكان أحد هؤلاء

الاخوة واسمه خضر في منتهي الشجاعة ويسميه الافرنج باربا روس (ذا اللحية الحمراء) ، وكانت له معرفة تامة بالطرق البحرية . فأخذ يتعقب سفن الاسبانيين حتى استولى منهم على بجايه ثم على ثغر الجزائر سنة ٩٢٢ ، وبعث بمفاتيحها مع هدية ثمينة الي السلطان سليم الاول العثماني . فأرسل اليه السلطان بتعيينه وزيراً على الجزائر ، وبعث اليه بأسطول من أساطيله وبفرقة من العساكر العثمانية ، فاستولي بمساعدتهم على اقليم الجزائر جميعه . وأخذ أسطوله يجوب مياه البحر الابيض فألقي الرعب في قلوب الاوروبيين . ثم سار الي سواحل اسبانيا وأنقذ كثيراً من المسلمين الذين كانوا يرزحون تحت عبودتهم للاسبان . فانضم الى أسطوله كثير منهم وأبلوا بلاء حسناً فى حروبهم مع الدونامة الاسبانية التى كانت تحت قيادة أميرهم البحرى الشهير اندريا دوريا .

وباربا روس هذا هو الذي تسمي أخيراً باسم خير الدين باشا الذي ولاه السلطان سليمان القانوني رئاسة البحرية العثمانية . واشتهرت فى مدته بحروبها وانتصاراتها على دونامات أوروبا المتحدة . ولولاه لكانت اسبانيا تغلبت على جميع ممالك الغرب مدة الملك شارلكان الذي جمع كلمة أوروبا على حرب المسلمين براً وبحراً . فانتصر عليهم السلطان سليمان فى الاولي ، وخير الدين في الثانية . وأعقب ذلك استيلاء العثمانيين على طرابلس سنة ٩٥٠هـ ، ثم على تونس فى سنة ٩٨١هـ . ولم يزل العثمانيون مستولين عليها حتي تم استيلاء فرنسا على الجزائر سنة ١٢٥٤هـ ، ثم احتلت جيوشها تونس سنة ١٢٩٨ . وأعقب ذلك استيلاء ايطاليا على طرابلس في سنة ١٩١٢ م والله تعالى يرث الارض ومن عليها بيده الامر يعز من يشاء ويذل من يشاء ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .



القصبة أو قلعة الحمراء وهي اقدم بناء لبني الاحمر في غرناطة

الرسالة السادسة

دخول العرب اسبانيا

لما ثبتت قدم موسى بن نصير في ولايته على طنجة ارسل طريفا مولاه ومعه ثلاثمائة رجل من العرب ، فنزل بالمكان الذي تسمى باسمه في الجنوب الغربي من الجزيرة ، فغزا البلاد القريبة من الشاطىء ، ورجع غانما من غير أن يعترضه أحد من الاسبانيين ، وسهل على ابن نصير امر الفتح. فامر مولاه طارقا سنة ٩٢ ه بالاجازة الى بلاد الاندلس فركب البحر لوقته ومعه ثلاثمائة من العرب وتبعهم عشرة آلاف من البربر ، وطلع على لسان الجبل الذي تسمى باسمه وزحف على الاندلس . فقابله الملك لذريق بجيوش القوط ، فهزمهم طارق فى واقعة شريش ، ومات لذريق بها من جراحه . وما زال طارق يتقدم في الفتح حتى وصل الى طليطلة . وكتب الى مولاه موسى بذلك . فاجتاز هو ايضاً لوقته بجيش من البربر ، وطلع على الجبل الذي تسمى باسمه (جبل موسى) بجوار الجزيرة الخضراء ، ولحق بطارق ، وما زال يتقدم في فتوحاته حتى وصل الى برشلونة . ثم رجع الى المغرب ومعه طارق بعد ان رتب امور البلاد وعين حاميتها على ثغورها . وجعل ابنه عبد العزيز واليا عليها تابعاً لولاية المغرب وجعل مركزه قرطبة وكانت ولاية المغرب تابعة لولاية مصر .

وجبل طارق هو تلك الصخرة التى تمتد الى البحر فى جنوب اوروبا الغربى وطولها ٤٥٠٠ متر ، وعرضها ١٤٠٠ متر ، وتكوّن مع اللسان الذي يمتد من الشمال الغربي لافريقيا خليج الزقاق الذي اشتهر ايضاً ببوغاز جبل طارق ، وهو يفصل ما بين البحر الابيض المتوسط والاقيانوس الاطلانطي ، ومسافته فيما بين سبته وجبل طارق ٢١ كيلو متراً : وهى التى عدى منها طارق الي اسبانيا .

وترى على الدوام تيارا شديداً يدخل من المحيط الى البحر الابيض وفى غالب أيام السنة يتكاثف فى جوه الضباب الذي هو من لوازم هذا الاقيانوس

بحيث لا تمر فيه المراكب الا على حذر شديد ، ويكاد صفيرها لا ينقطع خوفا من مصادمتها بما عسى ان يكون امامها من مراكب اخرى . ولقد ركبت هذا الاقيانوس في سفرى الى بلاد الانكليز من طريق البحر غير مرة . وكثيراً ما كان يخيم الضباب على مركبنا حتى كنت اذا مددت يدي الى عيني لا أرى منهـا الا خيالا اشبه شيء باثر اشعة رنتجن : وهنا لك تحقق لي معنى المثل المشهور « ظلام لاترى كفك فيه » . وخطر ببالي ان هذا هو علة تسمية العرب للاقيانوس الاطلانطي ببحر الظلمات . وقد يستمر هذا الضباب اياما متوالية وهنالك تـكون خطورته على المراكب التى تقطع البحر الى امريكا . وحسبك انه كان سبب غرق السفينة تيتانيك قبيل الحرب العالمية وهي تلك السفينة الهائلة التاريخية التى يعد غرقها من اكبر الخسائر على الانسانية بما كانت تحمل من رجال علم وعمل،وما كان في جوفها من الاموال والتحف التى تقدر بملايين الملايين .

ومن ذلك ترى ماعاناه طارق في اجازته مع رجاله خليج الزقاق ومعهم خيلهم واداة حربهم ومؤنتهم ، خصوصا أنهم كانوا يجيزون الى عدوهم فى فلك لم تـكن موافقة ولا واقية . ولـكن الله تعالى وقاهم شر البحر والبر سبحانه يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

من يقول ان شرذمة قليلة من العرب تقطع البحر من افريقيا الى اوروبا سنة ٧١١ م وتستولى على الاندلس ، ثم على اسبانيا والبرتغال، وتجتاز جبال البرينيه على مناعتها وما فيها من قمم عاليات ومفاوز وهاويات ومثالج ومعارج لا يقطعها غير العارفين بمساربها ومنافذها، ثم يدخلون ارض فرنسا ويكتسحونها الى بواتييه وهي على بعد ٣٣٠ كيلو متراً من الجنوب الغربي لباريس وكل ذلك فى عشرين سنة؟ ؟

ولولا أنهم شغلوا في ذلك الوقت بما نالت أيديهم من الغنائم والاسلاب وما وقع فى حوزتهم من الاموال التى ناءت بها كواهلهم لما تيسر لشارل مارتيل

الذي نادى فى أوروبا بالحرب الصليبية ،فهرع اليه الناس من كل فج حتى امكنه ان يكسرهم سنة ٧٣٢ في هذه الواقعة التي مزقت جيوشهم في فرنسا والجأتهم الى العودة الى اسبانيا . فاناخوا بها وجعلوها وطناً جديداً وانشأوا فيها ملكا مجيداً بقي أكثر من ثمانية قرون انتهت بخلافهم على الملك واستنصارهم بعدوهم بعضهم على بعض !! حتى خارت قواهم وضعفت عزائمهم وأصبحوا من المستضعفين !! وانتهى أمرهم بأن طردهم الافرنج من جزيرة الأندلس ومزقوهم كل ممزق !!

اني على الكل أمرلا مرد له حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا

واذا كان للأفراد مكروبات تدخل جسومهم فتقودها الى الموت، فالخلاف هو مكروب الامم اذا دخلها قادها الى الضعف ثم الى الفناء . وأظن أننا جربنا ذلك فى أنفسنا أخيراً حتى كادت تنمحى به صحيفة قوميتنا من عالم الوجود . والامم على كل حال ضحية اختلاف الرؤساء في كل وقت وفي كل حين !! وليست للتاريخ من عبرة ولا للايام من موعظة بل التاريخ يعيد نفسه : وغدك أشبه شيء بيومك ويومك أشبه الايام بامسك : سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ومن باب زيادة الفائدة أقول لك شيئاً عن تاريخ جبل طارق الذي تمتد عليه الآن الاستحكامات الانجليزية في طول ثلاثة كيلو مترات، ثم تنتهي بمنطقة حرة قدرها ٥٠٠ متر قبل اتصالها باراضي اسبانيا، ومن دون هذه الاستحكامات مدينة جبل طارق التي بناها وشيد حصونها عبد المؤمن أمير الموحدين سنة ٥٥٥ . وعدد أهلها الآن ٢٠ الف نفس وابنيتها متدرجة على البحر وعلى مسافة ٨٠٠ متر من الشمال الغربي للاستحكامات الانكليزية . وأهل المدينة غالبهم من الاسبان ومنهم كثير من اليهود ، وهى كثيرة الحرارة في الصيف بما لا يقل عن ٤٠ درجة سنتجراد، لذلك ترى أهلها يكثرون من شراب الليمون كما يكثر أهل مدن اسبانيا بصفة عامة من شراب البرتقال ويسمونه نارنجا .

وهذه المدينة على الدوام مغطاة بالضباب وفي حالة حصار . وهي في يد الانكليز

من سنة ١٧٠٤ م حيث استولى عليها السير جورج روك الذى كان يقود الدونما الانكليزية من غير أن يطلق عليها طلقا واحدا. وكان ذلك باشارة الرئيس كراموبل الذى كان يرى حصانة هذا الموقع وتحكمه في البحرين. وفي سنة ١٧٨٣ حاصرت فرنسا واسبانيا جبل طارق، ولكن الانكليز تغلبوا على جنودهما وطردوهم من هذه المنطقة. وهم من ذلك الوقت متسلطون على البحرين بل على سواحل القارات الثلاث مما يلى البحر الابيض المتوسط.

ولهذه المدينة ذكرى مؤلمة في نفس كل مصري منذ نفى الانكليز اليها سعد زغلول باشا زعيم الحركة القومية في مصر لغير سبب اللهم الا قيامه للدفاع عن حقوق وطنه.

للعبرة والتاريخ

بعد أن ترك موسى بن نصير الأندلس الى المغرب بالغنائم والاسلاب التى لا يحصيها العد، وصل اليه أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك بالاسراع اليه بما في يده من الغنائم. وكان المرض قد اشتد به حتى أصبح لا أمل في شفائه. ولكن أخاه سليمان وهو ولي الامر من بعده أرسل الى موسى يستبطوءه في سيره رجاء أن تصير الغنائم التي معه لنظره وأمره. غير أن موسى لم يكن أمامه غير الأذعان لأمر خليفته الذي تجب طاعته، اذعانا يأمر به الدين والعقل جميعاً: قال الله تعالى «يأيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم». وأسرع موسى في سيره حتى وصل الى دمشق قبل موت الوليد بثلاثة أيام. فلما ولي سليمان الخلافة، أمر بالقبض عليه وبحسابه حسابا عسيرا كان من ورائه نكبته، (١)

---

(١) يظهر أن سليمان كان مريضاً بنكبته لكل نابغ من قومه: فانه بمجرد جلوسه على كرسي الخلافة نكب ابن نصير وهو الذي مهد للاموية بلاد المغرب والاندلس، ولم ينصف طارقا صاحب الفتوحات العظيمة باسبانيا ثم قضى على آل الحجاج بن يوسف وهم الذين مهدوا للامويين الحجاز والعراق وخراسان وليس لهؤلاء من ذنب الا كونهم من رجال اخيه الوليد بن عبد الملك. ولقد كانت نكبتهم سببا لخروج قتيبة بن مسلم والى خراسان على سليمان لخوفه منه وما زال في ثورته حتى قتل.

لاشيء الا أنه اطاع أمر من كان له الأمر اذ ذاك . وأعقب هذا مصادرته في كل شيء : مصادرته في ماله ، في حريته ، في نتائج انتصاراته الباهرة التي أن نسيها له سليمان فان التاريخ لا يستطيع أن ينساها . وبعد هذا كله أقسم سليمان بأنه لا يخرج من محبسه الا اذا اشترى نفسه بخمسين الف دينار لم يكن يملك منها قليلا ولا كثيراً !! وما زال في سجنه حتى دفعها عنه يزيد بن المهلب ليد كانت له عنده . ومات موسى منفيا في المدينة سنة ٩٨ هـ وهو في محنته بائساً فقيراً بعد أن مات قبل موته ما كان له من مواهب جليلات ، وصفات ساميات ، حرم الاسلام من الانتفاع بها ثلاث سنوات أو تزيد !!

ولم تقف نقمة سليمان عند شخص موسى بل تعدته الى ولده عبد العزيز والى الأندلس ، فقد دس عليه من قتله في شوارع قرطبة ، على ما كان فيه من دين وعلم وشجاعة وبعد نظر وحسن ادارة : وذلك خشية اثثاره لوالده . بل تعدتها نكبة سليمان الى كل بني نصير !!

وبالجملة فقد كان قيام موسى بهذا الواجب سببا في نزوله من سماء المجد والعز الى حضيض الذلة والهوان . وما كان احراه لو كان اطاع سليمان أن يكون خائنا لمولاه مخالفا لامر الله ، بائعا محمدة يومه بمنقصة غده . ولو كان موسى يعرف غير الطاعة في حقيقتها لكان امكنه ان يعتذر باي عذر عن السير الى المشرق . ولو وصل

ولقد كان سليمان في نكبته لاعاظم دولته مثالا رديئا للخلفاء من بعده : فقد قتل يزيد ابن عبد الملك يزيدا بن المهلب . ونكب الوليد بن يزيد خالدا بن عبد الله القسري . وكل هؤلاء من الافذاذ الذين لم تأت بطون امهات العرب بامثالهم : وهم الذين لهم اليد الطولى في فتوحات الامويين وتوطيد دعائم ملكهم . وبموتهم ماتت الدولة الاموية في الشرق ولم تقم لها بعدهم قائمة .

وقد حذا العباسيون حذو الامويين في محنتهم للرؤساء واعاظم القواد : فعمل السفاح لقتل مسلمة بن الخلال ، وقتل المنصور أبا مسلم الخراساني بعد ان قامت على رأسيهما وبايديهما الدولة العباسية . ثم نكب يزيد بن هبيرة بعد أمانه له . ونكب المهدي وزيره يعقوب بن داود . ونكب الرشيد البرامكة . ونكب المعتصم وزيره الفضل بن مروان . ونكب المتوكل الوزير بن الزيات . ونكب الراضي وزيره بن مقله : وكلهم من خيرة رجال الدولة العباسية الذين كان على ايديهم رقيها وعظمتها .

بعد نظره الى ما آل اليه امره لكان أعلن استقلاله بالبلاد التي افتتحها بسيفه وهو في أمن من نقمة الخليفة لبعد الشقة وصعوبة المواصلات . ولكن اذا كان سليمان بن عبد الملك قد ظلم موسى في نكبته اياه ظلماً لا يغتفره له التاريخ ، فهل انصف موسى مولاه طارقا بعد فتحه للاندلس ؟ ام نكبه هو ايضا حتى خفي أثره وانقطع خبره لحسده له على ما آتاه الله من فتح مبين ظهرت فيه مواهبه السامية ، وعبقريته النادرة ، وبلاؤه الحسن ، ماسجلته له الايام ونقشت اسمه بمادة الجلال والفخار على صفحة ذلك الجبل الذي يشرف شمالا وجنوبا على القارتين اوروبا وافريقا ، وشرقا وغربا على البحرين الابيض والاطلانطيق .

الرسالة السابعة

الاندلس مدة الامويين

استولى العرب على اسبانيا وهم لا يملكون شيئاً . وكانت وجهتهم الفتح ، وفكرتهم ممتلئة بعظمة الدين وفضيلته ، ونفوسهم تترفع عن الدنايا ، وأيديهم تعف عن أموال المغلوبين ، وقلوبهم كلها رحمة بهم : لهذا كله كانت أقوى الجيوش لا يمكن أن تقف أمام قلوبهم الحديدية التى كانت متى اتجهت الى شىء فتتته مهما كانت قوته وصلابته . بل كانت البلاد تفتح لهم أبوابها لما عرفته فيهم من العدالة والابتعاد عن كل مظلمة ، ولان الجزية التي كانوا يضربونها عليها كانت أقل من الضرائب التى كانت تأخذها ملوكهم منهم . ولما اتسعت فتوحاتهم وعظم ملكهم وضخمت ثروتهم وضربوا بجرانهم في الاندلس (وكانوا يطلقونه على املاكهم باسبانيا والبرتغال) عنوا بكل أسباب الحضارة : فاهتموا بالزراعة وشقوا الترع وحفروا الخلجان وغرسوا الاشجار ومهدوا المزارع ونظموا المروج ورتبوا الرياض وتسابقوا في تشييد الدور وتعلية القصور حتى أصبحت هذه البلاد بهم جنة قطوفها دانية ، وثمراتها جانية . وكان الناس على اختلاف طبقاتهم ينعمون في مهاد الثروة وما يحيط بها عادة من اللذائذ المتباينة . ووصلت الخلافة الاموية الغربية فى ذلك الوقت الى مالم تكن تحلم به العرب من عظيم السلطان وجسيم الثروة ووافر الحرمة وواسع العمران وبارق الحضارة ، الى حد جعل العربي الذي وصلها وليس في وفاضه غير لقيمات من الشعير يسد بها جوعته ، وعلى جسمه لباس خشن يستر عورته ، أصبح يرفل فى الدمقس والحرير ويا كل الحلوى والفطير ، ونسي ما كان يسمع عنه في الكتب من فيلوذج الدولة الشرقية بالالمازية الغربية .

وقد بلغت عظمة السلطان في اسبانيا الى اوجها في مدة عبد الرحمن الناصر

الأموي ، وهو السابع من أمرائهم وأول من سمي بأمير المؤمنين في هذه البلاد ، وكانوا يشبهونه بالرشيد لضخامة ملكه وفخامة دولته وعظيم ارادته وكبير سياسته وواسع علمه وكرمه. كما كانوا يشبهون ولده الحكم بالمأمون لما كان له من ذهن حاضر وعلم وافر ونظر ثاقب ورأى ناضج وعقل راسخ ومجد باذخ ولاهتمامه بالشؤون العلمية وعنايته بنشرها في بلاده باكثاره من معاهدها واستقدامه لكتبها المختلفة من كل جهة من جهات الشرق ، حتى كون مكتبته التى كان فيها مئات الالوف من الكتب الثمينة النادرة . وبحكمها قامت العظمة الاسلامية فى هذه البلاد بكل مظاهرها، من فتوحات موفقة وثروة متدفقة وعلوم جمة وفنون مهمة واملاك شاسعة وتجارة واسعة وصناعة باهرة وزراعة ناضرة وحضارة ومدنية لم ير مثلها في الاندلس في أيامها السابقة ولا اللاحقة . وكانت ملوك الفرنجة المتاخمين لارضهم يدفعون لهما الجزية عن يد وهم صاغرون.

ولقد كانت مدينة قرطبة عاصمة الاندلس زهرة البلدان فى الغرب، كما كانت بغداد زهرتها في الشرق، وكانت شمسها تنبعث منها أشعة العلوم والعرفان والمدنية بجميع مظاهرها وظواهرها الى كل نقطة من المسكونة شرقية أو غربية . وكانت بغداد ودمشق وخراسان والاستانة ومصر وغيرها من العواصم المشهورة تحمل اليها ما اكتمل من صناعاتها ونادر كتبها ومختلف تحفها لبيعها في اسواقها الغنية التي كانت تكتظ بالاموال والهواة من النساء والرجال . لذلك كانت مدنية التوم تأخذ بطرف من مدنيات هذه البلاد ، وهى اذا ظهرت لك شرقية من جهة ، بانت عليها مسحة تتفق مع الذوق الاوربى من جهة أخرى : سواء في صناعتها او فيما فيها من فن ونقش ورسم وتصوير .

ولو نظرت الى شعرائهم وكتابهم لوجدت لهم صيغا خاصة بهم البسوها معاني جديدة جمعت بين حسن الصنيع ولطف البديع . ولو نظرت الى علمائهم لرأيتهم بعيدين عن الجمود الذي تراه في غيرهم . ولو نظرت الى فلاسفتهم لوجدتهم قد صاغوا من فلسفة ارسطو وافلاطون ما كان أساساً للفلسفة الجديدة التي بنى كانت

وديكارت و بيكون و اسبنسر عليهافلسفتهم التي تتألق أشعتها الآن في أوروبا. ولو نظرت الى موسيقاها و اغانيها التي يسمونها بالاندلسيات تراها تتملك اللب وتأخذ بالقلب وتستهوى العقول بنغماتها المشجية. واذا سمعت نغماتها الحالية خصوصاً تلك القطعة التي يسمونها (والنسية) التي لها كبير التأثير حتى على عظماء علماء هذا الفن في أوروبا عرفت انها أثر من تلك الاغاني العربية القديمة التى وضع قواعدها زرياب .

وكان زرياب من أعلام المغنين بالشرق أخذ الغناء عن اسحاق الموصلى وتفوق تفوقاً كبيراً خاف على أثره من معلمه اسحاق لقربه من الخليفة الرشيد، فهاجر الى الأندلس ووصل اليها مدة عبد الرحمن بن الحكم فبالغ فى اكرامه وأفاض عليه من انعامه، بما كان يقدر دخله بأربعة آلاف دينار، وجعله عمدة المغنين . وقد رقى رزياب صناعة الغناء بالأندلس واخترع للموسيقى نظاماً جديداً وأضاف على العود وتراً خامساً وكان قبله على أربعة أوتار فقط، ولا يزال على وضع زرياب الى هذا الوقت . ووضع طرقاً للغناء أصبحت علماً خاصاً اشتهرت به الاندلس لتفوقها فيه ولا يزال أثره فيها الى الآن .

والرقص الاسبانى الحالى هو ذلك الرقص العربي اتصلت به خفة الراقصات ورشاقتهن وتفننهن في حركاته، في جيئاته وروحاته . وبالجملة فقد انتهى القرن العاشر المسيحي بعظمة الحكم الأموي بالاندلس، بعد أن استمر ثلاثة قرون مصدرا لكل أنواع المدنية، ومظهراً لعظمة الحضارة الاندلسية، في كل طرف من اطراف المسكونة . ولقد كانت المكتبات العمومية والخصوصية مدة حكمهم غاصة بنفائس الكتب، ولولا ماصادف كتب الاندلس من نكبات التحريق والتمزيق من العامة في أواخر الحكم الأموي وخصوصاً مدة المرابطين والموحدين بدعوى أن فيها فروعا تخالف الاصول فيجوهرها، وان مافيها من قواعد الفلسفة يخالف قواعد الدين، لكان ماوصل الينا منها أكبر برهان على أن القوم قد وصلوا الى سنام مجد العرفان، في ذلك الزمان . وأكبر النكبات التى صادفت الكتب في الغرب هى تحريق النصرانية لها بعد استيلائهم على غرناطة : فقد احرق

في هذه المدينة وحدها بأمر الكاردينال اكشمنيس ٨٠ الف مخطوط عربي وهى نكبة أشبه شيء بنكبة الكتب في الشرق في منتصف القرن السابع الهجري حيث أمر هولاكو بعد استيلائه علي بغداد بأن يعمل منها جسر في الدجلة لجواز جيوشه عليه من شاطيء الى آخر .

وكانت المدارس في عهدهم عامرة بالتلاميذ ، والمعاهد العلمية مكتظة بالطلبة من سائر الاقطار . وكم قد تخرج من هذه المعاهد من فحول علماء المسلمين في كل فن وفى كل علم : أمثال ابن رشد في الفلسفة وابن زهر فى الطب وابن فرناس فى الرياضيات وابن زيدون في الأدب وابن أبي عامر فى الانشاء وابن حزم وابن باجه في الفقه والشاطبي في القراءات وغيرهم وغيرهم ممن يضيق المقام عن ذكرهم . وللآن نقرأ أسماء من انتسب منهم الى مدينته كالقرطبي والاشبيلي والمالقي والبطليوسى والمجريطي وغيرهم من العلماء الاعلام الذين لهم قدم صدق فى الاسلام .

وكان البابا سلفستر الثاني وليون الثمين أحد ملوك الاسبان من خريجى جامعة قرطبة . وبالجملة فقد كان أمر هذه المدرسة في الغرب كما كانت مدرسة الاسكندرية في الشرق وهى فى أبان عظمتها : يؤمها الطلبة من كل فج حتى من الرومان واليونان . وكما هو الحال اليوم في مدارس اوروبا التى تقصدها الناس من كل جهات العالم للتعلم فيها . تلك سنة الخليقة : يقلد الضعيف القوي حتى فى مأكله ومشربه ولباسه . وقد يذهب بعض من لاخلاق لهم الى تقليده فى الضار لا في النافع ولله في خلقه شؤون .

وكانت ملوك اوروبا تستقدم الاطباء من العرب وتستشيرهم سواء كانوا من المسلمين أو اليهود . والعرب أول من نظم البساتين لدراسة النباتات فى أوروبا . وتنسب لهم جامعة مونبلييه الطبية بجنوب فرنسا وهى لاتزال شهرتها معروفة في مصر ، ويقصدها الآن كثير من الطلبة المصريين .

وقد بنى الخلفاء الامويون قصور الزهراء خارج قرطبة . وكانت آية من آيات الزمان . بل جنة من جنات الخلد . وصل التأنق في مبانيها ونقوشها وفرشها

وأثاثها ورياشها الى ماذكره مؤرخو العرب بما يعسر على العقل تصوره . ومن عجيب ما كان فيها بحيرات من المرمر يتفجر ماؤها من أفواه طيور من الذهب . وكان يحيط بالبحيرات تماثيل أسود من الذهب ينزل الماء من أفواهها الى بساتينها التي كانت في نظامها تدهش الابصار وتبهر الانظار .

وكان في ابهائها الكبرى صور ورسوم كثيرة للجمال النسائي فى جملة اوضاع تلفت الساجد وتفتن العابد . والى جانبها كثير من مناظر الصيد من حمر وحش وسباع وغزلان وطيور في صور مختلفة . وبالجملة فقد كانت الزهراء مما لا يمكن لواصف وصفه . ولقد اتى الحريق على أغلب مبانيها زمن المهدي بن هشام بن الحكم . وقضى على باقيها الجهل ثم القوط بعد استيلائهم على المدينة ، ولم يبق منها الآن غير اطلال تنعي ما كان فيها من عظمة وجلال ، وما كان بين جدرانها من فخامة وجمال . ولقد بنى المنصور بن ابي عامر بقرطبة قصر الزاهرة وكان آية فى عظمته وحسنه وقد محته يد الزمان وسبحان من تفرد بالبقاء .

وقد عثروا سنة ١٩١٠ في اطلال الزهراء على آجر مكسي بطبقة من الذهب وعلى أشياء كثيرة عليها صور طيور وسباع بل وصور نساء عاريات مما يثبت ماجاء في التاريخ عن مدنية (١) الامويين بالاندلس .

---

(١) جاء في خطبة المسيو لاجيير دو مستيم LEGIERE DE MISTEYME في مؤتمر المستشرقين بمرسليا سنة ١٨٧٦ : «أن القوط في هجومهم على فرنسا تحت قيادة ألاريك في مبدأ القرن الخامس المسيحي لم يتركوا اثرا في البلاد التى افتتحوها . اما العرب فقد تركوا في البلاد التى احتاوها اثراً لا يزالون يذكرون به الى الآن : لانهم لم يقتصروا على ادارة شؤن هذه البلاد التى وضعوا يدهم عليها مثل ناربون . وبروفانس وغيرها . بل قاموا بعمارتها في وقت كانت دولتهم قائمة على اساس متين من الحضارة والمدنية . ولقد كان شانسو (شانجه) امير ليون يذهب الى بلادهم لاستشارة اطبائهم بالذات . كما ان الراهب جربير GERBERE تعلم في مدارسهم قبل ان ينتخب لكرسي البابوية باسم سلفستر الثانى . وكذلك بطرس فنرابل PIERRE LEVENÈRABLE . وقسيس كولونى L'ABBÉ DE CLUNY تعلما في مدارس قرطبة . والى القرن الخامس عشر ما كانت فرنسا تعرف اسماء المؤلفين اليونانيين الا من طريق ترجمة كتبهم في اسبانيا الاسلامية . وقد اخذت فرنسا عنهم العلوم المختلفة ، واساليب الزراعة وتعلمنا منهم حفر الترع والخلجان ، ونظام الري ، واخذنا منهم حاصلات الشرق من الحبوب

ولما زادت الرفاهية عن حدودها استسلم الخلفاء الأمويون فى آخر أمرهم الى ملاذهم وأخذوا يحتجبون عن الناس في قصورهم . وكان اذا حضر المنشدون

والاشجار والنباتات التى زاولوا زراعتها في الاندلس وعالجوها حتى صارت صالحة للزراعة في أوروبا .

وللآن بين ايدينا من اعمالهم منسوجات ثمينة جدا في كنيسة سان تروفيم S. TROPHIME بأرل . وفي سانت سيزير . وسانت آن في مدينة آن ، الى ان قال — وفي القرن العاشر دخلت النقوش الرومانية الى بلادنا بواسطتهم . وان العالم مسيو ريفوال اكتشف في كنيسة القديس بطرس تورب أرل نقوشا عربية جميلة جداً ، ثم قال — ان الدم العربى لا يزال في جنوب فرنسا وخصوصا في سيرست SERESTE وفي بلاد اخرى من جبال الالب . وقد وجد العالم الدكتور جوس D، GOSSE في السفوا وفي سويسرا وعلى بحيره كونستنزا اناسا كثيرين صورهم شرقية وسحنهم عربيــة صرفة ولهم لغة خاصة بهم ولا يزال اهل تلك الجهات يسمونهم الشرقيين او أبناء الوثنين . FILS DE PATINS

وقد جاء بمقال في السياسة الاسبوعية في اول يناير سنة ١٩٢٦ بامضاء م . ج . يس ماملخصه :

« ومدينة كوزيليه القريبة من كونترا كسفيل لا يزال اهلها في عزلة عن الفرنساويين ولا يتزاوجون الامن بعضهم ولهم لغة خاصة بهم ومن عاداتهم انهم لا يقيمون المراقص في احتفالاتهم ومعظم نسائهم محتجبات ولا يزال في كثير من اسمائهم لفظ « الله » كعبد الله وفتح الله . وهم يحفظون نسبهم ويفتخرون بانهم من سلالة الفاتحين — الى أن قال : « والعرب هم الذين ادخلوا صناعة الابسطة والسجاجيد الى مدينة اوبسون واقتبس الفرنساويون منهم انشاء السفن » .

وانا لو عرفنا ان مدينة كوزيليه بجبال الفوج ، وان العرب وصلوا في فتوحاتهم الى اقليم بروفانس وهو عبارة عن المنطقة التى بين نيس ومرسليا الى الدوفينيه شمالا ولنجدوك غربا وكان مستقلا ولم ينضم الى حكم فرنسا الا في زمن شارل الثامن، ثم نهضوا الى الشمال واستولوا على مدينة بيزانسون ، عرفنا ان هؤلاء الفاتحين قد انقطع عليهم خط رجعتهم بعد هزيمة اخوانهم في بواتييه . فاقاموا في هذه الجهات الجبلية في منطقة دفاع حتى آل أمرهم بالصلح مع اهل البلاد على أن يقيموا في المدينة التى كانت في ايديهم . ومن ثم اشتغلوا بالزراعة التى لم تكن معروفة في تلك الجهات واندمجوا في اهلها على مر الايام وان كانت لا تزال عليهم مسحة شرقية صرفه في سحنتهم ولغتهم وعاداتهم تكاد تميزهم عن غيرهم . والذي يدعونا الى هذا الفرض هو كونهم لا يزالون يسمون ابناء الفاتحين .

وقد يكون هؤلاء العرب وصلوا الى تلك الجهة بعد طردهم من اسبانيا لان فرنسا فتحت لهم ابوابها في اواخر القرن السادس عشر مدة الملكة ماري دومسيس . فانتفعت بهم انتفاعا ماديا وادبيا .

أو السفراء تكلموا من وراء حجاب ويقف الحاجب من دون الستر فيكرر مايقولونه ، ثم يجيبهم بما يقول الخليفة .

ومن ذلك ان ابن مقانا الاشبوني القى قصيدة له على مسمع من الخليفة المحتجب ادريس بن يحيي الحموي قال فى آخرها :

انظرونا نقتبس من نوركم   انه من نور رب العالمين

فرفع الخليفة الستر وقابل وجهه بوجهه وأجازه جائزةحسنة .

ويظهر أن هذه الحالة بقيت مستمرة فى ملوك المغرب الى زمن قريب : سمعت استاذنا المرحوم الامام الشيخ محمدعبده يقول : أنه في زيارته الى تونس ذهب لمقابلة سمو الباى . فوقف بينهما ترجمان فكان اذا قال الشيخ جملة كررها الترجمان الى الباى ، واذا قال الباي شيئاً كرره الترجمان للشيخ . حتى انتهى الحديث بهذه الواسطة وكل ذلك باللغة العربية . ومع أني لا أفهم معنى لوجود الترجمان هنا وهناك فقد تكون الحال فى الامرين ليست بواحدة : لانه كان فى عهد الخلفاء مظهراً للضعف المبرقع . أما فى هذا العهد فهو أثر من آثار الضغط الفرنساوي الذي يقيد على البايات حريتهم ويعد عليهم انفاسهم حتى في كلمات تخرج من أفواههم خصوصاً مع الاغراب وعلى الأخص أمثال الشيخ عبده .

للعبرة والتاريخ

كان أمراء العرب بالاندلس فى أول أمرهم قائمين بأمر الفتح ، فلما جاء الامويون وكانت البلاد قد تمهدت لهم وضعوا أساس الدولة ، ونظموا داخليتها ، ورتبوا أنظمتها ، وجعلوها مصدر الحضارة الاسلامية الغربية ، ومحل ازدهار المدنية العربية . وكانت سياستهم مبنية على التسامح ، بعيدة عن الجور والظلم ، وبذلك انتشر الدين الاسلامي في مدتهم بين الاسبانيين من غير مبشرين ولا منذرين . بل كانت سماحة الشريعة الاسلامية هي السبب فى انتشاره فى أنحاء البلاد المفتوحة ، فأسلم كثير من نصارى الاسبان واندمجوا فى المسلمين ،

وتكلموا لغتهم ، وتأدبوا بآدبهم ، حتى أصبح أبناؤهم ولا فرق بينهم وبين العرب في شيء . وظهر منهم كثيرون في الاوساط العلميـة ، ومنهم من بقي على اسم أبيه كابن بشكوال ، وابن بونه ، وابن برال ، وابن سلبطور ، وابن غرسيه . بل وصل اندماج الغالبين بالمغلوبين الى ان بعض العرب كانوا يزيدون على أسمائهم نهايات لاطينية أو افرنكية صرفة : فمنهم من أضاف الى اسمه الواو والنون فقالوا : زيدون فى زيد . وعمرون فى عمرو . وبكرون . وخلدون . وبدرون . ووهبون . وحفصون . وزرقون . وعبدون . وهكذا . ومنهم من زاد في آخر الكلمة الواو والسين أو الياء والسين . فقالوا : عمروس ، وعبدوس ، وحيوس ، وحمديس وهكذا . (راجع كتاب السفر الى المؤتمر للعلامة زكي باشا) .

وربما أضافوا الى أسمائهم اللقب الاجنبي كما قالوا « ابراهيم الصانتو » يعنون ولي الله ابراهيم الذي أبلى بلاء عظيما في حصار الاسبان لمالقه قبل فتح غرناطه : كما تقول النصارى سانت بطرس وسانت بولس .

وفي مدة الامويين نهضت الاندلس فى جميع شئونها ، وازدهر فيها العلم ، وانتشرت فنون الصناعة في كل جهاتها . وظهرت الثروة بين الاهلين . ولما أمر الناصر برسوم الخلافة في أواخر العقد الثانى من القرن الرابع ، بعد أن رتب أمور دولتـه ، ونظم جباياتها ، وكثرت عليه الاموال من الضرائب والغنائم ، رأى أن يبني له قصراً يليق بجلال الخلافة . فأمر سنة ٣٢٥ بالزهراء فبنيت على هضبة تبعد عن قرطبة غرباً بنحو أربعة أميال وثلثى ميل . ومما قاله مؤرخو العرب فيها أنه كان بها ٤٣٠٠ سارية ، وعدد أبوابها تزيد على خمسة عشر ألف باب ، وأنه كان يعمل فى عمارتها كل يوم من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل ، ومن الدواب ألف وخمسمائة دابة ، وجلب اليها الرخام الابيض من المدينة ، والمجزع من رية ، والوردى والاخضر من افريقية ومن اسفاقس وقرطاجنة ، والحوض المنقوش المذهب من القسطنطينية . وكان فيـه نقوش وتماثيـل وصور على صور الانسان . فأمر الناصر بنصبه فى وسط المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس ، ونصب

عليه اثني عشر تمثالا . ثم بني فيها المجلس المسمى بقصر الخلافة ، وكان سمكه من الرخام الغليظ الصافي في لونه المتلونة أجناسه والموشي بالذهب . وجعلت في وسطه اليتيمة ؟ التي أتحف الناصر بها ليون ملك القسطنطينية . وكانت قراميد هذا القصر من الذهب والفضة ، وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على ثنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب وأصناف الجوهر ، قامت على سوار من الرخام الملون والبلور الصافي . وكانت الشمس تدخل على هذه الابواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالابصار . وأحدق بهذا القصر البساتين وأجرى اليه المياه من جبال قرطبة . واتخذ فيه مسارح للوحش فسيحة الفناء متباعدة السياج . ومسارح للطيور مظللة بالشباك . وأحاطه بسور جعل فيه ٣٠٠ برج لاقامة الحرس . ولما تم نقل اليه مركز الخلافة . وكان بعض أبنيته خاصاً بالخليفة ، وبعضها بدواوين الخلافة ، وبعضها بالخدم والحشم ، وبعضها بالحرس من الجند . وقد قدروا ما صرف على الزهراء كل عام بثلاثمائة ألف دينار في مدة خمسة وعشرين سنة .

ولما مات الناصر زاد في الزهراء ابنه الحكم . وما زالت مركزاً للخلافة الى أن أحرقها البربر سنة ٤٠٠ ﻫ في فتنة سليمان بن الحكم بعد أن نهبوها . وقد يزعم كثير من المؤرخين ان هذا كان آخر العهد بها . ولكن ابن خلكان ذكر في ترجمة المعتمد بن عباد انه كتب الى بعض خاصته بقرطبة بهذين البيتين :

حسد القصر فيكم الزهراء   ولعمري وعمركم ما اساء
قد طلعتم بها شموسا نهارا   فاطلعوا عندنا بدورا مساء

وكان المعتمد قد اصطبح معهم في الزهراء ، ودعاهم الى الاغتباق معه في قصر قرطبة . ولو عرفت أن المعتمد لم يملك قرطبة الا بعد سنة ٤٦٠ ﻫ عرفت أن حريق سنة ٤٠٠ لم يكن عاما بها ، وأنها اصلحت من بعده حتى اصبحت تليق بان تكون محل سكن أو نزهة ابن عباد ملك البلاد . وعلى كل حال فان

خرابها الكامل لم يتأخر عن هذا الوقت بكثير. وأظن انه كان في وقت الانقلابات التى انمحى بها اثر ملوك الطوائف مدة المرابطين لبعدهم عن التأنق في كل مظهر من مظاهر الحياة. ولما استولى الاسبانيون عليها اتموا هدمها حتى لا يلجأ اليها المسلمون اذا عنّ لهم محاصرة قرطبة .

وكان بقرطبة غير الزهراء قصر الزاهرة الذي امر المنصور بن ابي عامر في سنة ٣٦٠ ببنائه على نهر الوادي الكبير شرقي هذه المدينة . وانتقل اليه فى سنة ٣٧٠ . وكان من اكبر القصور فخامة ، وأحسنها نظاماً ، واعلاها اسوارا ، وأوسعها اسواقا . وقد جعل في قسم منه حكومته . وبنى الناس فى الفراغ الذي بينه وبين قرطبة حتى صار البنيان متصلا بينه وبينها الى الزهراء .

وكان بقرطبة غير هذين القصرين البديعين قصور فخمة كثيرة للخلفاء وغيرهم من الوزراء والامراء والقواد والسراة : فكان فيها القصر الكامل . والمجدد . والحائر . والروضة . والزاهر . والمعشوق . والمبارك . والرستق . والتاج . والبديع . وقصر السرور . وقصر الشراحيب . والبهور . والمنيف . وقصر الناعورة . ومن متنزهاتهم خارج قرطبة : قصر الرصافة . وقصر ابن عبد المؤمن. والقصر الفارسي. والسد .وقصر الحاجب . والسرادق. ومنية الزبير .

وكانوا يتسامحون في تشييد هذه القصور بما كانوا يقيمونه فيها من التماثيل في اوضاع مختلفة. وفي نفح الطيب وصف كثير منها شعراً ونثراً. وقد وصل بهم التسامح في التماثيل ان كانوا يقيمونها فى ميادينهم العامة وكان منها ثمانية على باب الزهراء .

وقد قال بعضهم فى تمثال اقيم في ساحة من ساحات شاطبة :

كأنه واعظ طال الوقوف به   مما يحدث عن عاد وعن أرما

فانظر الى حجر صلد يكلمنا   اشجى واوعظ من قس لمن فهما

وكان بقرطبة وحدها من الدور العامة ١٠٣٠٠٠ ، ومن الدور الخاصة ٦٣٠ ، ومن الحمامات ٧٠٠ ، ومن المساجد ٣٨٣٧ .

وأكثر أهل الاندلس في البناء حتى كان المسافر على الوادي الكبير

لا يكاد ينقطع نظره عن العمران والبساتين التي كانت تتصل بعضها ببعض على طول النهر من جهتيه . وكان نور السرج ليلا يكاد يكون متصلا فى طوله . وقد قال ابن خفاجة الذي توفى سنة ٥٣٣ سامحه الله في وصف هذه البلاد :

يا أهـل أندلس لله دركمو   ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد الا في دياركمو   ولو تخيرت هذا كنت أختار
لا تحسبوا بعد ذا أن تدخلوا سقراً   فليس تدخل بعد الجنة النار

وقد قال المقري : « اتصلت العمارة بقرطبة أيام بنى أمية ثمانية فراسخ طولا فى فرسخين عرضاً تقدر بأربعة وعشرين ميلا طولا وستة عرضاً . وكان عدد ارباضها أحد وعشرين فى كل ربض من المساجد والاسواق ما يقوم بأهله ولا يحتاجون الى غيره . وكان بخارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية في كل واحدة منبر وفقيه مقلص (لعلها بالسين من القلنسوه) تكون الفتيا فى الاحكام والشرائع له . وكان لا يجعل القالص منهم على رأسه الا من حفظ الموطأ وقيل من حفظ عشرة آلاف حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وحفظ المدونة . وكان هؤلاء المقلصون المجاورون لقرطبة يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة ويسلمون عليه ويطالعونه بأحوال بلادهم » .

ولقد كان الخلفاء يرسلون بأشخاص عدول الى الجهات البعيدة ليستقصوا لهم أخبار عمالهم وحال رعيتهم . وكان كثير منهم يمشى في أسواق قرطبة لاستطلاع حال الناس بنفسه . ويجلس على باب قصره بدون حجاب . فيقصده المظلومون ويبثون اليه شكواهم من غير ما واسطة .

وكانوا مع عزة سلطانهم وجلال ملكهم يطأطئون رؤسهم أمام الحق . ومن ذلك : ان الناصر أيام عمارته للزهراء وانهماكه في بنيانها لم يشهد الجمعة بالمسجد الجامع فلم يطق قاضى الجماعة منذر بن سعيد وصعد المنبر وبدأ خطبته بقوله تعالى : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . واذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون . أمدكم

بأنعام وبنـين وجنات وعيون . اني أخاف عليكم عـذاب يوم عظيم » . ثم نوه بالزهراء وقال : « أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار . فانهار به في نار جهنم . والله لا يهـدي القوم الظالمين » . « ولا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم الا أن تقطع قلوبهـم والله عليم حكيم » .

فاقسم الخليفة أن لا يصلي خلف بن سعيد ابداً . — فقال له ولده الحـكم : وما يمنعك من عزله والاستبدال به ؟ — فقال الناصر : أمثل منذر بن سعيد في فى فضله وورعه ، لا أم لك ، يعزل في ارضاء نفس ناكبة عن الرشد ؟ ؟

ومن ذلك أن امير المؤمنين يعقوب المنصور سلطان الموحدين بلغه أن أحد الشعراء قد نال منه وأخذ الحاضرون يكبرون امره ويحركون من سخط الخليفة عليه !! ولـكنه رحمه الله اجابهم بما يدل على عظمة نفسه وسمو اخلاقه بقوله « نحن نعاقبه بالحلم » . وهل قامت عظمة خلفاء العرب وملوكهم الا على هذه الاخلاق السامية ؟ وهل شيد بنيان مجدهم الا على العدل والاذعان الى الحق ولو على انفسهم ؟ وكم وقف منهم في دائرة القضاء بجوار خصومهم من رعاياهم حتى اذا صدر حكم القاضي لهم أو عليهم نفذوه في الحال ، ثم عادوا الى دائرة سلطانهم المحفوفة بسياج الجلال والعظمة .

ولقد كانت الاندلس مدة الامويين رافلة في الثروة ، عامرة بالسكان الذين وصل عددهم مدة حكمهم في الاندلس الى أربعين مليونا من النفوس .

وبالجملة فالعرب هم الذين نقلوا علوم المشرق وفنونه وهندسته الى الغرب فشاعت فيه ابنيته واصبح لها في اوروبا علم ونظام خاص بها STYLE MAURESQUE ولقد كانت فخامة القصور التي بنوها تستدعي ان يكون بها من الاثاث والرياش مايتناسب مع رونقها وجلالها : فكانوا يأتون بفرشها وما يلزمها من اثاث ثمين

ورياش نادر من جهات المشرق . ومن هذا شاعت في الاندلس مع هندسة البناء وما اليها من رسم وتزويق وتلوين جميع الصناعات التي تلزمها من نسيج وتطريز وتنجيد وغير ذلك من صناعات المدنية الراقية التي انتشرت في الاندلس على عهدهم .

وقد اشتهرت قرطبة بدباغة الجلود . ومالقة بعمل الفخار والزجاج . والمرية بعمل الاجواخ والحديد والنحاس وبناء السفن . وسرقسطة بعمل السمور والاقمشة الحريرية والكتانية . وشاطبة بعمل الورق . وكانت اشبيلية مشهورة بنسج الحرير وكان فيها مدة العرب ١٣٠ الف نول فاصبحت بعد استيلاء الاسبان عليها وليس فيها غير اربعين نولا . وكانت للعرب بالاندلس أندية يجتمعون فيها لمذاكرة العلم والادب واخبار العرب وغيرهم . وكان للخلفاء والامراء اوقات مخصوصة يجتمع اليهم فيها العلماء والشعراء والادباء . وكان للمنصور بن ابي عامر مجلس خاص باهل العلم يجتمع فيه معهم كل أسبوع للمذاكرة في مختلف العلوم . وكان بالاندلس اربع جامعات للطب بقرطبة واشبيلية ومرسية وطليطلة . وكان بها من المعاهد العلمية والادبية مالا يحصيه العدد .

وكانت عندهم مدارس لتعليم الفقراء . وكان في قرطبة وحدها مدة الحكم ابن الناصر عشرات من المدارس لتعليم الايتام . وكان التعليم مدة حكمه منتشراً جداً في الاندلس حتى قال أحد مؤرخي الفرنجه : « أن التعليم يكاد يكون عاما بين جميع طبقات عرب الاندلس في حين أن الطبقة العليا باوروبا كانت من الامية بمكان . وكان بالاندلس ستون مكتبة عامة متفرقة في بلادها الكبرى . وكان الناس يعلقون بحيازة الكتب للشهرة بحيازتها أو للانتفاع بها ، حتى كاد يكون في بيت كل سري مكتبة خاصة به ، وكانوا يعيرون كتبها لمن يريد الاشتغال بها .

وقد وصلت بلاغة العرب في اسبانيا في شعرهم ونثرهم الى أوجها . وكانت

تدور حول السهل الممتنع مع جزالة اللفظ وحلاوة الاساوب . وكان كتابهم يبتعدون عن الغريب في أقوالهم . ومنهم من كان يطيل في الكلام ويكثر من المترادفات خصوصاً في أيام دولتهم بغرناطة . وكانت كتاباتهم على العموم تمتاز بكثرة السجع .

وأكثر من ظهر منهم من الشعراء والكتاب في القرن الخامس مدة ملوك الطوائف : لانهم كانوا في أول أمرهم يحتاجون الى تعزيزمرا كزهم بنشر عبارات الحمد والثناء وآيات التعظيم والتفخيم التي كانت تذاع بواسطة من كان يفد عليهم من الشعراء . لهذا كثر الشعراء في زمنهم . وكان يساعد على ذلك ما كان في مجالسهم من موجبات الانس والسرور التي كانت تنبسط فيها النفوس وتشحذ القرائح. وأصبح اغلب شعرائهم نواسيين يتصببون في جمال الرقيق وأباريق الرحيق .

ومع أن ملوك الاندلس وخصوصاً مدة عبد الرحمن الثالث كانوا يهتمون بنظام وتعزيز جيوشهم البرية التي وصلت زمن الخليفة الحكم الى سان سباستيان وزمن ابن ابي عامر الى ثغر شانت ياقوه ، فانهم كانوا يهتمون برقي بحريتهم وانشاء مايلزمها من المراكب الحربية والتجارية التي كانت تحمل تجارة بلادهم الى الشرق وتجارة الشرق الى الاندلس . وكانت لهم في ثغورهم البحرية دور لصناعة السفن لايزالون يسمونها الترسانة (ATTARSANA) اشهرها في زمن المنصور بن ابي عامر كانت في قصر ابي دانس بالساحل الغربي للاندلس . وكانت هذه الترسانات مشغولة على الدوام بتجديد وأنشاء ما يلزمهم من السفن . وكانت اساطيلهم تربض في ثغور البلاد ، والاسطول الأكبر يقيم في المرية . وسفنهم الحربية في ذلك الوقت كانت تتركب مما يسمونه البوارج والشواني والحراقات والطرائد والشلنديات وما يتبعها من الفلائك . وكان ثغر المرية حافلا بتجارة الشرق كما كانت مالقة حافلة بتجارة الغرب . لذلك كانت هاتان المدينتان اغنى بلاد الأندلس واضخمها ثروة .

وكانت ملوك الاندلس تخصص الجوائز للنابغين والمخترعين . وقد اخترع الوزير بن بدر مدة الناصر طريقة للطباعة كان يطبع بها الاوامر والمنشورات التى كان يرسل بها الى أطراف المملكة . وهل كان اختراعه هذا قاعدة لغو تمبرج بنى عليها اختراعه لحروف الطبع فى سنة ١٤٣٦ ؟ خصوصا وأن لاروس يقول فى دائرة معارفه أن الطباعة كانت معروفة فى اوروبا في أوائل القرن الثاني عشر . ولعله كان يريد ان يقول أنها كانت موجودة بالأندلس في ذلك العهد .

وبالجملة فقد كانت مدنية الأندلس في غاية الرقى فى جميع مرافقها . وكانت أشعة شموسها تتصل بأوروبا بحكم الجوار فتفيض عليها من أنوارها التى صاغ الافرنج منها مدنيتهم وقامت عليها عظمتهم العلمية والفنية والصناعية . وحتى الشعر الذي هو وحى النفوس الى الرؤوس لم يعرفه الفرنجة الا من عرب الأندلس، وخصوصا في استعمال القافية عندهم .وشعراء فرنسا العظام لم تجدبهم الايام الا من القرن السابع عشر أمثال موليير، وفولتير، وبوالو، ولافونتين، وراسين، وكورني . وكلهم كان فى النصف الاول من القرن السابع عشر . وأما لامارتين، وشاتو بريان فكانا فى أواخر القرن الثاني عشر .وأما أكبر شعرائهم فيكتور هيجو فانه كان يعيش في نصف القرن التاسع عشر . وقد سار بعضهم فى صياغة شعره على النهج العربي سواء في مبانيه أو معانيه.وكان يلبسها من روعة النسيب والتشبيب ماتحلو به عبارته .بل قد يكون غزله دائرا حول اسماء عربية كعائشة وفاطمة فيزيد ذلك فى شعره حلاوة وطلاوة . واشهر من كتب فى هذا السياق غوطا أكبر شعراء الالمان الذي كان يعش في النصف الأول من القرن الثامن عشر ، ومن تواليفه ديوان الشرق والغرب . أما شكسبير أكبر شعراء الانجليز فقد كان يعيش فى أوائل القرن السابع عشر .

ولما كثرت الثروة في الأندلس كان أهل البلاد يرتعون فيبحبوحتها ، حتى

اذا توفرت فيهم أسباب العمران وكثرت أمامهم موجبات الحضارة والرفه أخذوا بجميع اطرافها : فكانوا فى أول أمرهم مع اشتغالهم بالعلوم والفنون والزراعة والصناعة والتجارة لايحرمون أنفسهم من ملاذها فى أوقات راحتهم . وكانوا يخرجون فيها الى النزهة في البساتين التي كانت خارج مدنهم ومعهم المغنون والضاربون على آلات الموسيقى الوترية فيقضون يومهم بين كل مالذ وطاب ، مع صفوة أحباب ، وجمال اتراب . ويمكنك أن تتخيل وصف هذه المجتمعات من العبارة الآتية : قال المقرى :

« كتب ابو عامر بن نيق الى هند جارية بن مسلمة الشاطبى وكانت أديبة شاعرة ولها صوت جميل ومعرفة بالموسيقى :

ياهند هل لك فى زيارة فتية نبذوا المحارم غير شرب السلل
سمعوا البلابل قدشدوا فتذكروا نغمات عودك فى الثقيل الاول

فكتبت اليه فى ظهر رقعته :

ياسيداً حاز العلا عن سادة شم الأنوف من الطراز الاول
حسبى من الاسراع نحوك أننى كنت الجواب مع الرسول المقبل

وممن اشتهر من المغنيات فى الأمويين حمدونة بنت ذرياب ، وهندية ، وغزالات . وكان يصل من المشرق منهن عدد ليس بقليل كان في مقدمتهن جاريتان اشتهرتا بجمالهما وحسن غنائهما وهما فضل المدنية وعلم المدنية . وكان للخاصة نصيب من هذا الفن اشتهر منهم عبد الوهاب بن حسين الحاجب وكان احذق زمنه بضرب العود .

ولقد كان لمجالس الغناء في كل دول الاندلس أثر كبير فى الادب بسبب ما كان يقوم بالنفوس من التبسط بعوامل السرور والتوسع فى عالم الخيال فتجيش بالشعر . وجر ذلك الى وضع الاغانى في اشكال مختلفة كان اهمها عندهم الموشحات التى وضع اساسها في آخر القرن الثالث الهجري ، واول واضع لها معافر . وما زالت ترقى حتى وصلت في مدة الحكم بن الناصر الى درجة عالية ، وشاعت فى

اغنية القوم لما كان لها من التأثير في النفوس . ثم جاء على اثرها اختراع الازجال والمواليا (١) . وكثر استعمالها في العامة وما زالت حتى بدعت وتهذبت فى اوائل القرن السادس و نبغ فيها ابن قزمان الذى يدعونه بامام الزجالين .

وكان من جملة ملاهيهم مايسمونه بالخيال (خيال الظل) وهو عبارة عن تماثيل من ورق يحركونها بخيوط من وراء ستارة من قماش ابيض، ويشعلون من ورائها ناراً فترتسم صورها على الستارة بحركاتها التي تمثل لك بلسان محركها رواية مضحكة يتخللها شيء من الشعر والفكاهة . وقد كان خيال الظل معروفا بالقاهرة الى اواخر القرن التاسع عشر . واظن ان بعض الاحياء القديمة بها لا يزالون يذكرون من ابطاله الراهب منشا ، ودعادير . ولا ادرى اذا كان هذا الخيال وصل الى الغرب من الشرق او وصل الينا من الاندلس ؟ ؟ وهل كان هذا الخيال مقدمة لاختراع السيما الذي اصبح الآن ملهى جميع الامم المتمدنة ؟

وكانت مجالس الغناء لاتخلو من الشراب وكانوا لايجهرون به في اول امرهم لان الامراء والخلفاء الامويين كانوا يقيمون فيه حدود الله ، حتى وصل الحال بالحكم بن الناصر فى محاربته للخمر أن أراد استئصال شجرة الكرم لولا أنهم اخبروه بامكان عمله من غيرها . ولكن الحال بعد الامويين قد تغير واصبح الخمر شائعا في مجالسهم وربما كان لبرودة جو البلاد اثر كبير في ذلك خصوصا مع ضعف الوازع الدينى فكثرت فيه اقوالهم واشعارهم .

ومن قول احد القادمين من العرب على غرناطة :

يحل لنا ترك الصلاة بارضهم   وشرب الحميا وهو شيء محرم
فراراً الى نار الجحيم فانها   اخف علينا من (٢) شلير وارحم

---

(١) كثر استعمال المواليا والازجال بين عامة الاندلسيين حتى كانوا يقولونها ارتجالا . وقد ترى هذا للآن في ارياف مصر : فان بعض الفلاحين يحفظ عن ظهر قلب بضعة مئات من المواويل خصوصا في الوجه البحري ، كما يكثر مايسمونه بالواوات (وهي نوع من المواويل) في الوجه القبلي . وترى في عامتهم للآن من يرتجل منها مالا يقل في جودة معناه ورقة الفاظه عما تراه في ارقى الشعر وامتنه .

(٢) وشلير جبل الثلج بغرناطة وهو مايسمونه سيرا نوفادا .

ومن قول عامر بن هاشم القرطبي فى نونيته البديعة :

ياليت لي عمر نوح في اقامتها	وان مالي فيه كنز قارون
كلاهما كنت أفنيه على نشوا	ت الراح نهبا ووصل الحور والعين
وانما أسفي انى أهيم بهـا	وان حظي فيهـا حظ مغبون .

ومن قولهم :

يارب ليل قد هتكت حجابه	بمدامة وقادة كالكوكب

ومن قولهم :

سلّ الهموم اذا نبازمن	بمدامة صفراء كالذهب
مزجت فمن در على ذهب	طاف ومن حبب على لهب
وكأن ساقيها يثير شذا	مسك على الاقوام منتهب

ومن قولهم :

يسعى بها احوى الجفون كأنها	من خده ورضاب فيه الاشنب
بدران بدر قد أمنت غروبه	يسعى ببـدر جانح للمغرب

ومن أبدع ماقيل في الخمر وساقيها قول المعتمد بن عباد :

لله ساق مهفهف غنج	قام ليسقي فجاء بالعجب
أهدى لنامن لطيف حكمته	في جامد الماء ذائب الذهب

ومن قول بن حمديس فى وصف مجالس الرقص على نغمات الموسيقى :

عدنا الى هالة أطلعت	على قضب البان اقمارها
يرى ملك اللهو فيها الهموم	تثور فيقتل ثوارها
وقد سكنت حركات الاسى	قيان تحرك اوتارها
فهـذى تعانق لى عودها	وتلك تقبل مزمارها
وراقصة لقطت رجلها	حساب يد نقرت طارها

وكان بعضهم يشكل الغانيات بشكل الفتيان قال الوزير بن شهيد :

ظبية دون الظبـاء قصصت فاتت غيداء في شكل (١) صبي

فتح الورد على صفحتهـا وحماه صـدغهـا بالعقرب

ومن هذا ترى أن القوم بعد دولة الأمويين استسلموا للشهوات ، وشاعت فيهم مجالس الخمر والسماع ورقص الراقصات على نغمات الاوتار في كل شكل من أشكال الخلاعة !! حتي أن المرابطين انفسهم في آخر دولتهم قد سكنوا القصور في الأندلس وأكثر ولاتهم من مجالس اللهو والانس بما ضعفت به عصبيتهم الدينية والاخلاقية ، حتي تغلب عليهم الموحدون ونزعوا منهم هذه البلاد بعد استيلائهم عليها مدة اثنين وستين سنة (من سنة ٤٨١ الى سنة ٥٤١) .

---

(١) لا أدري اذا كان هذا مايسمونه الآن لاجرسون (LA GARCONE) فاذا كان هو بعينه فقد سبق الاندلسيون حتى الافرنج في هذا بتسعة قرون .

الرسالة الثامنة

سبب تفرق كلمة العرب في اسبانيا وضعفهم

استكثر الامويون في الاندلس من البربر وهم شيعتهم الذين قاموا بنصرة عبد الرحمن الداخل في أول أمره على مناوئيه من شيعة العباسيين الذين كان لهم الحكم قبله ، بل ونصروه على جيوش شارلمان التى أرسلها لحربه تزلفاً لصديقه الخليفة العباسى فى الظاهر ، وخوفا من تطاول ملك العرب الى أرض فرنسا فيحقيقة الامر .

ولما ثبتت قدم الامويين فى الملك ، أخذوا يقلدون العباسيين في استكثارهم من المماليك الصقالبة وغيرهم ، خصوصاً فى أيام عبد الرحمن الناصر،حتى أصبحت لهم الكلمة النافذةفي البلاد وصارحكمها من بعده في أيديهم. وأصبح حالهم هنا حالهم في الشرق شبراً بشبر وقدماً بقدم . وكانت نفوس كثير منهم تتحدث في قرارتها بتخطى الرقاب وطرق كل باب الى الوصول الى منصة الحكم . ولم يكن يقعد بهم عنها الا ما كان يحيطها من رمح مشروع ، وسيف مسلول ، وعظمة قائمه ، وسلطان قدمه فى الارض ورأسه في السماء . وعلى كل حال فقدكان لهم التصرف المطلق في داخلية الدولة . وخالف الأمويون في الاندلس آباءهم فى دمشق في محافظتهم على عصبيتهم العربية . فضعفت بذلك شوكة العرب ونقموا علي حكومتهم وما زالوا يترقبون الفرصة للخروج عليهاحتى قام ابن أبي عامر وزير الحكم بن الناصر ، وكان من العرب المنتصرين الى عصبيتهم . فأخذ بدهائه في التفرقة بين العناصر المتغلبة من صقالبة واتراك وبربر ثم بالايقاع بهم شيئاً فشيئاً . وكان في أثناء ذلك يستقدم رجالات من بربر المغرب من زناتة ومصمودةوغيرهم ، وكان يوليهم مناصب الدولة . حتى اذا شعروا بعده بضعف الخلفاء ومن والاهم اخذوا يخرجون على دولتهم ويستقلون باطرافها :

وأول من بدأ منهم باستقلالهم بنو عباد فى اشبيلية ، ثم بنو زيري في غرناطة ، وبنو الافطس في بطليوس، ثم بنوذي النون في طليطلة ، ثم بنو عامر في بلنسية ، ثم بنو هود في سرقوسة ، وبقيت قرطبة في يدى بنى حمود ثم بنى جهور وما زالوا حتى غلبهم على أمرهم الفرنجة من الشمال ، ثم المرابطون من الجنوب .

وكثيراً ما كان ملوك الطوائف يحارب بعضهم بعضا طمعا في استيلاء هذا على ما كان في يد الآخر . حتى انتهى أمرهم الى الضعف وصاروا يدفعون الجزية الى الاذيفونش ، غير ما كانوا يلاقونه من الهوان من الاسبانيين . وما زالوا حتى ضاقت صدورهم من غدر ملوك الاسبان بهم وسوء معاملتهم لهم . فاجمعوا فيما بينهم على استدعاء عرب المغرب لنصرتهم : وكان هذا رأى ابن عباد صاحب إشبيلية . وكان المغرب وقتئذ فى حكم المرابطين ، واميرهم يوسف بن تاشفين سلطان المغرب من أقصاه الى أقصاه. فلما وصلت اليه دعوة ابن عباد قبلها .وأجاز الى الجزيرة سنة ٤٤٩ هـ بجيوش جرارة على رأسها قائده العظيم داود بن عائشة . وسار هو وفي مقدمته وزيره الكبير سير بن ابي بكر اللمتوني . فقابلته جيوش الاسبان متجمعة بقرب بطليوس وعلى رأسها الاذيفونش ملك قشتالة . ووقعت بينهم موقعة تشيب لها الولدان . انتصر فيها ابن تاشفين والاندلسيون انتصاراً باهراً .وهذه الواقعة يسمونها واقعة الزلاقة .وهرب الاذيفونش بعد أن جرح فى يده جرحا بليغا . ثم طلب الصلح من ابن تاشفين فمنحه ذلك لمدة خمس سنين ، أخذ فيها الاذيفونش على نفسه ان لا يتعرض للمسلمين بشيء مطلقا .وخلصت بلاد الاندلس من مظالمه ،ومما كانت تدفعه اليه سنويا من الجزية،وتسمى ابن تاشفين بعد هذه الواقعة بأمير المسلمين . وقد غنم المسلمون من هذه الموقعة شيئا كثيراً جداً من الاموال والانفس . فعف ابن تاشفين عنه وتركه جميعه لاهل البلاد . وانصرف عن الاندلس الى المغرب تاركا وراءه جمال العمل وجميل السيرة

وفى سنة ٤٦٨ هـ اجاز ابن تاشفين الى الاندلس جوازه الثاني بدعوى أن أهله شكوا اليه من كثرة المكوس (الضرائب) التي كان تأخذها منهم ملوك الطوائف .

فلما وصل الى الجزيرة الخضراء خافه ملوك العرب وقطعوا الميرة عن جيوشه بعد أن اتفقوا مع ملوك الفرنجة عليه . فقصد بلادهم واستولى عليها واحدة بعد واحدة: وبعث ببني زيرى اصحاب غرناطة الى المغرب فقضوا فيه بقية حياتهم . ثم قصد اشبيلية وحارب ابن عباد حتى اذا تغلب عليه اعتقله وارسل به الى أغمات من أعمال مراكش ؛ وما زال في اعتقاله بها حتى مات سنة ٤٩١ هـ . ثم قصد بطليوس وقبض على ملكها ابن الافطس وقتله. وبذلك أصبحت الاندلس من اقصاها الى اقصاها في حوزته الا سرقسطه (وهى في شمال اسبانيا) فانها بقيت في يد بنى هود لاعتصامهم بالاذيفونش ولبعدها عن مركز القوة الاسلامية.

ولما خلص ابن تاشفين من استيلائه على الاندلس فوض امره الى وزيره سير اللمتونى ورجع الى بلاده . ومن ثم اصبحت الاندلس في يد المرابطين . وما زالت فى ايديهم الى ان دب الشقاق بين احفاد ابن تاشفين طلبا للملك فى اواخر القرن الخامس الهجري بما كان سببا لضعفهم ، وقيام بلاد المغرب عليهم ، حتى سقطت دولتهم بقيام دولة الموحدين .

ودولة الموحدين قامت على يد المهدي بن تومرت ، وما زال حتى مات سنة ٥٢٤ . فاتفقت رجالات المغرب على مبايعة عبد المؤمن بن علي، وكان في مقدمة رجال المهدي علما وفضلا ودهاء ، وهو اول من تسمي في المغرب بامير المؤمنين .

وفي سنة ٥٤٦ اجاز عبد المؤمن الى الاندلس جيشا من الموحدين للفتح فتغلب على غربيه ثم حاصر المريه فاستغاث من كان فيها بالاذيفونش الذي ارسل اليهم حليفه محمد بن مردنيش على جيش من النصارى والمسلمين ، فكسره عبد المؤمن . وتم استيلاء الموحدين على الاندلس فى مدة امير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن، وله اصلاحات كثيرة في اشبيلية: وهو الذي بنى جامعها واقام جسرها. واتى من بعده ولده المنصور يعقوب فاكمل الجامع بحيث اصبح لا يضاهيه شيء في الدنيا . وقد حارب المنصور يعقوب الاذيفونش ومعه ملوك النصرانية فانتصر عليهم انتصارا باهراً في واقعة الكرك الشهيرة ALARCOS ، وفتح كثيراً

من الحصون والبلاد التي كانت في ايديهم . وما زال يتقدم في الفتح حتى طلبوا اليه الصلح . فصالحهم على خمس سنين وذلك في سنة ٥٩٢ هـ .

وقد ذكر مؤرخوالعرب ان من قتل فى هذه الموقعة من النصارى اكثر من مائة الف . اما ما غنمه المسلمون فيها فهو شيء لايحصيه العد ، ولا يحيط به الحصر : حتى اصبحت العرب تبيع الاسير بدرهم ، والسيف بنصف درهم ، والحمار بدرهم ، والفرس بخمسة دراهم . وبعد هذه الواقعة استولى المنصور على طلمنقة . ثم قصد طليطلة وهي عاصمة الاذيفونش وحاصرها . ولما لم يبق غير نزول من فيها على ارادته نزلت والدة الاذيفونش وبناته وحرمه واستغاثوا به وبمروءته ، فاكرم مثواهن واعادهن الى مقرهن معززات مكرمات.وعاد هو الى بلاده بالغنائم التي لاحصر لها .

ولما مات يعقوب المنصور سنة ٥٩٥ هـ استولى بعده ولده ابو عبد الله محمد الناصر . فاجاز الى الاندلس عام ٦٠٩ هـ بجيوش من العرب يقدرونها بست مائة الف . هنالك اعلن البابا الحرب المقدسة . فهرعت جيوش النصرانية من ايطاليا وفرنسا والمانيا واتحدت قواتها في اسبانيا واستعدوا لملاقاة الناصر بسهول نافا دوتولوزا : وهي قرية تبعد عن قرطبة شمالا بمائة واربعين كيلومتر .

وكان الناصر قد اعجبته كثرة جيوشه فاخذ يفتك في طريقه برجالات الاندلس بايعاز وزيره ابن جامع الذي اراد ان تكون الكلمة له وحده . واهمل رؤساء البلاد وقادتها ولم يستشرهم في امر عدوه ، وهم ادرى الناس بالجهة التي يأخذونه منها . وما زال حتى التحمت جيوشه بجيوش النصرانية في هذه السهول التي يسميها العرب العِقاب : لكثرة ما كان فيها من العقبات التي كانت سبباً فى خذلانهم وانتصار جيوش النصرانية عليهم انتصاراً باهراً تمزقت معه جيوش المسلمين على كثرتها بحيث لم ينج منهم غير القليل . ومن هذا الوقت ظهر كوكب نحس المسلمين فى الاندلس وغربت شمس سعودهم ! ! والله تعالى غالب على امره .

وعلى اثر هذه الموقعة مات الناصر . فبايع اهل المغرب ولده يحيي . فلجأ اخوه المأمون بن الناصر الى ملك قشتيلة يستنصره على أخيه وعلى الموحدين . فاشترط عليه شروطا جمة : منها ان يعطيه عشرة حصون يختارها هو مما فى يد المسلمين مما يلي بلاده،وأن تبنى له كنيسة فى مراكش.فلما قبلها جهزله جيشا من الاسبان دخل به ارض المغرب . وهنالك جمع المأمون شيوخ الموحدين وقتلهم صبراً ، وكان عددهم اكثر من اربعة آلاف نفس . ومن هذا الوقت اخذت الاطراف تثور عليه في المغرب وأخذ حكم الموحدين فى الضعف .

وفي هذه الاثناء استولى الفرنجة على قرطبة ثم على جزر البليار وبلنسيه ، واستولى اسطولهم على سبته وغيرها من سواحل المغرب ، ثم استولوا على اشبيلية. وما زالوا يستولون على بلاد الاندلس وحصونه حتى لم يبق مع المسلمين غير غرناطة التي بقيت فى يد بني الاحمر لمنعتها وكثرة اهلها :لان سواد البلاد التى كان يفتحها الافرنج كان يلجأ اليها . ومع هذا فقدكانت تدفع الجزية فى غالب أيامها لملوك قشتاله .

ولما استولى بنو مرين على المغرب كان بنو الاحمر يساعدون الفرنجة عليهم . كما كان بنو مرين يتحدون احيانا مع ملك قشتالة على بنى الاحمر . وما زال ملك بنى الاحمر قائما بغرناطة حتى حصل الخلاف بين ابى عبد الله بن ابي الحسن وبين عمه الزغل على الملك انتهى بتغلب الفرنجة على غرناطة في سنة ٨٩٢ هـ الموافقة لسنة ١٤٩٢ م وبه انقضى ملك المسلمين في الاندلس وانطوت صحيفتهم. وسبحان من له الملك يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء .

وقبل ان نختم هذه الرسالة نذكر كلمةعن الاذيفونش (الفونس)الذي استمر العرب فى تواريخهم يتحدثون عنه فى الاندلس حتى يخيل للقارىء ان الاذيفونش هذا عمر طويلا ومارس في حربه معهم إجيالا عديدة :

فالافرنج يقولون الفونس الاول . والثاني . والثالث . وهكذا .وقد اقتصر العرب على الاسم دون اللقب الذي يعينه: وعلى ذلك فالفونس السادس ملك قشتيلة

وليون واشتوريا هو الذي كان له شأن كبير معهم ، وهو الذي استولى منهم على طليطلة في سنة ١٠٨٥ م وجعلها عاصمة ملكه . وبعد ذلك اخذ يستولي على اطراف بلادهم حتى امتلك منهم نصف اسبانيا الشمالي : وهو مايسمونه بقشتيلة الجديدة . والفونس السادس هو الذي انكسرت جيوشه امام ابن تاشفين في واقعة الزلاقة سنة ١٠٨٦ ومات بجراحه منها سنة ١١٠٩ م .

اما الفونس الثامن ملك اراغون فهو الذي كان له شأن مع ملوك الطوائف وجيوش الموحدين ، وانكسرت جيوشه امام جيوش يعقوب بن عبد المؤمن في واقعة الكرك سنة ١١٩٥ ، ومات سنة ١٢١٤ م بعد سنتين من انتصاره مع جيوش النصرانية على محمد الناصر في واقعة العقاب المشؤومة .

اما الفونس أمير البورتغال الذي انتهى أمره بانتخابه ملكا لهذه المملكة فهو الذي أخذ من العرب لشبونه وشنتارين .

وفردينـاند الثالث ملك قشتيلة المسمى بسان فردناند (القديس فرديناند) هو الذي أخذ قرطبة من العرب سنة ١٢٣٦ ثم استولى على اشبيلية سنة ١٢٤٩ م .

أما فرديناند الثاني ملك نافاريا واراغون والذي تزوج بايزابللا ملكة قشتيله فهو الذي أخذ غرناطة من العرب سنة ١٤٩٢ وأخرجهم من أرض اسبانيا .

فاذا علمت ذلك وفقك الله فلا تعط لاحدهم ما ليس للآخر من مركزه التاريخي .

للعبرة والتاريخ

العلة الاولى لضعف العرب في اسبانيا هى تفرق الجماعة وانقسام الدولة الاموية بعد ان طويت صحيفة بنى عامر الى عشرين دولة صغيرة استقل بها ولاتها وهي : اشبيلية . جيان . سرقسطة . الثغر (ما كان في شمال طليطلة) .

طليطلة. غرناطة . قرمونة . الجزيرة الخضراء . مرسية. بلنسية . دانية . طرطوشة . لاردة . باجة . المرية . مالقة . بطليوس . لشبونة . جزاير البليار . وقرطبة .

وكان هذا الانقسام بطبيعة الحال داعيا الى كثرة خلاف رؤساء هذه الدول بعضهم مع بعض، وطمع كل منهم فيما في يد الآخر ، واشتعال نيران حرب كل منهم مع جيرانه، ووثوب القوي على الضعيف. ومن قول بن حزم باختصار: «فضيحة لم يأت الدهر بمثلها اربعة رجال يسمى كل واحد منهم امير المؤمنين ! واحد باشبيلية ، والثاني بالجزيرة الخضراء ، والثالث بمالقة ، والرابع بسبتة ، واصبح العرب والبربر في خلاف مستديم ، والجميع في خلاف مع اهل المغرب الاقصي وفى حروب مع الامم الاسبانية والبرتغالية » .

ثم آل أمر هذه الدول الى خمس : سرقسطة وما والاها شرقا الى البحر في يد ابن هود . وطليطلة وما والاها شمالا وجنوبا فى يد ابن ذى النون . واشبيلية وما والاها جنوبا في يد ابن عباد. وبطليوس وما والاها غربا في يد ابن الافطس . وآلت قرطبة الى يد الوزير ابن جهور ثم دخلت في حكم ابن عباد .

وكانت امهات الاولاد من الاسبانيات لايزال الدم الاجنبي يجري في عروقهن ، ولايزال اثر النصرانية ماثلا فى قلوبهن ، فكن مسلمات في حالة ضعفهن حتى اذا وجدن الفرصة غير سانحة للاثئار لقومهن ارضعن اولادهن خور العزيمة واضعفن فيهم دماء قوميتهم وديانتهم : فكان هذا من اكبر الاسباب في خمود حميتهم وخصوصاً فى الطبقة العالية منهم .

ولا بد للاخلاق العامة من التأثير في هذا التغير الذي طرأ على حالة العرب فى اسبانيا ، فنزل بهم من المستوى الذي كانوا فيه مدة الامويين . وكانت كثرة الثروة من العلل التي جرت بهم الى الدعة والرفه فمالوا الى اللهو بجميع انواعه . ومع أن منتدياتهم كانت مدة عزتهم وقوتهم كلها علمية وادبية وفنية يتخللها احيانا ما يبيحه الدين والحضارة من موجبات السرور كالاغاني والموسيقى مما نهضت به عزيمتهم وظهرت ثقافتهم وتجلت بطولتهم في سلمهم وحربهم ، فانهم لما

استرسلوا فى ملاذهم، واستسلموا الى شهواتهم، واستناموا الى الراحة، ضعفت فيهم الحمية الدينية والعصبية : فاهملوا شئون بلادهم ، وتقوية ثغورهم، وقعد كل مصر عن الدفاع عن حوزته . وكان عدوهم فيما بين ذلك يعمل وهم نيام ، ويتقدم كل يوم الى الامام . وبعد ان كان يخنع الى سلطانهم ويستكين الى قوتهم ، ويدفع لهم الجزية وهو صاغر ، وصل حالهم بتفرق جامعتهم وانقسام دولتهم الى طوائف ، ان كانوا يستنصرون به بعضهم على بعض . ولم يكن هـذا فى دولة منهم ضد اخرى فحسب ، بل كثيراً ما كان يستظهر الابن على ابيه والاخ على اخيه بملوك النصرانية : كما كان من المنذر والمؤتمن ابنى المقتدر سلطان سرقسطة حتى ضعفوا جميعا ، واستولى العدو على بلادهم سـنة ١١١٨ م . وكما كان من ولدي عبد العزيز ابن ابي عامر صاحب بلنسية . وكما كان من استنصار المأمون بن الناصر من بني عبدالمؤمن بملك قشتالة على اخيه يحيى . ولقد كثر استنصار بنى الاحمر بملوك النصرانية بعضهم على بعض فى آخر دولتهم حتى ضعفوا وذهبت ريحهم وسقطت بلادهم في يد عدوهم . ولو عرفت ان طليطلة وهي اول حجر انهار من هيكل عظمة الاسلام باسبانيا ، انما اضاعها صاحبها القادر بالله بن المأمون بن يحيي بن ذي النون لشهوته فى الاستيلاء على بلنسية ، واستنصاره بملك قشتالة الفونس السادس لمساعدته في ذلك . وكان الفونس لايبرح يورطه فى حربه لبنى عامر حتي اضعفه واستولى هو على بلاده في سنة ١٠٨٥ م، بعد ان مكثت مستقلة في أيدي بنى ذي النون ٧٣ سنة — لو عرفت ذلك كله عرفت ان ملوك النصرانية كانوا ينشطون لمساعدة ملوك الاسلام بعضهم على بعض لامرين : الاول أن ينتفعوا من وراء حرب فئة من المسلمين ضد أخرى منهم وهم بذلك يضعفون جميعاً ، وهو كل أمنيتهم : لان الدولتين النصرانية والاسلامية كانتا في كفتى ميزان اذا خفت موازين واحدة منهما ثقلت موازين الاخرى . والثاني أن يكون لهم السلطان التام على من كان من المسلمين فى حمايتهم وتحت رعايتهم فيستخدموه ماشاءوا ويستثمروه ما أرادوا . وبهذه السياسة وصلوا الى غايتهم من اضعاف دول

العرب فى الاندلس بما مكنهم من الوثوب عليها واحدة بعد أخرى حتى استولوا عليها جميعاً . ومن هذا تعلم ان العرب لما انحطت أخلاقهم ضعفوا وتلاشى أمرهم:

وانما الامم الاخلاق ما بقيت ... فان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ولقد كانت ملوك العرب وامراؤهم في أول أمرهم يخرجون الى معمعة الحروب بأنفسهم فيثيرون الحمية فى قلوب جيوشهم فتظهر بطولتهم التى كان يلازمها النصر والظفر . فلما استناموا الى الرفه ضعف فيهم الخلق الحربي فقعدوا عن القتال . ومشى على سنتهم عظماء دولهم فاستجاشوا الصقالبة والمدجنين والعبيد . بل وصل بهم الحال ان كانوا يستأجرون مرتزقة من الاسبان ممن لا يهمهم النصر ولم تكن للهزيمة قيمة في أنفسهم . ولعل أول من عمل ذلك المنصور (١) بن أبي عامر فى زحفه على شانت ياقو . وكان بنو هود بسرقسطة يستأجرون البطل سيد (٢) ورجاله في حروبهم ضد اخوانهم المسلمين .

---

(١) وشتان ما بين عمل المنصور في استخدامه لمرتزقة الأسبانيين وبين استخدام غيره لهم: فان المنصور كان يستعملهم في حربه ضد نصارى الشمال فكانوا سلاحا في نحور بني جنسهم وملتهم. اما بنو هود وغيرهم فانهم كانوا بعملهم هذا يساعدون النصرانية باموالهم وبرجالهم على أضعاف اخوانهم المسلمين : وهم بهذا مهدوا السبيل الى استيلاء الأسبانيين على دول العرب بالجزيرة واحدة بعد أخري !!

(٢) كان رودريك الذي اشتهر عند العرب باسم السيد قنبطور LE CID ÇAMPIADOR مشهوراً بفروسيته . ولقد ساعد الامير شانجه بن الملك فردينا ند الأول على أخيه الفونس. فلما تولى الفونس عرش البلاد نكب رودريك وصادره في ماله . فهاجر الى صخرة قريبة من سرقوسه وبنى بها مسكناً اجتمع عليه فيه نحو ٣٠٠ من المعجبين به ، واشتهر مع شيعته هذه بشجاعتهم . وكثيراً ما كان بنو هود ملوك سرقوسه يستأجرونهم في حروبهم .

وقد حاصر السيد على رأس جيوش يوسف بن احمد بن هود بلنسية. ومع أنه دخلها صلحا فانه حرق قاضيها بن الحجاف لزعمه أنه أبي أن يدله على خزائن المقتدر بن هود صاحب بلنسية ، ثم اشعل النيران في المدينة حتى اتلفها وهو مالا يتفق مع الصلح الذي دخل به المدينة ، وفي ذلك يقول بن خفاجه:

عاثت بساحتك الظبا يادار ... ومحا محاسنك البلا والنار
فاذا تردد في جنابك ناظر ... طال اعتبار فيك واستعبار
أرض تقاذفت الخطوب بأهلها ... وتمخضت بخرابها الاقدار
كتبت يد الحدثان في عرصاتها ... لا أنت انت ولا الديار ديار

وكان الاسبانيون بعكس ذلك يحاربونهم أمة مجتمعة يسير تحت لوائها الملك والامير بجوار الجندي الصغير ، والكل لا يعرف أمامه غرضاً غير مجد الانتصار على خصمه ، وهو ولا شك واصل اليه بمجالدته ومثابرته .

ومن ذلك ان الاسبان لما قصدوا بلنسية سنة ٤٥٦ ه خرج اليهم اهلها بالبستهم الحريرية فانكسروا امامهم في واقعة طبرنة وفي ذلك يقول الشاعر :

لبسوا الحديد الى الوغى ولبستمو ... حلل الحرير عليكم الوانا
ما كان اقبحهم واحسنكم بها ... لو لم يكن بطبرنة ماكانا

وقد وصف لسان الدين بن الخطيب الاسبان في حربهم فى زمنه وما كان لهم من حسن النظام فى هجومهم أميرهم ومأمورهم راجلهم وفارسهم ومن قوله : « وحال هذه الامة غريب فى الحماية المزوجة بالوفاء والرقة والاستهانة بالنفوس فى سبيل الحمية ، عادة العرب الاول » . ومن كلمته الاخيرة تعلم أن العرب في شيخوخة دولتهم لم يكونوا على شيء من الثقافة الحربية فى عامتهم ، وان ظهر منهم أفراد سجل التاريخ لهم بطولتهم مثل موسى بن غزان بطل غرناطة (١) وعلى ابن الفخار (٢) وحامد

ومات السيد في سنة ١٠٩٩ م وفيها استولى المرابطون على بلنسية . وقد وضع الاسبان روايات البطولة في السيد وابلغ ما كتب منها رواية كورني CORNEILLE الكاتب الروائي الفرنسي الشهير التى وضعها سنة ١٦٣٦ . الا أن ستانلى ودياز ينكران عليه ذلك ويذهبان الى أن بطولته من تنميق القصاصين .

ولا أدري إذا كانت قصص هذه البطولة كانت سببا في وضع عرب المغرب قصصهم في بطولة أبي زيد الهلالي ودياب الزغبي وخليفة الزناتى حتى تكون لهم بها تعزية عن بطولتهم الميتة . لأنا اذا تأملنا مافيها من الشعر نجده مثل شعر عرب المغرب وهم في شيخوخة نهضتهم ، هذا الشعر الذي تأثر بتلك الموشحات التى ذاع أمرها فيهم وكانت خليطا من العربى الفصيح والكلام العامى (راجع الكلام على الموشحات في كتاب بلاغة العرب للاستاذ ضيف وفي تاريخ الأدب الاندلسي للاستاذ الكيلاني) .

(١) لابن غزان في حروبه مع الاسبان وقائع كثيرة اشتهر فيها بشجاعته الخارقة للعادة . وكان يخالف رأي الغرناطيين في اقرار الصلح الذي قدمه اليهم فردينا ند وكان يرى الاستمرار في الحرب حتى يقضي الله أمراً . فلما خالفوه خرج مجاهداً للمحاصرين وحده ، ومات في جهاده بعد أن فتك بعشرات منهم .

(٢) كان ابن الفخار من القواد العظام وكان في يده عدة حصون فلما سقطت سطة في

الزغبي بطل مالقة ، وهو الذي ابلى فى دفاعه عنها بلاء سجل فخره له التاريخ .

ولقد كانت حالة عرب الأندلس تتبع حالة القائمين بامر الحكم فيها قوة وضعفا . وكذلك حال الاسبان كانت تتبعها انكماشاً ونشاطاً . لذلك اختلف المؤرخون من العرب فى تصويب أوتخطئة ابن تاشفين فيما عمل مع ملوك الاندلس في جوازه الثاني : فبعضهم يقول انما سار الى الأندلس بدعوة من مسلميها يستصرخونه فيما كان ينزل بهم من ملوكهم من المظالم وكثرة المكوس والضرائب وخيرا فعل . والبعض الآخر يقول انما بهره كثرة ماشاهده بها في جوازه الاول من عظيم الثروة وضخامة الملك وبارق العمران وتألق الحضارة فقصدها بتلك الحجة ، ونكل بملوكها حتى تكون له البلاد من غير شريك أو وسيط ، وينالهُ باللائمة لانه بعمله هذا هدم أول حجر من صرح حكم العرب في البلاد ، ذلك الصرح الذي أخذت حجارته تتناثر واحداً بعد الآخر الى أن تم هدمها بعد أربعة قرون (وهى قليلة في عمر الدول) .

وعلى كل حال فان ابن تاشفين ماكان له أن يقضي مرة واحدة على هؤلاء الرؤوس الذين كانوا يديرون ماكان في أيديهم من البلاد التى كانت في دائرة حكمهم ، والذين كانوا أدرى الناس بمسالكها ومساربها وادارتها وأعرف الناس بدائها ودوائها ، وأقدرهم على استثمارها والدفاع عنها لعدوها الذي كان لها بالمرصاد من جهتيها الشمالية والغربية .

على أن ابن تاشفين بعد أن بلغ شهوته من تملك البلاد من أقصاها الى

يد الاسبان حضر في جملة القواد الذين سلموا مفاتيح حصونهم الى فرديناند ورجعوا بالجوائز ، فلما وصل الدور اليه قال للملك فرديناند : « انى رجل مسلم قائد لحصون طبرنة وبرشنة . وقد تسلمتها للمحافظة عليها ولكنى فقدت حاميتها ومن بقى منهم لايطيقون الاستمرار في الحرب . وبهذا أصبحت لكم . وهاهى مفاتيحها » . فأمر فرديناند باعطائه مبلغاً كبيراً . فأبي أخذه بكل كبرياء قائلا : اني لم آت لا بيع ماليس من ملكي وليكن في علمكم أنه لو بقى معي من يسعفنى في قتالكم لكان الموت ثمن هذه الحصون بدلا من هذا الذهب الذي تنعمون به علي . فاعجب الملك بشهامته وطلبه في خدمته ، فأبي الا اجازته ومن كان معه الى أفريقية وهم في أمان على أموالهم ودينهم واعراضهم .

أقصاها كان لا بد أن يعامل ملوكها الذين أصبحوا في أسره ، من غير أن يبدأوه باعلان حرب ولا بخلاف في رأي إن لم يكن بالحسنى التي تليق بامثالهم فلا أقل من الشفقة والرحمة .

وأن من يطلع على بقية حياة ابن عباد فى سجنه وهو يرسف في اغلاله وقيوده بعد ما كان له من عزة الملك ونعيم السلطان : فراشه الغبراء ! وغطاؤه صفحة الهواء ! وانيسه البكاء ! وقرينـه الداء ! وسميره كل نوع من انواع البلاء ! ! ير ان قلوب الملوك اذا كانت كبيرة في نعمتها فهى كبيرة فى نقمتها . وان ابن تاشفين اذا كان خشنا في طعامه ، خشنا في لباسه ، لشدة فى دينه فقد كان سامحه الله خشنا فى معاملته لكل من اوقعه سوء حظه بين براثن غضبه .

ومن يطلع على قوانين الحروب فى هـذا الزمن ير ان الشخص المحارب بمجرد وقوعه في اسر عدوه تنقلب عداوة الغالب له شفقة واحسانا الى هذا الذي اصبح لاحول له ولا قوة . وقد يتركون للعظيم سلاحه ، ويوفرون له اسباب الراحة ، والامثلة فى هذا كثيرة تفوق الحصر .

وعلي كل حال فاذا كانت الاندلس قوية الجانب مدة يوسف بن تاشفين فانها ظهرت بعد قليل بمظهر الضعف في نهاية حكم المرابطين (١) لشدة عمالهم

---

(١) سموا بالمرابطين لانهم كانوا في أول امرهم يجتمعون برباط في صحراء مراكش يعبدون الله فيه مع شيخهم عبد الله بن ياسين ، فاجتمع عليهم اناس كثيرون اكثرهم من لمتونة احدى قبائل البربر ، وفي مقدمتهم يحي بن عمر اللمتوني . ولما انقسم الاندلس بين ملوك الطوائف ، استبد باطراف المغرب امراء الاطراف ، وقامت منهم دولة مغراوه بفاس وعاملوا الناس بظلمهم . وكان امر المرابطين قد ظهر واشتهروا بدينهم وتقشفهم . فكتب فقهاء سجلماسه الى ابن ياسين في الوفادة اليهم وكان ذلك في سنة ٤٤٧ هـ . فسار اليهم بمن كان معه من المرابطين وعلى رأسهم يحي بن عمر اللمتوني . واخذوا يستولون على البلاد التي في طريقهم . ولما مات يحي قام بامر القيادة اخوه ابو بكر بن عمر . ولما مات بن ياسين في سنة ٤٥١ انتهت الزعامة الى ابي بكر . وما زال في فتوحاته حتى انتهى أمر البلاد اليه . وهنالك عقد لابن عمه يوسف بن تاشفين على المغرب وانسحب هو الى الصحراء وقضى فيها بقية ايامه .

والمرابطون يسمون ايضا بالملثمين لانهم كانوا يغطون وجوههم بحيث لايظهر منها غير اعينهم . ويقال ان سبب ذلك شدة برد الصحراء وشدة حرها . ويقال ايضا أن سبب ذلك انهم في قلتهم خرجوا للغزو فجاء اناس وهجموا على ديارهم . فتلثم النساء وحملن السلاح ووقفن امام بيوتهن فظنهم عدوهم رجالا ورجع من حيث اتى . ومن ثم صار اللثام من عاداتهم .

الذين كانوا بعيدين عن المرونة السياسية ، وعن التسامح الذي ألفه أهل البلاد فى حكم من كان قبلهم ، ثم لخمود عزائم احفاد ابن تاشفين الناشيء عن اختلافهم طمعا في الملك . ولولا ان تغير حكمهم في المغرب بحكم الموحدين وظهر من هؤلاء ملوك من أحسن الناس عقلا ، واكبرهم فضلا ، واغزرهم علما ، وابعدهم نظرا ، واحسنهم سياسة ، واكملهم رياسة ، كعبد المؤمن وولده يوسف ، ثم يعقوب بن يوسف ، لما كان بقي ذكر لحكم المسلمين بالأندلس . حتى اذا جاء الناصر محمد بن يعقوب واجاز الى الأندلس بهذا الجيش الهائل الذي أعجبته كثرته الى درجة لم يحسن معها سياسته مع رجالات الأندلس بل عاملهم بالقهر والاذلال من غير ماسبب الا زهوه بنفسه واعجابه بكثرة خيله ورجله ، ودارت عليه الدائرة في حربه مع ملوك الاسبان وتمزق جيشه كل ممزق ، أخذ صرح البلاد يتناثر من أطرافه بسرعة في يد العدو ولم يبق في يد المسلمين غير غرناطة وهى إحدى ولاياتها الشرقية . ولم تلبث ان اتى عليها دورها من السقوط في يد الاسبان بعد ان ضعف امر بنى مرين ملوك المغرب ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

الرسالة التاسعة

بعد تسليم غرناطة

حاصر الملك فرديناند الثاني غرناطة سبعة أشهر حتى كاد الناس فيها يأكل بعضهم بعضا . وآل امر سلطانها ابي عبد الله بن علي الى تسليمها الى فرديناند وزوجته ايزابلا بشروط جملتها سبعة وستون شرطا : أهمها تأمين أهلها على أنفسهم ودينهم وأموالهم واعراضهم واملاكهم وحريتهم واقامة شريعتهم واحترام مساجدهم ومعابدهم وشعائرهم وفك اسراهم واجازة من يريد الهجرة منهم الى العدوة واعفاؤهم من الضرائب والمغارم سنين معلومة . وهكذا من أمثال هذه الشروط التي لم يعمل الاسبان بشيء منها . وبعد استيلائهم على المدينة رتبوا حكامها من النصارى فاخذوا ينتحلون الاسباب لمحاكمة المسلمين ، وكانت نتيجة الحكم أما التنصر أو الاعدام . وقد تنصر كثير من الناس صورة أو حقيقة على حسب قوة يقينهم في دينهم ، اتقاء لظلم الغالبين وعسفهم الذي لم يكن له من مبرر غير تعصبهم الديني . نعم كان تعصب الاسبانيين في منتهى حدوده . من ذلك ان ترتبت فى اسبانيا من أول القرن الثاني عشر انظمة كهنوتية لمحاربة المسلمين : منها نظام فرسان الهيكل ، ونظام قلعة رباح ، ونظام ماري يعقوب ، ونظام فرسان ماري جرجس ، ونظام سيدات الفأس وكان خاصا بالنساء . وكان لكل نظام ملابس خاصة به مرسوم عليها الصليب بحال تميزه عن غيره . لذلك كان تعصبهم الدينى تعصبا عنيفا لا يتفق مع السماحة (١) التي كان المسلمون يعاملون بها الاسبان وهم فى ضعفهم ، بل ولا يتفق مع معاملة مسلمي الشرق للنصارى في حروبهم الصليبية .

---

(١) الامثلة العملية على سماحه الدين الاسلامى كثيرة منها ان علي ابن طالب كرم الله وجهه وقف وهو بمركزه من الدين والعصبية بجوار رجل يهودي امام عمر بن الخطاب في قضية له عليه فسأله عمر بكنيته . فطلب اليه علي العدل بينهما قائلا لاتكنني يا أمير المؤمنين وانا بجانب خصمي .

وهذا التعصب وان كان موجوداً في الاسبان بطبيعته ، فقد زاده اضطراما ماكان يصدره البابوات من المنشورات ضد المسلمين ، خصوصا بعد استيلاء الاتراك على الاستانة عاصمة الدولة الرومانية الشرقية في سنة ٨٥٧ هـ . وفي هذا الوقت كانت اوروبا كلها محتدمة بفكرة التعصب الفظيع ضد المسلمين بصفة عامة وعلى الاخص بعد أن وصلت فتوحاتهم في أوروبا مدة السلطان سليمان الاول الى اسوارفينّا . واستولت اساطيلهم تحت قيادة خير الدين باشا امير البحر (بارباروس) على كثير من سواحل البحر الابيض المتوسط من جهتيه الشمالية والجنوبية . وكان لهذا الاسطول يد بيضاء فى اغاثة كثير من عرب الاندلس بعد سقوط بلادهم في يد الاسبان واجازتهم الى تونس والجزائر .

ولما أصبحت مظالم الاسبان ومغارمهم بحيث لايحتملها انسان ثار جماعة من

وكانت الخلفاء وهم في قوتهم وعصبيتهم الدينية يحترمون عقائد شعوبهم ولذلك تشعبت في مدتهم المذاهب الدينية . وكانوا يحترمون المتدينين من اهل الذمة سواء كانوا من النصارى او اليهود . وكانوا يوظفونهم في حكومتهم فكان منهم الاطباء والوزراء . وكان المتوكل العباسي على صلابته في دينه وتعصبه للسنية يؤاخذ النصارى على عدم تمسكهم بدينهم كما فعل مع طبيبه حنين ، وكان بلغه انه تفل على صورة السيدة العذراء فحده وسجنه .

وفي ايام المعتضد بالله قامت العامة على رجل من النصارى واتهموه بانه سب النبي واحضروه بين يدي الوزير القاسم بن عبيد الله وطالبوه باقامة الحد عليه ولكنه صرفه لتحققه عدم صحة دعواهم .

وقد صلب الخليفة الحكم بن الناصر احد عماله لانه بلغه انه ظلم احد أهل الذمة .

وقد وصل كثيرون من أهل الذمة الى مناصب الوزارة كعيسى بن نسطورس النصراني ، ومنشا اليهودي : وكانا من وزراء العزيز بالله الفاطمي . ومنهم اسماعيل بن نغزله اليهودي الوزير بغرناطة

بل أن الدول النصرانية كانت تلجأ الى سماحة الاسلام وعدالته فقد ارسلت حكومة المجر في سنة ١٦٠٥ م مدة السلطان احمد الاول سفيرا الي الاستانة يرجوه ان يجعل المجر تحت حمايته من ظلم النمسا المسيحية واسترقاقها للمجريين .

اما الاحاديث والاوامر الدينية التى توصى باهل الذمة فهى كثيرة جدا ولكننا اقتصرنا على ذكر الوقائع العملية لتكون امتن في الحجة على مافعله الاسبان مع العرب من ظلم لاتسعه مغفرة التاريخ .

ألبيّازين : وهم قوم من عرب الأندلس بغرناطة اشتهروا بعزتهم ونخوتهم وفتكوا ببعض الحكام ، وقد يكون هذا بدافع سياسي من عدوهم . هنالك قامت قيامة القسس ونادوا بالثبور وعظائم الأمور . وانشأوا محاكم التفتيش : وهنا تقشعر الابدان وتهلع النفوس لذكرى تلك الشنائع والفظائع التى كانوا يوقعونها على اولئك الابرياء مما سجله عليهم التاريخ في صفحات الوحشية التي لم يكن لها مثيل في صحيفة من صحائف المظالم من يوم خلق الله الانسان : فكم من نفوس قتلت ، ورجال صلبت ، واعراض هتكت ، وأموال نهبت ، وكتب احرقت ، وديار هدمت ، وجسوم مثل بها وهي على قيد الحياة ! !

ولما وصلت نكبة الاسبان للعرب سواء كانوا من المسلمين ، أو من اليهود ، أومن الذين تنصروا منهم الى الحد الذي لايحتمل ، وصدر امر الملك سنة ١٥٦٣ بأنهم يغيرون زيهم ولا يتكلمون الا بالاسبانية ، ثار أحد سلالة بني سراج واسمه فرج بن فرج ولجأ الى جبال البشرات وتبعه عدد غير قليل من غرناطة ، وكان منهم هادو ناندو دوفلور وهو من نسل خلفاء قرطبة . فنادوا به ملكا عليهم تحت اسم محمد بن امية ، وهنالك عمت الثورة كل نواحي جبال البشرات. واستمرت هذه الفتنة سنتين وهي على منتهى شدتها ، وابلى فيها الطرفان بلاء عظيما ، ومات منهما خلق كثير . وقد خلع المسلمون ابن امية لهوادته وولوا امرهم احد الزعماء المشهورين ببسالتهم وشجاعتهم واسمه عبدالله بن ابيه . وما زالوا في كفاحهم حتى غلبتهم كثرة الاسبان وشتتت جموعهم وافنتهم بين تقتيل وتحريق وتنكيل ، وبعد أن قتلوا رئيسهم عبد الله علقوا رأسه على احد ابواب قرطبة ، وبقى معلقا عليه ثلاثين سنة . وأخذ الاسبان بعد هذه الواقعة يطردون العرب من بلادهم ، وقد قدروا المطرودين منهم بعد سقوط غرناطة بثلاثة ملايين نفس ، كلهم اهل نجدة وصناعة وتجارة وزراعة . وعلى أثر ابعادهم خربت غرناطة وضواحيها حتى اصبح مرجها قاعا بلقعا بعد أن كان جنة الله في ارضه .

ومن ينظر الى حالة الاسبان وهم في ضعفهم وقلتهم ير أنهم كانوا كباراً في

جهادهم لعدوهم مدة ثمانية قرون ، كباراً في دفاعهم عن حوزتهم ، كباراً في نضالهم عن حياتهم، كباراً في نبذهم كل خلاف لهم تاقاء كل خطر يدهمهم ، كباراً فى مثابرتهم على دفع ذلك الخصم القوي الذي كان يتغلب على بلادهم ، حتى اذا تغلبوا عليه وانقلبت الحال بان صار هو الضعيف بين ايديهم،لم يكونوا كبارا معه فى شيء !! بل ضاعت كل محامدهم امام التاريخ للمثالب التى ارتكبوها مع العرب بعد استيلائهم على غرناطة : فقد اخفروا عهدهم ولم يوفوا لهم بذمتهم وعاملوهم باسم النصرانية بما تبرأ منه الانسانية : ذلك بان قرروا جمعهم بين مسلم ويهودي واستصدروا امرا ملكيا بان من لم يتنصر (١) منهم فجزاؤه القتل !! ولما رأوا أن كثرة سفك الدماء تؤثر بطبيعتها فى تهييج النفوس بما تخشى مغبته ، شادوا محارق في كل عاصمة من عواصم الاندلس، وكانوا يأتون بمن بقي على دينه من العرب ويلقون به في اتون تلك الجحيم . فتصعد روحه صارخة الى السماء ، بعد ان يذهب جسمه بخاراً في الهواء .

وكان بقى من العرب في الاندلس عدد ممن تنصر أو تدجن وكانوا يعاملونهم اسوأ معاملة .

والمدجنون هم المسلمون الذين بقوا في البلاد التى تغلب عليها الاسبان بسبب ضعفهم أو عدم قدرتهم على الهجرة الى بلاد اسلامية .

---

(١) لما فتح المسلمون الجزيرة (العراق) هربت قبيلة اياد ودخلت بلاد الروم فكتب عمر الى هرقل بردها . فاخرجها هرقل من دياره وكان على الجزيرة الوليد ابن عقبة فابى أن يقبل منهم الا الاسلام . فكتب اليه عمر « دعهم على أن لا ينصروا وليدا ولا يمنعوا احدا منهم من الاسلام » ثم عزل الوليد عنهم لسطوته وشدته . فانظر الفرق بين المعاملتين ! !

وفي مدة السلطان ابراهيم الاول العثماني استولت الدونانمة التركية سنة ١٦٤٥ م على خانية عاصمة كريد . وكان نصارى الجزيرة يساعدون البنادقة الذين كانوا متسلطين على الجزيرة ضد جيوش الاتراك واحرقوا فعلا مدينة بتراس وغيرها من الثغور . فاراد السلطان في مقابلة ذلك أن يقتل جميع النصارى الموجودين بالجزيرة . ولكن المفتى اسعدزاده عارضه في هذا الامر معارضة شديدة قائلا انه مخالف للشرع الاسلامى . وبذلك لم يقع سلطان العثمانيين في مثل هذه الشناعة التى وقع فيها ملوك الاسبان امام الله والتاريخ .

وقد وضع الاسبانيون لمن بقي منهم تحت حكمهم اشارة (١) في لباسهم تميزهم عن غيرهم سواء من النساء او الرجال ، كما جعلوا لهم قوانين خاصة بهم : منها انه لايجوز لمسلم أو يهودي أن يستخدم مسيحيا مطلقا . ومن خالف هذا يصادر في املاكه ، وليس لهم ان يقبلوا دعوة مسيحي ، او ان يدخلوا بيته الا اذا كان طبيبا . وقدحظروا عليهم معاملة المسيحين في أخذأو في عطاء . وان من يفر منهم الى بلاد المسلمين يعتبر أسير حرب وتضبط جميع أملاكه ، ويكون هو ملكا لمن يقبض عليه من الاسبانيين . ومن يعارض من المسلمين في تنصير ابنه يحكم عليه بغرامة فادحة . ولذلك كان كثيرمن المسلمين يقتلون اولادهم خشية تنصرهم . ومن كان من المسلمين له دين على اسباني بعقد لاتكون له قيمة إن انكره المدين الا اذا كان مسجلا فى محكمة اسبانية . وليس لرجالهم أو نسائهم أن يلبسوا الحلل الحريرية ولا يتزينوا بحلي الذهب والفضة . وبالجملة فقد كان محرما عليهم أن يركبوا الخيل وان يحملوا السلاح وان يظهروا باي

---

(١) جاء في الجزء الاول من المقرى وصف ابن سعيد المؤرخ لقاهرة عند زيارته لها في أوائل القرن السابع الهجري وهو الوقت الذي كانت فيه الحروب الصليبية قائمة على ساقها بين نصارى الغرب الذين أشعلوا في عامة أوروبا جذوة الحرب الدينية ضد مسلمي الشام ومصر: «والنصارى بالقاهرة يمتازون بالزنار في أوساطهم واليهود بعمائم صفر ويركبون البغال ويلبسون الملابس الجليلة » . ومن هذا تعلم أن تلك الحرب على شناعتها وصبغتها الدينية لم تحرك حقد المسلمين في مصر والشام ولا في غيرهما ضد النصارى الذين كانوا يعيشون بين أظهرهم ولم يكن تغايرهم في زيهم الا لتمييزهم من غيرهم ، كما ميزوا الاشراف بعمائم خضر سنة ٧٧٣ هـ . زمن السلطان الاشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون وفي ذلك يقول بن جابر الاندلسي نزيل مصر :

جعلوا لاولاد النبي علامة   ان العلامة شأن من لا يذكر

نور النبوة في كريم وجوههم   يغني اللبيب عن الطراز الاخضر

واذا كان صادف النصارى أو اليهود شيء من الاضطهاد في الدول الاسلامية فيكون ذلك أما انتقاماً لاثر سيء ظهر من جهتهم ليس للتعصب الديني أثر فيه أو استبداداً من بعض الملوك الذين لم تقتصر نقمتهم على من خالفهم في دينهم وفي مذهبهم الديني فحسب ، بل كثيراً ما كان ينال ظلمهم كل طبقة من رعاياهم لسبب أو لغير سبب وخصوصاً في دول المماليك . ومن ذلك ما أمر به صلاح الدين بن محمد بن قلاوون في سنة ٧٢٤ هـ من ان الفلاحين بمصر لا يركبون الخيل ولا يحملون السلاح !!

مظهر من مظاهر الدين الاسلامي لا بالقول ولا بالفعل : كالجهر بالشهادة أو الصلاة مثلا ! !

ولقد عقد القوم النية على ان لايبقى من العرب في البلاد مسحة من عمل أو أثر من طلل ! ! فالقوا بمن بقى منهم الى البحر فغرق من غرق ونجا من طال عمره الى بلاد المغرب اشتاتا في منا كبها ، عمالا يطلبون الحياة بعرق جبينهم ، بعد أن كانوا سادة فى مواطنهم ، قادة في بلادهم . وقد ذكر بعض السياح اخيراً انه شاهد بجوار تمبوكتو قبيلة اسمها اندلوز ، ولابد ان تكون من فلول عرب الاندلس .

ولقد سعدت بلاد المغرب بمن وصل اليها من ألاندلسيين ، وخصوصا تونس التى فتحت ابوابها لهم : فنهضت زراعتها ، وظهرت صناعتها ، وبرز عمرانها ، ونشطت حضارتها ، من بنايات على الطراز الاندلسي ، وعمارات على احسن شكل هندسي ، مما لايزالون يقيمونه فى المعارض المختلفة الى الآن . كما فقدت بهم اسبانيا رجالا عاملين ، وزراعا متقنين ، وصناعا فنانين حتى اصبحت بلادهم قفراء جرداء في كثير من جهاتها الى الآن . ولولا أن صادف طردهم للعرب من ديارهم اكتشاف (١) كولمب لامريكا ، وصارت لهم مصدر رزق جديد لكانوا هلكوا جوعا . وبالجملة فقد اجمع مؤرخو الافرنج على ان اسبانيا لم تحلم الى اليوم والى الغد بمدنية مثل مدنيتها مدة العرب . وسبحان من يرث الارض ومن عليها .

وقد استبقى القوم بعض الفنانين من المسلمين واليهود بصفتهم عبيدا لهم وحبسوهم في الاديار لنحت التماثيل ، وبناء الكنائس ، وتجديد بعض الآثار الفنية العربية مما لايمكن لغيرهم عمله . وآثارهم كثيرة تملأ دور الآثار باسبانيا من نحاس مكفت بالذهب والفضة او عاج منقوش وغير ذلك مما يستدعي الاعجاب والاغراب بدقة هذه الصناعة الفخمة وقمّا كانت اوروبا غارقة في بحار

---

(١) نقل بعضهم عن الادريسي انه خرج من اشبونه ثلاثة اخوة من العرب هائمين في بحر الظلمات جادين في الوصول الى ماوراءه ويقال انهم عثروا على جزيرة سكانها حمر . فاذا صح هذا كان العرب أول من اكتشف امريكا .

الهمجية والوحشية : ومع هـذا كله فانهم كانوا يدعون هؤلاء الصناع بالعبيـد ويعاملونهم باقسى المعاملات وخصوصا رجال الدين الذين هم اولى الناس بالشفقة والمرحمة واحق الخلق بالرفق والاحسان . وقد اشار الرندي الى ذلك في قصيدته المشهورة قال رحمه الله :

أعندكم نبأ من أهل اندلس	فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنو المستضعفين وهم	اسرى وقتلى فما يهتز انسان
بالامس كانوا ملوكا فى منازلهم	واليوم هم فى بلاد الكفر عبدان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم	لهالك الامر واستهوتك احزان

وقد يقول قائلهم ، أن العرب كانوا ايضا يستعبدون اسراهم . فنقول له على رسلك . فليس الامر فى الحالين واحدا : لان اسير الحرب ينزل بطبيعته على حكم الذي اسره . وكانت هذه سنة سار عليها الناس من قديم الزمان . وقد ترى صور اسرى الحرب منقوشة على هياكل المصريين وخصوصا في الكرنك ، وقد وضعت في اعناقهم السلاسل والاغلال ، وقدموا واحداً واحداً الى الملك المنتصر ليقطع بسيفه رقابهم تشفيا منهم أو ارهابا لغيرهم . وتواريخ الرومان واليونان والفرس حافلة بذلك . حتى الفرق المذهبية من دين واحد اذا حصلت بينهم وبين بعضهم حروب كانت القسوة تكون متمثلة فيها كل التمثيل: انظر الى حروب اليعقوبية مع الارثذوكسية، والسنية مع الشيعة، والكاثوليكية مع البروتستانتية ، تجدها كلها تنتهي بقسوة المنتصر . وترى هذه القسوة في الاحزاب السياسية لاختلافهم في رأي قد يكون صوابا وقد يكون خطأ . اما هنا فليس الحال كذلك: لأن القوم سلموا بشروط منها حقن دمائهم ، واحترام شرائعهم ، وحفظ اموالهم واملاكهم ، والابقاء عليهم في مواطنهم . وقد خالف الاسبان كل ذلك مع أنهم امضوا عليه صلحهم .

ولو رجعت معي الى حرب المسلمين لبلاد الفرس لرأيت غير ذلك . فقد كان العرب حاصروا مدينة جند يسابور من كل جهة وكانوا يراسلون المحصورين من الجهة التى فيها

القائد طبعاً بانهم ينزلون على حكم الفاتح . وقد كاد يتم لهم ذلك لولا ان أحد العبيد وكان على باب من أبواب المدينة خاطبهم في تسليم البلد ولهم حريتهم في انفسهم واملاكهم . ففتحوا له الباب وطالبوا الفاتحين بشرطهم فناكرهم المسلمون . وارسلوا يستشيرون عمر رضي الله عنه فامضى عمر أمان العبد قائلا : « المسلمون متكافئون فيما بينهم يجيز ادناهم على أعلاهم » . وقد احترم عمر رأي عبد من العبيد لتضامنه مع بقية الجيش في كونه معهم . وفقد المسلمون بذلك ما كانوا يغنمونه من هذه المدنية وهو شيء كثير . أما الملك فرديناند والملكة ايزابلا وكبار قومهما فأنهم لم يرعوا لهم وعداً ، ولم يحترموا عهداً مع أهل غرناطة .

وبقيت في البلاد بقية ممن تنصر من العرب (ويسمونهم مورسك) ، اندمجوا فيهم وتكلموا لغتهم ، ولكنهم حافظوا من جهة أخرى على لغتهم العربية فكتبوها بالأحرف الاسبانية ، ويسمونها الخميادو . ولاتزال فيها كتب كثيرة مكتوبة بالاحرف الافرنكية . ولكن من يطلع عليها يجدها لغة أخرى غير العربية لما صادفها من التحريف والتصحيف . ومن هذا أن اللغة القبطية القديمة كتبها أهلها مدة الدولة الرومانية بالاحرف اليونانية وقد دخل عليها كثير فى التحريف فاصبحت لا هي مصرية ولا هي يونانية .

وهنا ذكرت مابدا لاخواننا الاتراك من نبذ قواعد الكتابة التركية وتغييرهم حروفها بالحروف اللاتينية . ولا بد أن يصادفهم ماصادف العرب من الخميادو : فتصبح اللغة التركية لاهى بالشرقية ولا هى بالغربية : وبذلك يقضون على مجدهم القديم وتاريخهم الذي كله جلال وعظمة .

ولغة الاسبان الآن وان كانت من اللغات اللاتينية ترى فيها كثيراً من الالفاظ العربية بتحريف يسير أو تصحيف بسيط وكثيراً ماترى الاسماء العربية منتشرة فى القوم بشيء من هذا التحريف مثل NASSARE نصار . RABADANE رمضان . CALAF خلف . وقد عقد الاستاذ العلامة احمد زكى باشا باباً كثير الأهمية فى هذا الموضوع برحلته « السفر الى المؤتمر » .

وبالجملة فكل كلمة عندهم مبتدأة باداة التعريف (ال) فهي عربية مثل : القاضي « ALCALDE » . القائد . المنارة . الكرازة . الفارس . الوادى الكبير . الروضة . الابيار « ALAVIARE » . المحراب . الانبيق . الساقية . الربض . القصر . « ALCASARE » . القنديل . الفندق . القصبة . المسجد . القميص . السروال .

ولقد كنت أود أن أكثر لك من هذه الاسماء لولا أن ذلك يستدعى تحليلا فى لغة القوم وأنا اجهلها . وجهلى بها حال بيني و بين معرفة كثير من شؤون البلاد في حاضرها وغابرها . نعم كان معي دليل يعرف بعض الفرنسية ، ولكن الادلاء هنا هم أشبه الناس في مهنتهم بهؤلاء الذين تراهم على أبواب شبرد والكونتيننتال بمصر ، وعلى مدخل الكرنك وغيره من هيا كل الصعيد . الا أن الحكومة المصرية بدأت تهتم بشأن هذه الطائفة التى يسمونها تراجمة وأذكر أنها قررت عمل امتحان لهم في مهنتهم الارشادية الى الآثار المصرية وحسنا فعلت . ولو أن دار الآثار تحفل بوضع كراسة بسيطة بالعربية عن آثارها بمصر حتي يمكن أن ينتفع بها ابناؤها الذين لا يعرفون البحث فى كتب الآثار التي باللغة الاجنبية لكان لها فضل يذكر بجانب هذه الفائدة الكبرى التي تعود على البلاد من وراء هذا العمل البسيط المفيد .

وبهذه المناسبة أذكر أني كنت في زيارتي للكرنك فى الشتاء الماضي ، وكان به تلامذة صغار أتوا من بعض مديريات الصعيد لزيارته مع استاذهم الشيخ الذي كان يشرح لهم تاريخ هذه الآثار . وكان شرحه يدور حول كلمتين « أعجابه من ضخامة الاحجار التى بنيت بها هذه الآثار ! ! » واتفق وجود حسن بك الدجوي مدير اسوان فأخذ يشرح للتلاميذ تلك الآثار شرحا دقيقا يتفق وسنهم . ولا شك ان هذا الشيخ معذور لانه لو كان يعلم أكثر من ذلك لما ضن به على تلاميذه ، وهذا نقص كبير في حكومتنا التى

يذهب اهتمامها بالتافه من الأمور الى الحد الاقصى ، ويصل تقصيرها بالنافع منها الى حد لامثيل له في الحكومات الأخرى ! !

للعبرة والتاريخ

وصل طارق بالفتح الى منحدرات جبال البيرينات التى يسكنها قوم يسمونهم الباشكنس (الباسك) واحتل العرب كل جهات الجزيرة الا جزءا يسيراً في غربيها الشمالي قرب خليج جاسكونيا على نهر دافا ، كان العرب يسمونه الصخرة والاسبان يسمونه كوفادونجا ، لجأ اليه فلول من القوط «١٠» وغيرهم وانتخبوا للامارة عليهم رجلا من سلالة لذريق آخر ملوك القوط اسمه بلايو . وكان اهلوه يعتصمون بما فيه من الحصون والمعاقل الطبيعية ، ويستميتون فيها دفاعاً عن وجودهم وحياتهم .

وكان رأى طارق أن يطهر الجزيرة من سكانها الأصليين، وان تكون جبال البيرينات جميعها فى يد المسلمين ، حتى يكونوا فى أمن من هذه القلة التى كانت تسكن رأس البلاد ، وهى أشبه شيء بالمكروبات التى أن اهملت كثرت الى الدرجة التى ينوء الجسم بحملها . ولكن جوازه الى الشرق مع موسى بن نصير حال بينه وبين تنفيذ هذه الفكرة الثاقبة . وبقى القوم جاثمين في اغوارهم يتظاهرون للعرب بالطاعة والاخلاص . وقد يرشدونهم الى عورات الفرنجة فيما وراء البيرينات بل ويساعدونهم عليهم ، لامحبة في العرب ولكن دفاعاً للفرنجة عن كيانهم من الشمال ، كما كانوا يدفعون العرب عنه من جهة الجنوب . وما زال هذا شأنهم في سياستهم الحيوية حتى كونوا لهم دولة سموها ليون وأقاموا عليها

«١» انتهت دولة القوط بموت لذريق آخر ملوكهم في حربه مع طارق . ومن بقى منهم اندمج في البشكنس وغيرهم ممن بقى من العناصر الاسبانية في شمال البلاد ، كما اندمج كثير منهم في سواد الفاتحين . وكانوا لا يزالون يذكرون هذا اللفظ الى مابعد الدولة الاموية . ومن ذلك ابن القوطية ذلك العالم المسلم الكبير الذي مات سنة ٣٦٧ ه . وقد سأل الحكم بن الناصر أبا علي القالي : من أنبل من رأيته في اللغة ببلدنا ؟ — فقال محمد بن القوطيه .

ملكا منهم . ثم أخذت اطرافها تمتد الى الجنوب الشرقى حتى تمخضت عن مولود جديد سموه قشتيلة قام بتدبيره أمير منهم ، ثم آل أمره بأن صار ملكا . واستمرت أملاكهم تمتد الى الشرق ببطىء لايظهر معه خطرهم ، حتي ظهرت مملكة ثالثة سموها نافاريا . ثم انتهى الامر بوجود مملكة رابعة في الشمال الشرقى للبلاد سموها اراغون . وكانت هـذه الممالك تعمل على الدوام لحرب العرب بطريق مباشرة أو غير مباشرة : فكانوا اذا آنسوا من العرب قوتهم التى لاقبل لهم بها ، أخذوا يدسون الدسائس بين ولاة الاطراف بكل وسيلة ممكنة ، ويحتالون للوقيعة بينهم : فتدب البغضاء في قلوبهم ويظهر الخلاف في دوائر حكمهم وينتهي أمرهم بأن يعلن كل قبيل حربه على الآخر لسبب تافه . وهنا لك تضطر الامارة العامة للتدخل بينهما لردع الفئة الباغية بسيفها . وفي هـذه الاثناء قد تثور فئة ثالثة ضد رابعة . فتسير الامارة جيشاً آخر للفصل بينهما . وقد يكون تأثير هذه العوامل المفسدة في اشعال نار الثورات في القبائل ضـد عرش البلاد لسبب قد لايكون وجيها . فيشتغل الامير أو الخليفة بالحرب في داخلية بلاده حتى اذا اخمد النار من جهة تأججت فى جهة أخرى . وفي هذه الحالة قد ينهض الاسبانيون لاعلان حربهم عليه لاعتقادهم ضعفه ، فان كانت الغلبة لهم زادوا في دائرة حكمهم الى الجنوب . وان كانت عليهم اخذوا يتزلفون الى الامير بعبارات الاسف والتوبة بما يحسن عليه سكوته لتفضيله للسلم ، حتى يتفرغ للنظر فى شئون بلاده التي شغلته عنها كثرة الحروب . ولقد كان هذا حال المسلمين من منتصف القرن الثاني للهجرة الى منتصف القرن الخامس : لم يهدأ لهم بال في حرب ولا فى سلم من فعل ملوك قشتيلة وليون واراغون . الا في الاوقات التى كان فيها بأسهم فيما بينهم لخلافهم على الملك . وكثيراً ما كانوا في زمن ضعفهم يدفعون الجزية لامراء المسلمين وخلفائهم . وقد ظهرت تبعيتهم بكل معانيها لعبد الرحمن الناصر في النصف الثاني من حكمه . ولما وفد عليه سفراء ملوك الاستانة والفرنجة لتهنئته بالخلافة ولتوطيد دعائم التقرب والمحبة بينهم وبينه ، وفد عليه ملوك الاسبان متقدمين

بطاعتهم له وولائهم اليه . وبقوا على ذلك الى أن تمزقت الدولة الاموية الى ملوك الطوائف ، فاخذوا يتسعون في ملكهم ويضاعفون من قوتهم ويرمون ملوك المسلمين بعضهم ببعض ، وقد كانوا يأخذون الجزية من ضعفائهم الى أن انقطعت بحكم المرابطين ثم الموحدين . فلما ضعف سلطانهم أخذ ملوك الاسبان يزحفون من الشرق والغرب على الاندلس ، ويستولون مع البلاد على أطرافها ، حتى الجأوا العرب الى الانحسار الى غرناطة التي آل أمرها بان كانت تدفع الجزية لملوك قشتيلة زمنا طويلا . وانتهى بها الحال بان سلمت اليهم مفاتيح البلاد بعد أن خارت عزيمتها وضعف امرها أمام قوة هذه الفئة التي كانت فى القرن الاول لحكم العرب صغيرة ضعيفة متشردة فى سفح البرينات وساحل خليج جاسكونيا بحيث لم يعلق الفاتحون على وجودها اية اهمية ، وما كان يخطر على بالهم أن هذا البغاث سيستنسر يوما من الايام ، وذلك الرميس سيستأسد ، وتلك القلة ستكثر الى الحد الذي استكانت امامه قوة الفاتحين ، وانهار عرش سلطانهم تحت تأثير معاولها

الرسالة العاشرة

من غرناطة الى برشلونة

كنت أود كثيراً ان اسافر من غرناطة الى برشلونة من غربي الاندلس حتى كنت اشاهد مالقة، والمرية ،ومرسية ،وبلنسية، تلك المدن التي كان لها شأن عظيم في الدول الاسلامية .ولكن الطريق بكل أسف يكاد يكون غير مسلوك في الصيف على الخصوص لقلة المسافرين ولكونه يستدعى تغييرات كثيرة في فروع متعددة ليست أسباب الراحة متوفرة فيها . لذلك اضطررت الى العودة الى مدريد . ومدينة طليطلة على بعد تسعين كيلو متراً منها الى الجنوب وكانت عاصمة القوط. ففتحها طارق بن زياد سنة ٧١١ م . وما زالت تحت حكم الخلفاء حتى استقل بها سنة ١٠١٢ م اسماعيل ذو النون فيما استقل من ملوك الطوائف . ثم استولى عليها القشتاليون سنة ١٠٨٥ م وجعلوها عاصمتهم ومكان قوتهم الحربية .

ومن آثار العرب فيها كنيسة سنتا ماريا التي كانت مسجدا فخما ، ثم كنيسة سنتا ماريا دي ترنزيتو وكانت مسجداً جميلا . وقد غير اليهود الذين كانوا يعملون فيه وقت تحويله الى كنيسة ما كان فيه من الكتابة العربية الى كتابات عبرية . ومن آثارهم أيضاً فيها القنطرة التي على نهر التاج ولا يزال اسمها « القنطرة» . وكان للمأمون بن ذي النون بطليطلة قصر في منتهى الجمال والفخامة وفيه يقول ابو محمد المصري :

قصر يقصر عن مداه الفرقد عذبت مصادره وطاب المورد
نشر الصباح عليه ثوب مكارم فعليه الوية السعادة تعقد
وكأنما المأمون في ارجائه بدر تمام قابلته اسعد
وكأنما الاقداح في راحاته درجان ذاب فيه العسجد

وقبيل مدريد محطة ارانجوويز . وللملك فيها قصر جميل اسمه «دار الفلاح»

ذكرتني بدار الفلاح التي اقامتها جريدة السياسة الموقرة في المعرض المصري في اوائل الربيع الماضي . وقد كانت هذه الدار لاحد الفلاحين، فاستلطف ملك اسبانيا مركزها فاهداها اليه ذلك الفلاح . ومع ما دخل عليها من الاصلاح الذي جعلها جديرة بسكني الملك فلا يزال يطلق عليها اسم « دار الفلاح » .

وفي الساعة التاسعة صباحاً قام القطار السريع من مدريد الى برشلونة ، وسار فى طريق صحراوي كانت تكثر فيه المزارع كلما قربنا من سرقسطة : وهى مدينة عظيمة في منتصف المسافة بين مدريد و برشلونة ،وتبعد عن مدريد بأربعمائةوواحد واربعين كيلومتراً . وكانت هذه المدينة من أكبر المدن العربية وأشهرها . وما زالت فى حكم العرب من مبدأ الفتح الى سنة ١١١٨ م ، وفيها تغلب الفرنجة عليها فيما تغلبوا من شمال اسبانيا . فتركها بنوهود الى طليطلة، وأقاموا فيها الى أن سقطت هي أيضاً في يد القشتاليين . وفى سنة ١١١٩ هدم القوم مسجد سرقسطة وبنوا مكانه كنيستهم الجامعة (السكاتدرائية) . ولم يبق من آثار العرب في هذه المدينة غير قصر الجعفرية الذي بظاهر المدينة . وفى جانب منه الآن ثكنة للجنود . ولا يزال بهذا القصر قبة جميلة كانت لمسجد القصر . ويدخل اليها بتصريح من القائد العسكرى لهذه الجهة . وقد كان لهذا القصر باب جميل من النحاس البديع الصنع وهو الآن موجود بمتحف مدريد . وكان بجوار هذا القصر قصر السرور الذي يقول فيه المقتدر بن هود :

قصر السرور ومجلس الذهب ... بكما بلغت نهاية الارب
لو لم يحز ملكى خلافكما ... كانت لدي كفاية الطلب

وعلى طول هذا الطريق ترى تلالا عليها بعض بقايا الحصون العربية التى كان يسكن اليها حماة هذا الاقليم مدة حكمهم وأهمها قلعة أيوب .

وما زال القطار سائراً وعلى يساره الجبل ،وعلى يمينه المزارع الجميلة التى هي أثر لنظام الري الذي عمله العرب في هاته الجهة ، حتي وصل الى برشلونة الساعة العاشرة مساء .

برشلونة

يبلغ عدد سكانها ٥٤٤ الف نفس وهي الطف وأنظف وأرق مدينة اسبانية ، وهي العاصمة الثانية بعد مدريد ، ولكن لمركزها على البحر الابيض المتوسط تجد درجة الحرارة فيها لاتزيد عن ٣٠ سنتجراداً في الصيف ولا تنقص عن ٨ في الشتاء . وبالجملة فبرشلونة لاتعد من المدن الاسبانية سواء في طقسها أو في مناظرها أو رقة أهلها ، مما جعلها مورداً للاجانب على اختلاف اجناسهم : هذا للنزهة ، وذاك للتجارة ، والآخر لترويح النفس تحت سمائها الصافية وجوها المعتدل .

وتنقسم المدينة الى قسمين : المدينة القديمة وشوارعها ضيقة نوعاً وأبنيتها على النظام القوطي . والمدينة الجديدة وشوارعها واسعة وأبنيتها كلها على النظام الافرنكي الجميل .

وفي برشلونة ميادين كثيرة أهمها ميدان كتالوني ، وهو مكان الحركة التجارية العمومية واليه تنتهي الفروع الكثيرة المختلفة للترام والتى تخترق شوارع المدينة في عمومها تقريباً . وهذه الترامو ايات وكذلك الانوار الكهربائية التى بالمدينة تستمد قوتها من التيار الكهربائي العظيم الذي تولده شلالات ترومب على نهر أبره ، وعلى بعد مائتين وثمانية كيلومترات من برشلونة ، وتبلغ قوتها مائة الف فولت .

وتكثر فى هذه المدينة التياترات من كل صنف وكل نوع . وقد عددت في فى شارع واحد منها نحو عشرة بجوار بعضها ، مما يدل على ان مزاج أهلها ميال للسرور بدرجة كبيرة . ويظهر ان حركة الناس لا تنقطع فى الليل الى قبيل الصبح : لاني أستيقظت الساعة الثالثه بعد نصف الليل ونظرت من شباك غرفتي فوجدت الناس على افريزي الطريق وهم فى ذهابهم ورواحهم كما كانوا تقريباً بعد العشاء . ولو كان اليوم يوم أحد لقلت ذلك لهم ، لانه يوم راحتهم من أعمالهم . ولكنه كان في وسط الاسبوع : ولا اقول انهم يعملون ليلهم ويرتاحون نهارهم على قانون قره قوش فى عصر الايوبيين : لانى وجدت الحركة العمومية كعادتها

غاية في النشاط في الساعة التاسعة صباحا . ويظهر ان مسألة السهر عادة في بلاد اسبانيا كلها اصبح القوم معها يكتفون في نومهم بقليل من الزمن .

وفي المدينة كنائس جميلة . وهم يبنون الآن كنيسة اسمها « سجرادا فامليا » وقد تغالوا في تأنقهم في مبانيها بشكل لايمكن أن تتم معه قبل خمسين سنة .وفي شمال المدينة جبل « تابيدابو » ويصعد اليه بالفنيكوليره في طريق طوله ١١٥٠ مترا بين غابة جميلة من الصنوبر . وفي سطح هذا الجبل ترى لوكندتين وقهاوي وبعض الملاهي ، منها ترامواي كهربائي تسير عرباته معلقة في سلك القوة الكهربائية في الجو في طريق متعرجة الى جانب الجبل بحال تقف النفس امامها بين راغبة في ركوبها او راهبة منها .

وفيه ايضا ارجوحة من اراجيح الصناديق الحديدية قطر دائرتها نحو خمسين مترا فاذا صعد الانسان الى اعلاها وجد منظرا من احسن المناظر يطل من جهة على البحر الابيض المتوسط ومن اخرى على جبال البيرينيه ، والمدينة بين هذا كله كأنها صحيفة جغرافية .

والى الجنوب الشرقي للمدينة متنزه (بارك) جميل للغاية في منحدر الجبل بمدرجات لطيفة ، وفي وسط هذا المتنزه لوكندة « جراند أوتيل » . وفي وسط هذا البارك قام تمثال مثال اسباني. وهنا تذكرت مثالنا المصري مختار الذي عمل تمثال نهضة مصر ، وقد نال على جودة عمله الجوائز العالية من فرنسا ، ولكنه عندنا لا يكاد يعرفه أحد !! والناس لا يكادون يهتمون بعمله الذي له بضع سنوات يعمل في اقامته بميدان محطة القاهرة . وهذا كله من عدم اهتمام البلاد وحكومتها بالفنون الجميلة . ولولا عناية الامير يوسف كمال بها وبفتح مدرستها من سنوات لما كان لفني التمثيل والتصوير ذكر في مصر . والمسيو سانتيز رسام الكشكول الشهير وأمثاله فضل كبير في انتشار الرسم الكاريكاتوري بها بصفة خاصة .

وبالجملة فبرشلونة مدينة افرنكية صرفة ، وليس للعرب فيها من أثر لأنهم استولوا عليها سنة ٧١٢ هـ ثم أخذها منهم شارلمان في سنة ٧٨٠ الى أن

أخذها منـه الاسبان . لذلك أرجوك أن تسمح لي أن يسدباب الـكلام عنها لانها لاتهمنا في موضوعها ولا فى مدنيتها بشيء .

وتقرب من برشلونة معادن الزئبق . وكيفية استخراجه ان تغلى حجارته في آنية من الفخار فيسيل ما عليها من الزئبق ويصعد على وجه القدر ثم يسير منها في انابيب توصله الى خزانات يجتمع فيها . وكانت العرب تستغل هـذه المعادن زمن وجود هذه المنطقة فى حكمهم . وتقرب من هذه الجهة مناجم البوتاس وهي في يد شركة بلجيكية .

ولقد كنت عقدت النية على زيارة بلنسية من طريق برشلونة لانها في الجهة التي بلغت عناية العرب بها في مسائل الري كل مبلغ : فقد شقوا انهارها وحفروا ترعها واجروا خلجانها وسيروا اليها الماء من جبال سيرا نوفادا التى هى مقر الثلوج المستديمة فى الجنوب الشرقى من الاندلس . وبنوا على الترع قناطر كثيرة لحجز المياه الى المناطق العالية ، حتى اصبحت هذه المنطقة جنة من الجنان . وكانت دورة الزراعة فيها ثلاثية في السنة في مدتهم . وهي للآن الجهة الوحيدة التي تتجلى فيها آثار العرب بكل مظهر في اسبانيا . لان ارضها تنتج الزراعات المنتظمة فى كل ادوار السنة فتزرع فيها الفاكهة بكل اصنافها والقمح والذرة والبنجر والدخان والارز والخضر وخصوصا البصل الذي بوفرته فيها قد يؤثر على البصل المصري في اسواق اوروبة . والقوم الآن يجربون فيها زراعة القطن .

نعم كنت عقدت النية على زيارة بلنسية التي دخلها العرب سنة ٧١٤ م وبقوا فيها الى سنة ١٢٣٨ ، حتى استولى عليها منهم جيم الاول ملك اراغون بعد حصار طويل من البر والبحر . وهي الى الآن لايزال فيها الاثر الحيوي للعرب ، ذلك الاثر الذي لايمحوه الزمان ولا يمكن ان ينكره الاسبان على ممر الايام لانه مصدر حياتهم ومستقى ثروتهم : ولكني عند ما حضرت الى برشلونة كنت في شدة التعب من شدة ماعانيته في جنوب اسبانيا من الحر ، خصوصا وقد سمعت بان جو بلنسية حار جدا بل أشد فى حرارته مما رأيته في قرطبة ،

وأشبيلية ، وهو الذي قال فيه عبد الرحمن الاوسط امير الاندلس حين سار لغزو جلّيقه :

فكم قد تخطيت من سبب ولاقيت بعد دروب دروبا
ألاقي بوجهي سموم الهجيـــر اذ كاد منه الحصى ان يذوبا

لذلك طويت صحيفة جولتي فى هذه البلاد وانا آسف كل الاسف لهزيمة عزيمتى امام قوة الطبيعة وشدتها . راجيا أن يوفقنى الله تعالى الى عودتي اليها في أحد الربيعين حتى ادرك في غدى مافاتنى في يومي .

والآن وأنا اكتب كلمتي الاخيرة عن اسبانيا والجرائد الفرنسية تشير الى مافيها من أثر عصيان أقسام من الطوبجية في جملة من نواحيها ؛ وينسبون ذلك الى ماصادف ضباطهم من الغبن على أثر رقي الضباط الذين كانوا ولا يزالون فى الريف ، اسمح لنفسي أن أقول للقراء الحقيقة التى فهمتها وأنا في تلك البلاد التي لاتزال تحت عبء ثقيل من الاحكام العرفية . لهذا كنت ترى أهلها يكرهون المارشال دي ريفييرا الحاكم المطلق فيها. وقد بدأوا يتذمرون من الملك لتسليمه أمور البلاد الى هذا الطاغية. وقام منهم جماعة يعملون لاسقاط الملكية واعلان الجمهورية. وجعلوا مركزهم مدينة سان جان دولوز الفرنسية والتى بجوار الحدود الغربية الشمالية الاسبانية . وعملوا فعلا للقبض على الملك في سان سباستيان فى إحدى نزهاته بها لارغامه على التنازل عن الملك. وقد مر بك في كلامنا على هذه المدينة انه كثيراً ماتراه يتنزه بها من غير حرس، ولكنهم لم ينجحوا في تدبيرهم لسفره الى مدريد . وهنالك وضع يده في يد دوريفيرا للقضاء على هذه الفتنة التي تشير التلغرافات الى انتهائها على خير ، ولا يعلم الا الله ماتحت رمادها الذى يظهر للناس هادئاً مطمئناً .

وهنا يجمل بي أن أشير الى طرف من الاحكام العرفية وشدتها مما لم اكن أريد التحدث به لولا هذه الحركة. لانه لايهمنا نحن المصريين فى شيء فانه خارج عن موضوع سياحتى التى اعلنت البوليس الاسباني عنها أنها تاريخية محضة : ذلك أن البوليس الملكي والعسكري كان ينتشر في عربات السكة الحديدية بعد قيام القطار

من كل محطة رئيسية . ويسأل كل مسافر عن تذكرة مروره سواء كان من أهل البلاد أو من الاغراب ، ذكراً كان أو أنثى . وقد يسألون الشخص عن الجهة التى يقصدها وعن سبب سفره اليها وعن مدة اقامته فيها . وقد صادفت وانا في طريقي الى برشلونة أن شخصاً بعينه سألنى عن ذلك مرات على جملة خطوط أخرى. فأردت أن الفت نظره الى ذلك ، ولكنه أجابنى بكل هدوء « نعم اعرف ذلك ولكني أؤدي واجبي في معرفة وجهة كل مسافر » فاذعنت لأمره وبعد أن اطلع على الباسبور ، سألنى عن وجهتي وعن المدة التى اقيمها فيها وعن اللوكندة التي أنزل اليها فاجبته بما حسن سكوته عليه ، وانصرف الى غيري بسلام . وكان بجواري قسيس فطلب اليه جوازه ، فاستنكر القسيس ذلك لما للقسس من عظيم الجاه في بلادهم ولكون البوليس يعرفه شخصياً . فالح الضابط في ضرورة رؤية الجواز واستمر القسيس فى عناده . وهنالك انبرى له أحد الركاب فى نفس الديوان الذي كنا فيه بعبارات التوبيخ القارص حتى أذعن لامر الضابط صاغراً ، وحمدنا الله على أن ترك القسيس بعدها الديوان وانصرف الي غيره ولعل ذلك من خجله . وقد عرفت بعدها أن الشخص الذي كان معنا من كبار الحكام .

أما في اللوكاندة فكانوا يطلبون الباسبور وبعد أن يتحققوا من صورة صاحبه يأخذون نمرته واقراره بخطه على كل مافات من البيانات . ومن هنا تعرف ان شدة الاحكام العرفية هي من أسباب تلك الحركه التي لا يعلم الا الله ما وراءها .

وهنالك أثر آخر سيء في نفوس الناس من الهزائم المتوالية فى حرب الريف ، سواء فى أوله مدة عبدالكريم الذي خدع بمواعيد فرنسا الطويلة العريضة حتي نزل من سنام مجده ومن منعة زعامته التي وصل بها في أول أمره الى اسمى فخر وصل اليه الزعماء والرؤساء ، وطبق صيته ما بين الارض والسماء ، فاسلم نفسه الى فرنسا لا بعامل الجبن والهزيمة والضعف ، ولكن بعامل الطمع في تحقيق تلك الآمال التى فسحوا له فى دائرتها بالوصول الى سلطان اوسع ، حتى انتهى أمره بالنفي الى

جزيرة صغيرة من جزر الاقيانوس هو وعائلته مقهورين غير مشكورين ، لا من الفرنسيين ولا من غيرهم !! وسواء في مدة الزعيم الجديد الذي لايزال هو والقبائل التي بقيت معه يصلي الدولتين ناراً ، ويضرم في قلوبهم من متانة موقفه معهم جمراً وشراراً ، بما جدد اليأس في قلوب الاسبان وتحققوا معه أن ليس لهم يدان على الاستمرار في الحرب مع هذا الزعيم الجديد ، بعد ان كانوا طووا صحيفته مع الزعيم القديم . كل هذا أثر على الناس حربيين وغير حربيين حتى ظهر دخان ثورتهم في وسط الطوبجية ، ومع أنهم يقولون إن دي ريفيرا قبض على ناصية الحركة في البلاد بيده الغشومة . ولكن من يدري ان لذلك رد فعل وان الجندية تقهقرت لتهجم ، والامة ربضت لتثور ، والله عليم بمصير الامور .

للعبرة والتاريخ

قبل أن اترك أرض اسبانيا أرى من الفائدة ذكر كلمة عن تاريخها وحالة أهلها يعرف من يطلع عليها ان اسبانيا العربية غير اسبانيا الحالية سواء في مدنيتها أو في قوتها المادية والمعنوية :

اسبانيا تكوّن مع البورتغال الجزء الممتد من جنوب أوروبا الى البحر ومساحتها وحدها ٢٣٠ ر٤٩٢ كيلو متراً مربعاً . واذا أضفنا اليها ممتلكاتها في جزر البليار (ومساحتها ٤٩٩٤ كيلو متراً) ، وفي جزر كناريا (ومساحتها ٧٦٢٤ كيلو متراً) ، وفي مراكش (ومساحتها ٣٥ كيلو متراً) ، كان مجموع مساحتها مع املاكها ٩٠٣ ر ٥٠٤ كيلو متراً مربعاً . أما عدد أهلها فكما جاء في احصاء سنة ١٩٠٠ «٩٥٦ر٦١٧ ر١٨» من النفوس . وقد زاد هذا العدد نحو مليون نفس في مدة ٢٠ سنة ، فتكون الزيادة في هذه المدة خمسة ونصفا في المائة من السكان ، وهي زيادة قليلة جداً بالنسبة لزيادة الامم الاخرى :

واذا قارنا زيادة الانفس في اسبانيا بزيادتها في القطر المصري ، نران تعداد هذا القطر فى سنة ١٨٩٧ ، وهى المدة التى تقابل زمن تعداد اسبانيا تقريبا ، كان ٢٢٨ و٧١٧ و٩ من النفوس ، وان تعداده في سنة ١٩١٧ كان ٢٥٥ و٧١٨ و١٢ من النفوس : فتكون الزيادة فى عشرين سنة هى ثلاثة ملايين نفس تقريبا ، وهي ثلاثة وثلاثون فى المائة من عدد السكان .

وعلة عدم زيادة الاهالي في اسبانيا هي عدم عنايتهم باطفالهم لانهم لايهتمون بالمسائل الصحية فى عمومها ويظهر انهم ورثوا ذلك من زمن بعيد ، حيث كان القسس يحرمون عليهم الاستحمام حتى لايتشبهوا بالمسلمين في تطهرهم وفى وضوئهم . ولعلهم يشاركون بعض فلاحينا في عدم تنظيف اولادهم خشية عيون الحاسدين ؟ ؟

وترجع العلة من جهة اخرى الى كثرة هجرتهم طلبا للعيش ، لان اسباب الحياة تضيق بهم في بلادهم اما لقحولة قلب البلاد لكثرة ما فيها من السلاسل الجبلية ، او لقلة الأنهر فى الشمال والغرب ، ولان الموجود منها تجف مياهه فى اكثر ايام السنة وهذا لعدم اهتمام الحكومة بالمسائل العامة لانها فى طول ادوار حياتها في يد قوم لايهتمون الا بشخصياتهم وهم الاشراف والقسس ورجال الحرب . ولا يزال في ايدي الاشراف والقسس اغلب الاراضي الخصبة ، وهي تلك الاقطاعات الواسعة التى كان يحسن بها الملوك على كل قبيل منهما . وهذا عدا الاوقاف الكثيرة التي كان الاهالي يرصدونها للكنائس . وكل ذلك غير ماتأخذه هاتان الطائفتان من المرتبات الشهرية التى لاتزال تبهظ مالية الحكومة . وحسبك ان تعرف ان عدد القسس في اسبانيا الآن يزيد على سبعين الفا وأن في أيديهم التعليم في جميع ادواره من ابتدائي وثانوي وعال ولهذا اصبح لهم النفوذ الشامل فى البلاد من أقصاها الى اقصاها .

وأول مايعرفه التاريخ من امر اسبانيا أنها كانت مسكونة بالبسك أو الفندال قبل ان يلتجئوا الى جبال البرينات . ثم بالأيبيريين الذين قدموا من الجنوب .

وفي اواخر القرن الخامس قبل المسيح احتل الفنيقيون هذه البلاد . ثم اتى من بعدهم اليونانيون والروديسيون وانشأوا الثغور التى على البحر الابيض مثل قادس وملقا وغيرها ، مما كانت قواعد تجارية لهم يتبادلون فيها مع أهل البلاد بضائع الشرق بالمعادن التى كان الاهالي يستخرجونها من اراضيها . وفى سنة ٢٣٨ ق م ، بدأ القرطاجيون باحتلال النصف الجنوبى من اسبانيا ، ثم بنوا مدينة برشلونة في شمال الساحل الشرقى ، وكانوا يسمونها مدينة برقة ، باسم القائد الفاتح BARCA الذي بناها ، وبنوا في جنوبها قلعة قرطاجنة . وفي سنة ٢١٩ ق م . حاصر انيبال مدينة ساجونت ، وجر ذلك الى الحروب البونيقية الثانية .

وفى سنة ٢٠٤ ق م . غزا الرومان اسبانيا وبنوا فيها مدينة اشبيلية ، وما زالت تابعة لحكمهم الى سنة ٤١٢ م . وفيها استولى اتولف ملك القوط على برشلونة . وهو أول ملك قوطي باسبانيا . وبقي القوط بهذه البلاد تارة مستقلين وأحياناً تابعين للرومان وقد الزموا الفندال (ومنهم أتت كلمة فاندالوس أو أندلس) الى الانحسار الى جبال البيرينات ولا يزالون بها الى الآن .

وقد وصل حكم القوط من العظمة مدة ملكهم أوريك الى أن وصلت فتوحاته الى نهر اللوار بفرنسا . ودخلت النصرانية اسبانيا في مدته . وبعد وفاته اضطربت احوال المملكة الى أن حكم الملك اتانا جيلد سنة ٥٥٤ م وجعل طليطلة عاصمة له ، واستولى بعده ولده ريكارد سنة ٥٨٦ ، ففتح أبواب مملكته للقسس ، وتمذهب بالمذهب الكاثوليكي ، وحارب الرومان واجلاهم عن البلاد التى كانوا لايزالون يحتلون منها الساحل الشرقى . ثم طرد اليهود من اسبانيا وعاملهم معاملة قاسية . وفي سنة ٧٠٩ انتخب رودريك (والعرب تسميه لذريق) ملكا على البلاد ، وفى مدته دخل العرب اسبانيا . ولعل اليهود المطرودين هم الذين أرشدوا العرب الى سهولة فتحها .

وقد بقي ملك العرب باسبانيا الى أواخر القرن الخامس عشر من الميلاد وفى غالب مدتهم كان السلطان العام فى البلاد لهم وكان حكمهم فى عمومه كله مجد وعظمة . وكان ملوك الاسبان في أول أمرهم في منتهى الضعف ، وكانوا يدفعون الجزية لأمراء المسلمين ، ولكنهم كانوا على الدوام يحاربونهم بالدسائس والسعايات وهى سلاح الضعيف . ولما قويت عصبيتهم على ممر الايام كانوا يحاربون العرب في ظروف كثيرة كلما آنسوا منهم خلافا او ضعفا ، وكان نصيبهم الخذلان في كل حروبهم معهم . حتى اذا بلغهم زحف الناصر محمد سلطان الموحدين بجيشه الهائل على اسبانيا ، استغاث ملوك الاسبان بامم النصرانية فى أوروبا فى كل جهة ، واعلنوا الحرب المقدسة . فهرعت اليهم جيوش النصرانية وبعد هزيمة الناصر صلبت شوكتهم وقويت عزيمتهم ، ولم يضيعوا فرصة هزيمة العرب بل أخذوا يتغلبون على اطراف البلاد ، حتى اذا كانت سنة ١٤٩٢ م استولى فرديناند ملك اراغون وايزابلا ملكة قشتالة على غرناطة التى كانت الملجأ الأخير للعرب ، ثم طردوا المسلمين من ارض اسبانيا كلها ، وبذلك اصبح لهما الحكم المطلق فيها . وبموتهما ورثت عرش البلاد ابنتهما چان ، وتزوجت من فليب الاول ابن مكسيمليان الاول ملك النمسا ، وهو أول ملك اسباني من عائلة هابسبورج . ولما اصيبت جان بالجنون آل الملك لولدها شارل الاول ، الذي سمى فيما بعد بالامبراطور شارلكان .

وقد كان الاسبانيون يكرهون شارلكان لتوجيه اهتمامه للنمسا وحدها . فاشغلهم بالحروب ضد فرنسا وامريكا . وفي مدة فليب الثاني (من ١٥٥٦ الى ١٥٩٨) الذي كان ملكا لاسبانيا والبلاد الواطئة والاملاك التى كانت له في ايطاليا وأمريكا ، قضى بغشمه على الحرية الدينية والسياسية ، وظهر في هذا الطريق بكل مظاهر الاستبداد ، ولم يكن متعصبا لدينه فقط ، بل كان متعصبا لمذهبه الكاثوليكى تعصبا اعمى : فقد حارب البروتستانت بلا جدوى . وكانت حروبه لانكلترا وفرنسا وتركيا نتيجتها هزائمه المطلقة .

وفى سنة ١٥٨٠ استولى على البورتغال عنوة ، حتى اذا مات كانت البلاد على منتهى الضعف المادي لسوء ادارته وخرق سياسته التي جرت اسبانيا الى فقد املاكها، والى طرد ملى بقى فى بلادها من المسلمين واليهود الذين اصلهم من جنس عربي ، وكان عددهم يزيد على مئات الالوف ، كلهم من ارباب الصنائع والمشتغلين بالزراعة .

واستمر بيت هابسبورج الى اوائل القرن الثامن عشر وانتهى بموت شارل الثاني من غير عقب ، بعد ان عهد بملك اسبانيا الى حفيد اخته ماري تيريزه التي كانت زوج لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، ويسمى فليب الخامس . فاعلنت النمسا حربا على اسبانيا مكثت اثنتى عشرة سنة ، وكانت نتيجها تنازله عن نابل وسردنيا للنمسا ثم تنازل عما كان يملكه في البلاد الواطئة . وبعد ذلك تنازل عن صقلية للسفواي ، وعن جبل طارق وجزيرة ميورقة للانكليز .

وفى سنة ١٨٠٥ تعاقدت اسبانيا مع فرنسا واشتركت معها في حربها مع انكلترا ، فخسرت دونمتها فى واقعة الطرف الاغر . وفى هذه السنة قامت ثورة البلاد ضد شارل الرابع بتدبير ولي عهده فرديناند . فتداخل نابليون الاول في الامر ودخل بجيوشه ارض اسبانيا لتهدئه الفتنة ، وهناك اعلن تعيين اخيه ملكا على اسبانيا . فقام الاهالي بايعاز انكلترا ومساعدتها واعانوا حرب الاستقلال التى انتهت بانسحاب نابليون وبتنازل اخيه عن عرش اسبانيا . وفي مدة شارل خسرت اسبانيا جميع املاكها فى امريكا ، فاضطر الى التنازل عن الملك واعقبه فرديناند وتسمى بفردیناند السابع . وفي سنة ١٨٢٠ قام ضده الحزب الحر الذي تكون في البلاد ، فاستصرخ بفرنسا فارسلت اليه الدوق انجوليم على رأس جيش لتسكين الفتنة وتأييد عرشه ومات فردیناند سنة ١٨٣٣ بعد أن اوصى بالملك لابنته ايزابلا : فحرك ذلك من ضغينة اخيه الدون كارلوس فقام بالثورة ، واشتغلت الحكومة بمحاربته الى سنة ١٨٣٩ .

وفى سنة ١٨٤٣ اعلن رشد ايزابلا ، فابتدأت الاضطرابات في انحاء البلاد ، وقامت الثورة فى جميع أطرافها الى سنة ١٨٤٨ . ففرت ايزابلا الى فرنسا ، وانتخب

الشعب سيرانوزعيم الحركة الوطنية رئيساللحكومة بصفة موقتة. في أول يونيه سنة ١٨٦٩ اعلن سيرانو الدستور فى البلاد لاول مرة واصدر قراره بالابتداء في الانتخابات البرلمانية .

وفي سنة ١٨٧١ تنازلت ايزابلا عن الملك الى ولدها الفونس ، فلم يقبله الشعب . وعرض حزب الاحرار تاج انبلاد على الدوق أميدا الابن الثاني لملك ايطاليا فكتور عمونايل ، فقبله ولكنه استقال للاضطرابات التى قامت ضده . وهنالك اعلن الاحرار الحكم الجمهوري . ولم تطل مدته الا من ١١ فبراير سنة ١٨٧٣ الى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٧٤ ، لان الجمهوريين لم يستطيعوا اقامة حكومة تسير دفة البلاد التى كانت فى فوضى عامة .

وفي ٢٩ ديسمبر اعلن الجنرال كامبوس جلوس الفونس الثاني عشر (ابن ايزابلا) على عرش اسبانيا . فقامت الثورة الكارلوسية ثانياً الى سنة ١٨٧٦ . وبعد انطفائها قام الفونس ببعض الاصلاح ، ومات في سنة ١٨٨٥ ، فخلفته الملكة ماري كرستين في الحكم ، وكانت حبلى ، فلما ولدت بقيت وصية على ولدها الفونس الثالث عشر ، وفى مدتها عطل الدستور . وقامت الحرب بين اسبانيا والولايات المتحدة سنة ١٨٩٨ ، وبها فقدت ما بقى من مستعمراتها في أمريكا (كوبا وبورتوريكو والفيليبين) ، ثم باعت جزر كاروليين الى المانيا .

وفي سنة ١٩٠٢ اعلن رشد الفونس الثالث عشر (الملك الحالي) وتسلم زمام الملك ، في وسط اضطرابات مالية وحربية ، لدخول البلاد فى حرب مع الريف الذي ينازع اسبانيا الى الآن فيما بقى لها فى مراكش من ذلك الجزء الذي على المحيط : ذلك الجزء الذي كلفها من الأموال والدماء ما ابهظ ماليتها وافنى شبيبتها وحرك نيران الثورة في كل ناحية من انحائها . ولولا أن البلاد ترزح تحت عبء الاحكام العرفية ، لكان لهيبها قضى على الرطبة واليابسة !! ولولا أن سيف دورفيبرا الذي قبض على أزمة البلاد مصلت على رقاب الناس من صغير وكبير بما فيهم الملك ، وأن سواد ضباط الحرب الذين أصبحت موارد البلاد في أيديهم يشدون أزر هذا الزعيم المستبد ، لكانت اسبانيا تركت دارها البيضاء الى كبير الريف في زمن بعيد ، ورضيت

من مناوشاتها وحروبها مع عرب مراكش ، والتى كان نصيبها منها تلك الهزائم المتوالية في السنوات الأخيرة ، بأوبة من بقي هناك من جيوشها (بسلامتهم) ، ولكنها تخشى من عودتهم الى اسبانيا خشية من اشعالهم نيران الثورة بسبب الاستغناء عن أكثرهم، لعجزها عن الصرف عليهم اذا وضعت الحرب أوزارها ، ووضعت للضرائب حدودا معقولة عادلة، وعلي الأخص اذا رفعت الاحكام العرفية.

مما تقدم تعلم أن الاسبان قد نمت فى عروقهم مكروبات الثورة لتعصبهم لرأيهم الذي هو أثر تعصبهم الدينى ، الذي كان القسس يبثونه فيهم منذ كان العرب واليهود بين أظهرهم، هذا التعصب الدينى الذي لا ينطبق على عقل ولا حكمة . لذلك كانت حربهم للعرب حربًا دينية لا وطنية. واعقب ذلك حربهم لليهود وطردهم من بلادهم ، ثم حربهم للبروتستانت في البلاد الواطئة وغيرها . وقد ورث الابناء هذه العاطفة السقيمة عن الآباء ، وأخذها الاحفاد عن الاجداد، ولا يزال القسس يبثونها في روح الناشئة لوجودها بين أيديهم في عامة المدارس. وبذلك أصبحت العاطفة الوطنية ضعيفة فيهم جداً ، مما كان سبباً فى هزائمهم فى جميع حروبهم . وفقدهم لجميع أملاكهم التى حصلوا عليها في أمريكا ، وقت ان كان سكانها لافرق بينهم وبين الحيوانات التى كانت في دائرة بلادهم . ويظهر ان استيلاءهم عليها كان بعامل المصلحة الشخصية لا الوطنية: لذلك لما قامت مستعمراتهم فى وجههم طلبًا لحريتها ، لما كانوا يلاقونه من كثرة مظالمهم لعدم معرفتهم باساليب الاستعمار ، انهزموا أمامهم لأنهم كانوا يحاربونهم اشخاصاً لا جماعات

وليس من دليل على تعصب الاسبان مما تركوه فى بلاد الارجنتين بأمريكا الجنوبية من بذور هذا التعصب الشنيع فى المدة التي ملكوها فيها من سنة ١٥٢٣ الى سنة ١٨١٠ م التي اعلنت فيها هذه البلاد استقلالها.

فقد جاء فى رحلة سمو الامير الجليل محمد على باشا لهذه البلاد في مايو سنة ١٩٢٦ ما نصه :

« ومن الامور المضحكة التى يجوز اثباتها في سجل السياحة على سبيل

الفكاهة أن قد وصلني كتاب من الارجنتين يقول فيه مرسله انه قرأ في الجرائد مدحي والثناء عليّ وحيث أن له عواطف نحوي فهو يشير عليّ مراعاة لصالحي أن أكون كاثوليكياً لأنه من الأسف الشديد أن يكون رجل مثلي بعيداً عن طريق الهدى ومحجة الصواب واني ان لم أقبل ذلك دخلت الجحيم وعذبت العذاب الأليم وعلى ذلك ينصح لي بالأسراع الى التوبة واعتناق الكثلكة الحقة ذلك الدين القويم والصراط المستقيم

وعقب الامير ذلك بقوله « هذا والاسبانيون كالايطاليين والبورتغاليين متعصبون لدينهم فلو كان مثل هذا الامر قد حصل لأمير عربي وهو سائر في بلاد المشرق لعد ذلك تعصباً من المسلمين وكان ذنبا عظيما لايمحى ولا يغتفر » .

ومن هذا وذاك ترى أن الشعب الاسباني أصبح من الفقر وضعف الارادة بمكان لجملة أسباب:

أولا لتوزيع مالية البلاد على الاشراف والقسس وملكهم لأغلب أراضيها الخصبة ، واستيلاؤهم على وظائف الحكومة المهمة . ومرتبات القسس السنوية وحدهم تبلغ ٢ مليون جنيه ، وهو عشر مالية الحكومة تقريبا .

ثانياً الجيش الذي يلتهم جل ايرادات الدولة بما تضطر معه الى الاستدانة بكثرة . وهى الآن ترزح تحت عبء دين ثقيل ، لولا شدة الاحكام العرفية لظهرت آثاره السيئة مهددة لكيان البلاد.

ودين اسبانيا كما جاء في لائحة رسمية (أنظر دايرة المعارف للبستانى) بلغ فى سنة ١٨٧٤ (٤٠٤٨١١٤٠٨) ليرة انكليزية، وفائدته السنوية (١٠٢٣١٢٢٨) ليرة انكليزية ، ولابد أن يكون دينها الحالي أكثر من هذا بكثير ، وهو مالم أوفق لمعرفته .

ثالثا ــ قلة المواصلات في البلاد وصعوبتها. ومع أن مساحة اسبانيا أكثر من ٤٩٢ الف كيلومتر مربعا ، فالطرق الحديدية لاتزيد فيها عن ١٥ الف كيلومتر على

مافيها من عدم توفر أسباب الراحة ، مع أنها فى مصر التى لا يبلغ المعمور فيها غير ٣٢ الف كيلو متر مربعا (١) تزيد على أربعة عشر الف كيلو متر .

رابعاً — حرب الريف التى كلفتهم مصاريف باهظة جداً .

خامساً — كسل الاهالي وعدم ميلهم الى العمل وذلك لاستسلامهم الى الافكار الساذجة التى ادخلها القسس في عقائدهم حتى أصبحوا أقرب الناس الى الآخرة منهم الى الاولى ، وان شئت فالى الموت منهم الى الحياة .

سادساً — شيوع الأمية فيهم لقلة ميزانية التعليم بحيث لا يصل عدد القارئين منهم إلى ٤٠ في المائة على أكثر تقدير . وأشنع ما فيهم محاربتهم لتعليم البنات لفكرة سخيفة (لايزال موجوداً بمصر شيء منها وخصوصاً فى جهات الصعيد) ، واعتقادهم بأن كثرة العلم تؤدي بالشخص الى الزندقة والالحاد ! !

هذا هو شأن اسبانيا اليوم في عمومها . وان وجد فى عواصمها شيء من الحياة انطبق عليه المثل العربى « كل الصيد فى جوف الفرا » وبالجملة فالاسبانيون اذا كانوا يعيشون بجسومهم في القرن العشرين فعقليتهم لاتزال تتصل بالقرون الوسطى .

وما دامت البلاد على مافيها من فقر مدقع (٢) وتعصب سخيف وعدم نشاط للعمل ودم يغلي على الدوام ببخار الثورة ، وحكومة مع فقرها لاتهتم الا بقبيل من الناس دون الآخر تاركة أساليب الاصلاح فيها الى الشركات الاجنبية من انجليزية والمانية وفرنسية وامريكية ، فمصيرها من غير شك لا يبشر بقرب مستقبل سعيد .

---

١ مساحة مصر مليون كيلو متر مربع منها معمور ٣٢ الف كيلو متر والباقي صحارى غير معمورة .

٢ بلغ من فقر الاسبانيين انهم يبيعون محاصيلهم في الغالب وهي على ارضها قبل نضجها . ولا يزال بمصر شيء من ذلك الا انه في وسط المترفين من ابناء الاغنياء أكثر منه في وسط الفقراء .

بعض الاعلام الاسبانية بالافرنكية وما يقابلها بالعربيه

ALARCOS	الأرك
ALBAICINS	البيازين
ALCAZARE	القصر
ALGESIRA	الجزيرة الخضراء
ALHAMBRA	الحمراء
ALICANTE	القنت
ALJAMIADO	الخميادو
ALMERIA	المريه
ALMAZAR	المزار
AINDAMAR	عين دامر
ALPHONSE	الأذفونش
ALPIXARAT	البشرات
ASTURIES	مغارات استوريش
ATARZANA	الترسانه
AVERROES	ابن رشد
AVILA	أبله
AXAROF	الشرف
BADAJOS	بطليوس
BARCELONE	برشلونه
BASA	بسطه
BEJA	باجه
BASQUES (les)	البشكنس
BOABDIL	ابو عبد الله
BURGOS	برغش
CADIX	قادس
CARCASSONE	قرقشونه
CARTAGENE	قرطاجنه
CASTEJON	قسطجون
CASTELLE	قشتيله
CENTRA	شنتره
CEUTA	سبته
COIMBRA	قاميره
CORDOUE	قرطبه
EVORA	بوره
FONTARABIA	فنترابيا
GALICE	جليقه
GIBRALTAR	جبل طارق
GRENADE	غرناطه
GOTHS (les)	القوط
GUADALAJAR	وادي الاحجار
GUADALAVIAR	وادي الابيار
GUADALQUIVIR	وادي الكبير
GUADIANA	وادي اليانع
GUADIX	وادي آش
INQUISITION	محكمة التفتيش
JAEN	جيان
JATIVA	شاطبه
JERCY	شربش
JULIEN	يوليان
LA VEGA	المرج

LANGDOC	لانجدوك
LEON	ليون
LERIDA	لاريده
LISLONNE	لشبونه
LOJA	لوشه
LORCA	لورقه
LUQUE	لك
MADRIDE	مجريط
MALAGA	مالقه
MAURES (les)	المغاربه
MEDINACELI	مدينة صالح
MERIDA	مارده
MIRANDA	ميرنده
MURCIA	مرسيه
MASQUITA	المسجد
PELAGE	الملك بلاي
PORTO	مدينة البورتغال
PORTUGALE	البورتغال
PROVENCE	بروفانسه
RODERIC	لذريق
RONDA	رنده

SAINT-SEBASTIEN	شا نت اشتا بن
SALAMANQUE	صلمنقه
SANTIAGO	شا نت ياقو
SANTAREN	شنتارين
SARAGOSSE	سرقوسه
SARRASINES-LES	الشرقيون
SEGOVIC	شقوبيه
SEGURA	ساجوره
SEVILLE	اشبيليه
SIDONIA	شذونه
TARIFA	طريف
TARIK	طارق
TARTOSE	طرطوشه
TARRAGONE	طركونه
TOLEDE	طليطله
TOLOSA	طالوشه
UBÉDA	أبده
VALENCE	ولنسيه
XEMINES	شمينيس
ZAMORA	صاموره

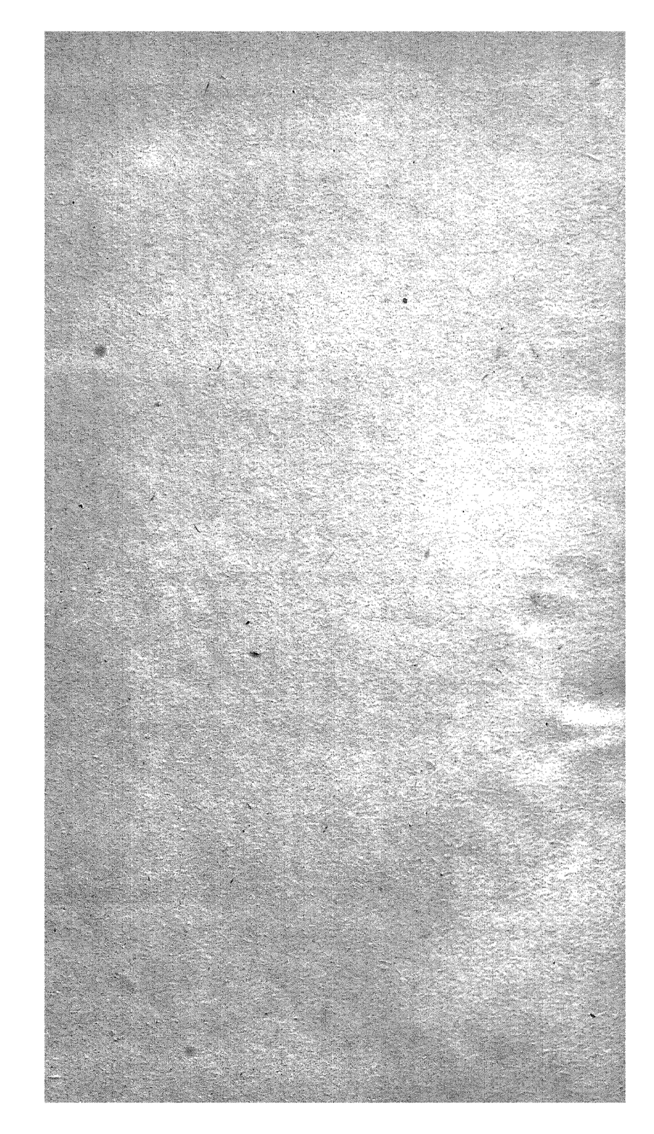
صحيفه	سطر	خطأ	صواب
١٠	١٥	مأواج	أمواج
١٦	٧	من وهى	وهي من
١٧	١٨	القوط	القشتاليين
٢٣	٦	وأمانه المسوال	السموأل
٢٨	١	ابناأهم	أبنائهن
٣٠	١٢	أرزته	أرزته
٣٤	٢٥	قاد	قاده
٤٠	١٣	فسيفوس	فسيفوسيس
٤٠	١٣	PHSEPHOSIS	PSEPHOSIS
٤٦	١٥	لا يعلم	ولا يعلم
٤٩	١٩	فقتل	قتل
٥١	٢٠	القوط	القشتاليين
٧٠	١	ابن ابي عامر	ابن عباد
٧١	١٤	تذهو	تزهو
٨٠	٨	على	وعلى
٨٠	٢٣	ونصف، مترا	ونصف متر
٩٧	١	حتى أمكنه	
٩٩	٢٤	يزيد	يزيدا
١٠٥	٩	القوط	القشتاليون
١٠٦	١٢	PATINS,,	PAINS'
١١٥	١٥	الثاني عشر	الثامن عشر

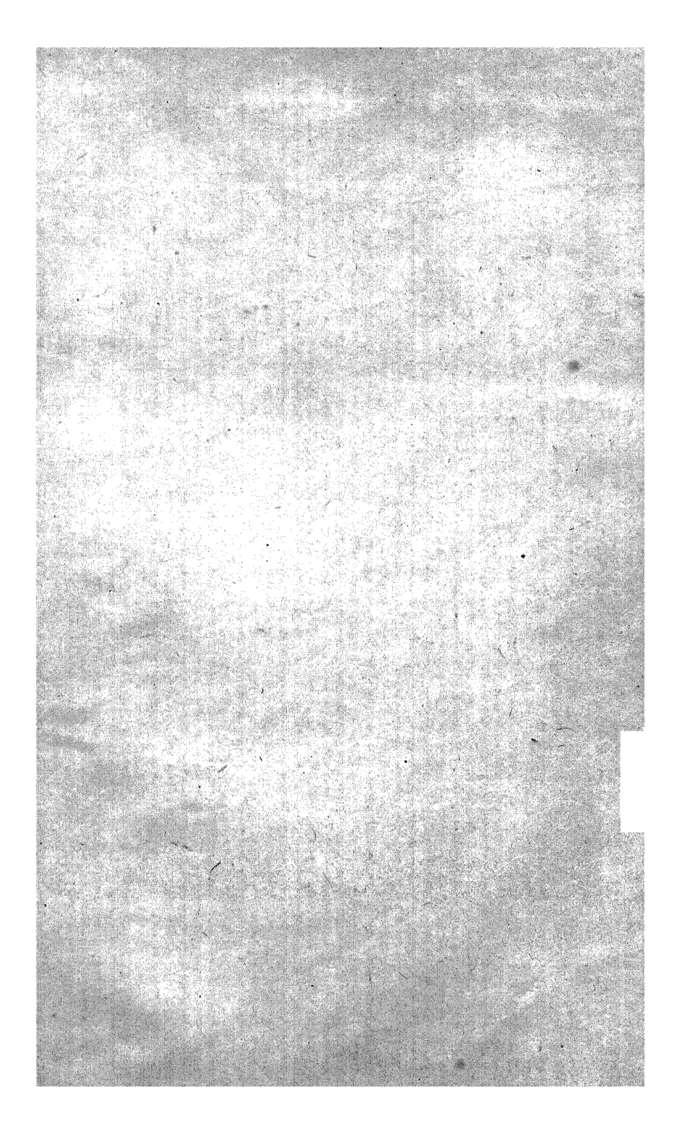
فهرست

تمت

مطبعة الكشكول

سنة ١٩٢٧








Bibliotheca Alexandrina
0409133